جامعة الملك سعود

كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

مسائل العقيدة في كتاب التوحيد من صحيح الإمام البخاري (عرض ودراسة)

- بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في العقيدة -

إعداد الطالب

يوسف بن حمود حوشان الحوشان

إشراف

أ. د. عبد العزيز سيف النصر عبد العزيز

١٤١٧ هـ - ١٤١٨ هـ

المقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأرسل إلينا أفضل الأنبياء والمرسلين، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس.

والصلاة والسلام على عبده ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى. وبعد؛

فقد كان المسلمون حتى وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وصدر من عصر الصحابة –رضوان الله عليهم– على منهاج واحد، وسبيل متحد في الاعتقاد والأحكام، ولهذا كان بينهم من الوفاق العلمي والاتفاق العملي ما يجعلهم قدوة الأمة، يعض على أقوالهم بالنواجذ.

مصدرهم الذي يعتمدون: الكتاب والسنة؛ عنهما يصدرون، وإليهما يتحاكمون، وبهما يحتجون، لم يعرضوا عن نصوص الوحي، ولم يعارضوها، ولم يعطلوها ولم يحرفوها، ولا يقبلون من أحد – ولو علت في النفوس منزلته – مقالة في الدين حتى يأتي بشاهدين: الكتاب والسنة.

وقد أكمل الله لهم الدين فلم يزيدوه، وقد أتمه لهم فلم ينقصوه، وقد رضيه لهم فلم يسخطوه، وأصل الدين وأساسه معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب له على عباده.

ولا يجوز لأحد أن يظن برسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه لم يبين ما يجب على المؤمن اعتقاده بربه، لأن هذا هو الذي أُمر بتبليغه، قال شيخ الإسلام –رحمه الله– " من المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبها، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه، وما يمتنع

عليه، فإن معرفة هذا أصل الدين، وأساس الهداية وأفضل الأعمال، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة، وهم أفضل الخلق بعد النبيين – لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً". (١)

ولما بدأ الانحراف عن هذا المنهج كان لورثة الأنبياء الأئمة العلماء مقاومة لهذا الانحراف وتقويماً له وكان أول أعمالهم بعد جمع القرآن، جمع الأحاديث النبوية والآثار السلفية عن أصحاب وتابعي خير البرية، ويصف ذلك العلامة المباركفوري بقوله: " إن أول عمل عمله العلماء التابعون المحدثون في هذه الأيام المظلمة أن دونوا علوم الحديث على الأصول الصحيحة، وألفوا وصنفوا". (٢)

ومن كبار علماء أهل السنة وأئمة الهدى الجامعين لميراث خير الورى، أمير المؤمنين في الحديث (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) المتوفى سنة ٢٥٦ هـ.

فإنه أجهد نفسه في جمع ما صح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبوبه وهذبه وصنفه على ابتكار عجيب وفقه بزَّ به من قبله وأعجز من بعده، حتى قيل:

أعيا فحول العلم حلّ رموز ما أبداه في الأبواب من أسرار

وأفراد لمهمات العقيدة أبواباً، كان من أهمها كتاب التوحيد، وهو آخر جامعه الصحيح. وقد اشتمل على مسائل كثيرة نهج في ترتيبها نهجاً فريداً في التبويب بآية أو حديث ويتبعه بما يستنبطه منه بإيراد حديث أو أثر يدل على ترجمة الباب، وقد حوى هذا الكتاب ثمانية وخمسين باباً (٥٨) اشتملت على إحدى وثمانين ومأتي حديث وأثر (٢٨١).

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ٥/ ٦ " بتصرف ".

(٢) سيرة الإمام البخاري لصفي الدين المباركفوري صـ ٢٢٥.

ولا يخفى ما لهذا الجامع العظيم من شروح كثيرة واختصارات وحواش جاوزت الـ (١١٥) ما بين مطبوع ومخطوط. (١)

وكتاب التوحيد داخل ضمن هذه المنظومة العظيمة، ولكن كثيراً مِمَن تولى شرحه يلاحظ عليه عدم الالتزام بمنهج البخاري في مسائل العقيدة، فكثيرٌ من الصفات التي يثبتها البخاري مستدلاً عليها بنص من كتاب الله أو سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –، غالب الشراح يحاولون ردها، إما بتأويلها، أو بدعوة في الإجماع على خلافها، أو التصرف بمنهج البخاري: كرد حديث الآحاد في العقيدة، ونحو ذلك.

وقد تبين لي هذا من مطالعة بعض شروح البخاري المتداولة. مثال ذلك: في أول شرح للبخاري وهو (أعلام الحديث) للإمام الخطابي –رحمه الله تعالى– فعند " باب ما جاء في قوله عز وجل:

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾ [سورة النساء: ١٦٤]

قال: وليس في هذا الكتاب حديث أشنع ظاهراً وأبشع مذاقاً من هذا الحديث – يعني حديث أنس في الإسراء والمعراج وفرض الصلاة– ورجح –رحمه الله– أنه حكاية من أنس أو غيره – ثم قال – وأيهما صح هذا القول عنه وأضيف إليه فقد خالفه فيه عامة السلف المتقدمين والعلماء وأهل التفسير والتأويل منهم ومن المتأخرين (٢) وفي هذا تجاوز من الإمام الخطابي تجاوز الله عنا وعنه.

---

(١) لتفصيل ما أجمل انظر: الإمام البخاري وصحيحه د. عبد الغني عبد الخالق صـ ٢٣٠ – ٢٤٥.

(٢) انظر تفصيلاً أعلام الحديث للخطابي ٤/ ٢٣٥٢ تحقيق د. محمد بن سعد.

وكقول ابن بطال -رحمه الله تعالى- في حديث (لا شخص أغير من الله) قال: " أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص لأن التوقيف لم يرد به" (١)، بينما في المسألة كلام طويل، وقد بوب له البخاري -رحمه الله تعالى-.

ومثل هذا يرد في بعض الشروح وهو ما أدى إليه اجتهادهم - يرحمهم الله جميعاً-. ولكنه خلاف قول السلف فلهم أجر الاجتهاد - إن شاء الله - وهو مغمور في بحر حسناتهم الكثيرة وخدمتهم لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، فنسأل الله لهم الرحمة والمغفرة.

قال خاتمة الحفاظ ابن حجر -رحمه الله- في مثل هذا: " ورد الروايات الصحيحة والطعن في أئمة الحديث الضابطين مع إمكان توجيه ما ردوا من الأمور التي أقدم عليها كثير من غير أهل الحديث، وهو يقتضي قصور فهم من فعل ذلك منهم". (٢)

ويستحضر هنا دقة البخاري -رحمه الله تعالى- حينما ألف الصحيح وأن شرطه سلامة المعتقد، فقال: "كتبت عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم إلا صاحب حديث، وقال: لم أكتب إلا عن من قال الإيمان قول وعمل يزيد وينقص". (٣)

وانتظاماً في هذا السلك المشرّف وهذا الطريق السالك لمن دعى لهم النبي عليه الصلاة والسلام بالنضارة وهم أهل السنة والحديث، حاولت السير في ركبهم باستخراج مسائل العقيدة من كتاب التوحيد في هذا الجامع العظيم وإبرازها وبيان فقه الإمام البخاري فيها لأسباب عدة بيانها فيما يلي:

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤١١.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٤١٣.

(٣) هدي الساري مقدمة فتح الباري صـ ٤٧٩.

أهمية وأسباب اختيار الموضوع:

١ – أن الجامع الصحيح له قصب السبق في تقديمه أصلاً للاعتقاد بعد القرآن الكريم.

٢ – إبراز الطريقة السلفية في الاعتقاد والاقتصار على المصدرين الأساسيين في التلقي وتفرع غيرهما عنهما.

٣ – إظهار جهود الإمام البخاري في العقيدة لا محدثاً فقيهاً فقط.

٤ – إظهار طريقة الإمام البخاري –رحمه الله تعالى– في استنباطه للمسائل العقدية وتميزه في ذلك.

٥ – بيان مخالفة بعض الشروح لمنهج الإمام البخاري في بعض مسائل العقيدة وتوجيه ذلك على منهج السلف.

٦ – إبراز الكتاب لجهد البخاري في فترة عصيبة للأمة وهي – فتنة خلق القرآن– وبيان موقفه منها، حيث ضرب بسهم وافر فيها، بل وامتحن بسببها.

أهداف البحث:

وهي فيما يلي:

١ – استخراج مسائل الاعتقاد من كتاب التوحيد في صحيح البخاري وتبويبها ثم الكلام عليها.

٢ – إظهار مراد البخاري منها بالجمع بين ترجمة الباب والأدلة التي ساقها.

٣ – دراسة هذه المسائل وبيان وجه الحق فيها والرد على المخالفين في ضوء معتقد السلف الصالح قدر الطاقة.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي للمسائل والتحليلي للنصوص، وهنا لابد من التمسك بغرض البخاري من الترجمة إذ بدون ذلك لا يمكن حصر مسائل العقيدة من جميع النصوص في رسالة واحدة، بل في عدة رسائل، فالموضوعات كثيرة، والشواهد كثيرة جداً – من حيث هي نصوص – وسأقتصر على تبويب البخاري وغرضه من الترجمة حتى يمكن حصر الموضوع، وأرجو أن أتمكن من ذلك – بإذن الله–.،

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وبابين وملحق وخاتمة وفهارس متعددة.

المقدمة: وقد سبق بيانها.

التمهيد: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حياة البخاري وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده

المطلب الثاني: نشأته وسيرته العلمية.

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه.

المطلب الرابع: مؤلفاته.

المطلب الخامس: شمائله.

المطلب السادس: علمه وثناء الأئمة عليه.

المطلب السابع: محنته في مسالة اللفظ.

المطلب الثامن: وفاته.

المبحث الثاني: التعريف بالجامع الصحيح وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه وموضوعه.

المطلب الثاني: سبب ومدة ومكان تأليفه.

المطلب الثالث: منهج البخاري في تصنيف الجامع ومكانته.

المطلب الرابع: قيمة كتاب التوحيد بين أبواب الجامع وعناية العلماء به.

الباب الأول: دراسة مسائل العقيدة في كتاب التوحيد

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول: التوحيد والرد على الجهمية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: جهود العلماء في التأليف فيه.

المبحث الثاني: تعريف التوحيد.

المبحث الثالث: تعريف الجهمية.

الفصل الثاني: أول واجب على المكلفين.

الفصل الثالث: الأسماء الحسنى وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: إثبات الأسماء الحسنى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إثباتها وأقسامها.

المطلب الثاني: دلالتها على الذات

المبحث الثاني: مسألة الاسم والمسمى.

المبحث الثالث: عَدّ الأسماء الحسنى وإحصاؤها.

المبحث الرابع: الأسماء التي ذكرها البخاري.

المبحث الخامس: إطلاق بعض النعوت على الله وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: إطلاق الذات على الله

المطلب الثاني: إطلاق النفس على الله

المطلب الثالث: إطلاق الشيء على الله

المطلب الرابع: إطلاق الشخص على الله

الفصل الرابع: من أحكام الأسماء الحسنى وفيه مبحثان:

المبحث الأول: السؤال بالأسماء الحسنى والاستعاذة بها.

المبحث الثاني: الحلف بالأسماء الحسنى.

الباب الثاني: الصفات الإلهية

ويشتمل على تمهيد وخمسة فصول:

التمهيد: تعريف الصفة وأقسام الناس فيها.

الفصل الأول: الصفات الذاتية وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: ما ورد في السمع والبصر.

المبحث الثاني: ما ورد في العلم والقدرة وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما ورد في العلم.

المطلب الثاني: ما ورد في القدرة.

المبحث الثالث: ما ورد في المشيئة والإرادة.

المبحث الرابع: الصفات (الخبرية) وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ما ورد في الوجه.

المطلب الثاني: ما ورد في العين.

المطب الثالث: ما ورد في اليدين والأصابع.

الفصل الثاني: الصفات الفعلية وفيه مباحث:

المبحث الأول: الصفات الاختيارية [شبة قيام الحوادث بذاته تعالى].

المبحث الثاني: ما ورد في الاستواء على العرش.

المبحث الثالث: ما ورد في العلو.

الفصل الثالث: ما ورد في الرؤية.

الفصل الرابع: ما ورد في صفة الكلام.

الفصل الخامس: ما ورد في أفعال العباد.

ملحق في بيان منهج البخاري – رحمه الله – في بيان مسائل العقيدة وردّه على المخالفين.

– الخاتمة: وفيها أهم النتائج وبعض التوصيات.

– المراجع.

– الفهارس المتنوعة.

بعض الضوابط التي سرت عليها:

١ – خرجت الآيات من القرآن الكريم.

٢ – خرجت الأحاديث التي في غير البخاري؛ أما ما كان في البخاري فلم أتعرض لما كان في كتاب التوحيد لأنه مجال البحث ولا تخلو منه صفحة وأما ما كان في غيره أبين مكانه (وإيراد الجميع مؤذنٌ بصحته إذ أجمعت الأمة على قبول ما في الصحيح) ويكون أتعزو برقم الحديث في المصادر الأخرى.

٣ – ما يورده البخاري معلقاً أشير إلى من وصله أن كان مما وقع فيه الخلاف خاصة أن ابن حجر قد تولى وصل جميع المعلقات في الصحيح في كتابه تغليق التعليق.

٤ – ترجمت لغير المشهورين من الأعلام خاصة من لهم صلة في المباحث وعرفت بالطوائف والبلدان المبهمة والألفاظ الغريبة.

٥ – أكثرت من النقول عن أئمة السلف في توضيح مسائل العقيدة لبيان موافقة البخاري لهم، خاصة من تقدمه منهم وصدرت كلامهم إذ أن مجال العقيدة مما يخشى أن يزل به بنان أو يعجز عنه البيان مع التوضيح والمناقشة عند الحاجة.

٦ – اكتفيت في تفصيل بعض المسائل المشهورة إلى الإحالة إلى المصادر التي تناولتها.

٧ – أخرت البيان المتعلق بالمصادر والمراجع إلى الفهرس المخصص لها حتى لا تتضخم الحواشي.

٨ – لكثرة النقل عن الإمام ابن حجر الشافعي رحمه الله اكتفي بقول (قال الحافظ).

وفي الختام أحمد الله وهو للحمد أهل أن أعانني على إكمال هذا البحث على ما فيه من ضعف البشر وقصر النظر فما فيه من صواب فهو محض فضله سبحانه وتعالى على عبده المسكين وأسأل الله أن يعفو عن الزلل.

ثم أشكره شكر العارف بنعمته وأسأله المزيد منها.

وأترحم على والدي الكريمين وأسأل الله أن يجزيهما عني خير الجزاء وألا يحرمهما جزاء ما ربيا وعلما، اللهم اغفر لهم وارحمهم وعافهم واعف عنهم.

كما أشكر القائمين على جامعة الملك سعود ممثلة بكلية التربية وقسم الثقافة الإسلامية فيها فجزى الله القائمين على ذلك خيراً.

كما أشكر أساتذتي الكرام ومشايخي الفضلاء على ما أولوه من رعاية ونصح خلال مدة الدراسة.

وأخص منهم بالذكر فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو الغيط الفرت الذي كان مع هذا البحث فكرةً وبحثاً وتشجيعاً وعنايةً بالباحث فجزاه الله عنى أفضل الجزاء.

وأجد القلم عاجزاً والبيان قاصراً عن شكر أستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور عبدا لعزيز سيف النصر المشرف على الرسالة الذي كان بحق الموجه والمشرف المتمكن علماً وتواضعاً وتشجيعاً وتذليلاً لكثير من الصعوبات التي واجهت هذا البحث فأسال الله أن يجعل ما فعله صلاحاً في نفسه وولده وأن يجزيه عني خير الجزاء وأشكر سلفاً الأستاذ الدكتور شوقي إبراهيم على تلطفه في قبول مناقشة البحث وتشجيعه المستمر وعنايته بهذا البحث.

كما أشكر كل من ساعدني في هذا العمل بأي وسيلة، وإن كنت خاصاً أحداً بذكر – وكلهم أهل لذلك – ففضيلة المشايخ: د. إبراهيم الصبيحي ود. عبد الرحمن المحمود ود. محمد الوهيبي.

ثم الشكر الخاص/ لأشقائي الذين كانوا الطاقة المعينة بعد الله لإكمال هذا البحث فلا حرمهم الله أجر ذلك فجزى الله الجميع خير الجزاء وأجزل لهم في الدارين العطاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.، ،

التمهيد

المبحث الأول: حياة البخاري

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده

المطلب الثاني: نشأته وسيرته العلمية

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه

المطلب الرابع: مؤلفاته

المطلب الخامس: شمائله

المطلب السادس: علمه وثناء الأئمة عليه

المطلب السابع: محنة الإمام البخاري في [مسألة اللفظ]

المطلب الثامن: وفاته

المبحث الأول: حياة البخاري

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي (مولاهم) البخاري وبردزبة مجوسي مات عليها (١). والمغيرة بن بردزبة أسلم على يدي يمان الجعفي والي بخاري فنسب إليه البخاري، لأنه مولاه من فوق ولاء إسلام – على قول من يقول بالولاء لمن أسلم –. ووالده أبو الحسن إسماعيل بن إبراهيم، كان من العلماء الورعين ذكره ابنه الإمام البخاري في تاريخه. (٢)

---

(١) (*) ... كتب في ترجمة البخاري الكثير. وأقدم ترجمة له هي (شمائل البخاري) لوراقة وتلميذه: أبوجعفر محمد بن أبي حاتم البخاري وقد رواها عنه الأئمة من بعده، انظر سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٢) وله ترجمة في: الفهرست لابن النديم ١/ ٥٢١ وتاريخ بغداد (٢/ ٤، ٣٤) وطبقات الحنابلة لابي يعلى (١/ ٢٧١ – ٢٧٩) والأنساب للسمعاني (٣/ ٢٦٨). والتهذيب في الأسماء واللغات للنووي (١/ ٦٧ – ٧٣) ووفايات الأعيان لابن خلكان (٤/ ١٨٨)، وطبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٢١٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٣٩١)، وابن حجر في مقدمة الفتح وفي نهاية تغليق التعليق (٥/ ٣٨٤) وهناك من أفرد له ترجمة خاصة منها:

١ – سيرة الإمام البخاري للعلامة عبد السلام المبارك فوري ت ١٣٤٢ هـ في ٤٥٠ صفحة تقريباً نشرته إدارة البحوث بالجامعة السلفية بالهند – طبع مرتان الثانية ١٤٠٧ هـ.

٢ – الإمام البخاري وصحيحه للدكتور عبد الغني عبد الخالق – طبع عام ١٤٠٥ هـ. من دار المنارة في جدة في ٢٦٠ صفحة.

٣ – الإمام البخاري محدثاً وفقيهاً للدكتور الحسين عبد المجيد هاشم – أمين عام مجمع البحوث الإسلامية– عن منشورات المكتبة العصرية بلبنان في ٢٨٠ صفحة بدون تاريخ.

٤ – حياة البخاري للشيخ جمال الدين القاسمي – طبع في حياة المؤلف أول مرة سنة (١٣٣٠ هـ) عن دار الفرقان بلبنان ثم حققه محمود الأرناؤوط عن دار النفائس عام ١٤١٢ هـ في ١٠٠ صفحة.

٥ – الإمام البخاري فقيه المحدثين ومحدث الفقهاء للدكتور نزار الحمداني نشرته جامعة أم القرى عام ١٤١٢ هـ في ٢١٠ صفحات. وغيرها كثير ضمن سلاسل علمية كثيرة وما سبق أهمها وأشملها.

(٢) التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٣٤٢.

وقال: رأى حماد بن زيد (١)، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه، وقد سمع من الإمام مالك بن أنس وروى عن حماد بن زيد وعبد الله المبارك.

وروى عنه أحمد بن حفص قال: دخلت عليه عند موته، فقال: لا أعلم في جميع مالي درهماً من شبهة. قال ابن حفص: فتصاغرت إلى نفسي عند ذلك.

وقد علق البخاري على قول والده بقوله: إن أصدق ما يكون المرء عند موته.

ولد الإمام -رحمه الله- في بيت علم وفضل وصلاح ببخارى (٢) يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة ١٩٤ هـ، كما سجل ذلك والده بخط يده (٣) وهو يوافق ٢١ يوليه عام ٨١٠ م.

---

(١) حماد بن زيد بن درهم أبو إسماعيل البصري: شيخ العراق في عصره من حفاظ الحديث المجودين خرَّج حديثه الأئمة الستة. ت ١٧٩ هـ، الأعلام (٢/ ٢٧١).

(٢) وهي من مدن (ازبكستان) في الجمهوريات الإسلامية الآن في آسيا.

(٣) هدى الساري لابن حجر صـ ٤٧٧.

المطلب الثاني: نشأته وسيرته العلمية

نشأ الإمام البخاري – رحمه الله– يتيماً في حجر أمه هو وأخوه أحمد، وقد ابتلي –رحمه الله– بفقد البصر صغيراً ثم رد الله بصره، فقد رأت أمه في المنام إبراهيم عليه السلام، فقال لها: يا هذه قد ردَّ الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، أو لكثرة دعائك. فأصبح وقد رد بصره. (١)

وربما عاوده هذا البلاء في أثناء طلبه للعلم قال مرة: لما بلغت خرا سان أصيب بصري فعلمني رجل أن أحلق رأسي وأغلفه بالخطمي (٢) ففعلت فرد الله علي بصري. (٣)

وقد سأله وراقه محمد بن أبي حاتم (٤) عن نشأته في طلب العلم، فأجاب عن نفسه فقال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب، قال: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل ثم خرجت من الكتاب بعد العشر.

قال: وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي، فإذا جئت استحي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين أردت بذلك حديثين، فضحك من حضر المجلس، فقال شيخ منهم: لا تضحكوا، فلعله يضحك منكم يوماً.

قال: وكنت أختلف إلى الداخلي (٥) وغيره. فقال يوماً فيما يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم فانتهرني، فقلت له ارجع إلى

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ١٠.

(٢) ضرب من النبات يغتسل به، لسان العرب ٢/ ٨٦٢.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢١٦.

(٤) محمد بن أبي حاتم البخاري: أبو جعفر محمد بن أبي حاتم الورَّاق النحوي.

(٥) الداخلي: لم أجد له ترجمة.

الأصل فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه وقال: صدقت وقد سئل البخاري ابن كم كنت حين رددت عليه، قال: ابن إحدى عشرة سنة.

قال: فلمّا طعنت في ست عشرة سنة كنت قد حفظت كتب ابن المبارك (١) ووكيع (٢) وعرفت كلام هؤلاء (قال الحافظ يعني أصحاب الرأي).

قال: أبو بكر بن الأعين (٣): كتبنا عن البخاري على باب محمد بن يوسف الفريابي (٤) وما في وجهه شعرة فقلنا ابن كم أنت؟ قال ابن سبع عشرة سنة، ثم خرج -رحمه الله- إلى الحج ورجع أخوه بأمه وبقى بمكة يكتب عن علمائها، وكان ذلك سنة (٢١٠ هـ).

قال البخاري: دخلت على الحميدي (٥) وأنا ابن ثمان عشرة سنة وبينه وبين آخر اختلاف في حديث، فلما بصر بي الحميدي قال: قد جاء من يفصل بيننا فعرضا عليَّ فقضيت للحميدي على من يخالفه.

قال وجعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وذلك أيام عبد الله بن موسى ثم سافرت إلى المدينة وصنفت فيها كتاب التاريخ الكبير. قال: وصنفت كتاب التاريخ إذاك

---

(١) ابن المبارك: هو عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي أحد الأئمة الأعلام وشيوخ الإسلام (ت ٢٨١ هـ الأعلام (٤/ ١١٥).

(٢) وكيع: وكيع بن الجراح بن قليح ابو سفيان حافظ للحديث ثبت محدث العراق في وقته ت ١٩٧ هـ، الأعلام (٨/ ١١٧).

(٣) أبوبكر بن الأعين: محمد بن أبي عقاب بن طريف أحد الأثبات روى عنه مسلم ووثقه ابن حبان (ت ٢٤٠ هـ) التقريب (٢/ ٥٥٢).

(٤) محمد بن يوسف الفريابي: قال عنه البخاري: كان أفضل أهل زمانه (ت ٢١٢ هـ)، (الخلاصة ٣٦٥).

(٥) الحميدي: أبوبكر عبدالله بن الزبير الأسدي، أحد الأئمة صحب الشافعي (ت ٢١٩ هـ)، (الخلاصة ١٩٧ هـ).

عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة وقلَّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب.

ثم واصل -رحمه الله- الترحال في طلب الحديث ولقاء العلماء، وكانت البصرة أول مستقر له حيث مكث فيها خمس سنين يصنف ويحصل ويحج في كل سنة ثم يرجع إلى البصرة.

قال رحمه الله: دخلت الشام ومصر والجزيرة مرتين والبصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين.

قال الحاكم (١): أول ما ورد البخاري نيسابور سنة تسع ومائتين (٢٠٩ هـ)، ووردها في الأخير سنة خمسين ومائتين (٢٥٠ هـ) أقام بها خمس سنين يحدث على الدوام.

وقال البخاري - رحمه الله- ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت في عامة كتب الرأي وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها، فما تركت بها حديثاً صحيحاً إلا كتبته إلاّ ما لم يظهر لي.

ومازال على هذه السيرة يجمع ويصنف فمن الغرب حيث الأخذ عن علماء مصر إلى المشرق حيث (مرو) وبلخ وهراة ونيسابور والري وجبال خرا سان مروراً بالحرمين والجزيرة والشام والكوفة والبصرة وبغداد، أما بخارى وسمرقند وطشقند فهي موطنه.

قال الحاكم: " فقد رحل البخاري إلى هذه البلاد المذكورة في طلب العلم وأقام في كل مدينة على مشايخها قال: وإنما سَمّيت من كل ناحية جماعة من المتقدمين ليستدل به على عالي إسناده حتى حق له أن يقول: كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة، وليس عندي حديث إلاّ أذكر إسناده.

---

(١) الحاكم: محمد بن محمد أبو أحمد النيسابوري، محدِّث خراسان في عصره (ت ٣٧٨)، الأعلام (٧/ ٢٤٤).

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه

قَدّمنا كلامه -رحمه الله- في تعداد كثرة شيوخه، ويمكن تعدادهم ونسبتهم باعتبار الأقاليم والأمصار التي رحل إليها وجمع من علمائها.

فأول سماعه ببخارى من عبد الله بن محمد الجعفي ومحمد بن سلام وجماعة وعمرو بن عبدان بن عثمان وعلي بن شفيق وهكذا من بالكوفة وبغداد، ويمكن تقسيمهم كما ذكر الإمام النووي وابن حجر باعتبار طبقاتهم.

قال النووي: روينا عن أبي الفضل المقدسي (١) قال: الذين حدث عنهم البخاري في صحيحه خمس طبقات:

الأولى: من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبد الله الأنصاري، ومكي بن إبراهيم، وأبو عاصم النبيل وعبيد الله بن موسى وأبي نعيم وغيرهم.

والثانية: من كان في عصر هؤلاء لكن لم يسمع من ثقات التابعين كآدم ابن أبي إياس وأبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر وسعيد بن أبي مريم وأمثالهم.

الثالثة: وهي الوسطى من مشايخه، وهم من لم يلق التابعين بل أخذ من كبار تبع الأتباع كسليمان بن حرب وقتيبة بن سعيد ونعيم بن حماد وعلي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن

---

(١) أبي الفضل المقدسي: محمد بن طاهر بن علي رحَّالة مؤرخ من حفاظ الحديث، كثير التصنيف ت ٥٠٧ هـ الأعلام (٦/ ١٧١).

حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي بكر وعثمان ابني أبي شيبة وأمثالهم (وقد شاركه مسلم في الأخذ عنهم).

الرابعة: رفقاؤه في الطلب ومن سمع قبله قليلاً كمحمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ومحمد بن عبد الرحيم الملقب بـ (صاعقة) وعبد بن حميد وقد أخرج من هؤلاء ما فاته عن مشايخه أو لم يجده عند غيرهم.

الخامسة: قوم في عداد طلبته سناً وإسناداً ووفاةً سمع منهم للفائدة، كعبد الأعلى وحسين المقدسي وابن أبي العاص الخوارزمي وغيرهم.

قال المقدسي: ونبهنا بهذه الطبقات المختصرة لئلا يظن من لا معرفة له إذا حدث البخاري عن مكي عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة ثم حدث في موضع آخر عن قتيبة عن بكر بن مضر عن عمرو بن الحارث عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة -رضي الله عنه- أن الإسناد الأول سقط منه شيء وعلى هذا سائر الأحاديث. (١)

قال الحافظ وعمل في الرواية عنهم مما روى عثمان بن أبي شيبة عن وكيع قال: لا يكون الرجل عالماً حتى يحدث عمن هو فوقه وعمن هو مثله. وروى المقدسي هذا عن البخاري نفسه -رحمه الله-. (٢)

---

(١) شرح النووي صـ ٩.

(٢) المصدر السابق صـ ١٠.

تلاميذه:

يصعب الإحاطة بتلاميذ البخاري وبمن أخذ عنه، فقد تصدر للتحديث وهو صغير فكثر الآخذون عنه.

فأهل البصرة أول ما قدم عليهم، كانوا يَعْدون في الطرقات خلفه في طلب الحديث حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه وهو إذ ذاك شاب لم يخرج وجهه (١)، ومرة أخرى يقدم البصرة فينادي المنادي يا أهل العلم قد قدم محمد بن إسماعيل، فيقومون فيرون شاباً لم يكن في لحيته شيء من البياض يصلي خلف الأسطوانة في جامع البصرة، ويسألونه الإملاء، فيجلس لهم بالغداة وقد حضر الفقهاء والمحدثون والحفاظ والنظار حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألف. (٢)

وفي بغداد يذكر مستمليه: صالح بن محمد البغدادي فيقول: كنت استملي له ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألف، ويذكر نحو هذا محمد بن يوسف بن عاصم، فيقول: رأيت لمحمد بن إسماعيل ثلاثة مستملين ببغداد وكان قد اجتمع في مجلسه زيادة على عشرين ألف رجل. (٣)

قال محمد بن يوسف الفربري (٤): سمع الصحيح من البخاري تسعون ألف رجل فما بقي أحد يروي عنه غيري. (٥)

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢/ ١٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تاريخ بغداد ٢/ ٤٠.

(٤) محمد بن يوسف الفربري: ابو عبدالله محمد بن يوسف بن مطر، سمع من البخاري الصحيح مرتين، شارك البخاري ومسلم في الرواية (ت ٣٢٠ هـ) شرح النووي صـ ١٠.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٩.

وسنقتصر على من روى عنه من الأعلام رحمهم الله جميعاً.

فمنهم: الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح (ت ٢٦١ هـ).

والإمام أبو عيسى الترمذي محمد بن عيسى بن سورة صاحب السنن (ت ٢٧٩ هـ).

وأبو عبد الرحمن النسائي أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ)، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان (ت ٢٧٧ هـ).

والإمام أبو إسحاق إبراهيم الحربي (١) صاحب الإمام أحمد.

وصالح بن محمد (جزرة) (٢)، وإمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة (ت ٣١١ هـ).

والإمام يحيى بن محمد بن صاعد (٣) وغيرهم من الأئمة.

---

(١) أبواسحاق إبراهيم بن اسحاق الحربي: شيخ الإسلام أبواسحاق، تفقَّه على الإمام أحمد وكان من أكبر أصحابه، (ت ٢٨٥ هـ) الأعلام (١/ ٣٢).

(٢) صالح بن محمد (جزرة) من أئمة أهل الحديث لم يكن في خراسان في عصره أحفظ منه، (ت ٢٩٣ هـ) الأعلام (٣/ ١٩٥).

(٣) يحيى بن محمد بن صاعد الهاشمي من اعيان حفاظ الحديث ببغداد كان عالماً بالرجال والعلل (ت ٣١٨) الأعلام (٨/ ١٦٤).

المطلب الرابع: مؤلفاته (١)

علمنا من كلامه -رحمه الله- تبكيره في التصنيف فقال: فلما طعنت في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسى وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة. (٢)

وسأورد ما وقفت عليه منسوباً له مع بيان مكانه وطبعه قدر الإمكان، وسأبدأ بالكتب المطبوعة:

١ - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، والمعروف بصحيح البخاري وسنفرد الكلام عليه.

٢ - الأدب المفرد مطبوع بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ثم توالت طبعاته ثم حققه محمد هشام البرهاني عام ١٤٠١ ثم توالت عليه الشروح وآخر من اعتنى به العلامة الألباني، وله شرح بعنوان (فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد لفضل الله الجيلاني، خرجه وصححه محب الدين الخطيب وآخر طبعة له سنة ١٤٠٧ هـ.

٣ - التاريخ الكبير:

موسوعة في أسماء الرجال وهو من أول ما صنف في هذا الفن مستوعباً للرواة من سبقه ومن عاصره وكل من جاء بعده عالة عليه وهو الذي لما نظر فيه الإمام إسحاق بن راهويه أدخله على الأمير عبد الله بن طاهر (٣) وقال له: أيها الأمير ألا أريك سحراً؟ فنظر فيه عبد الله بن طاهر فتعجب منه وقال: لست أفهم تصنيفه وحق للعباس بن سعيد أن يقول: لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى

---

(١) (*) ... هدي الساري (٤٩٢) تاريخ التراث العربي لسزكين (١/ ٢٠٥) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٣/ ١٧٩).

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٧.

(٣) عبدالله بن طاهر بن حسين بن مصعب من أشهر ولاة العصر العباسي كان المأمون يعتمد عليه ت ٢٣٠ هـ، الأعلام (٤/ ٢٦٦).

عن كتاب التاريخ تصنيف محمد بن إسماعيل البخاري، وقد ألفه -رحمه الله - عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة.

٤ - التاريخ الأوسط

٥ - التاريخ الصغير وطبع في الهند سنة ١٣٠٦ هـ.

وقد أشار البخاري -رحمه الله- إلى هذه التآليف فقال: "لقد صنفت كتاب التاريخ ثلاث مرات"، ولعله يقصد هذه الثلاثة.

٦ - كتاب الضعفاء، طبع في حيدر اباد الدكن في الهند سنة ١٣٢٣ هـ.

ثم حققه بوران الضناوي عام ١٤٠٤ هـ عن دار عالم الكتب.

٧ - خلق أفعال العباد.

طبع مع العلو للذهبي سنة ١٣٠٦ هـ بتحقيق شمس الحق العظيم أبادي.

ثم حققه د. عبد الرحمن عميرة وأخيراً ظهرت افضل الطبعات عناية وتحقيقاً وفهرسة للشيخ بدر البدر وطبع في الكويت أكثر من طبعة عن الدار السلفية.

قال ابن كثير: "كان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي وبين البخاري في ذلك كلام وصنف البخاري في ذلك كتاب خلق أفعال العباد". (١)

٨ - رفع اليدين في الصلاة:

طبع في الهند ثم في القاهرة طبعات غير معتنى بها ثم خرج تحقيق بعنوان (قرة العين في رفع اليدين في الصلاة) تحقيق أحمد الشريف عن دار الأرقم في الكويت سنة ١٤٠٤ هـ.

٩ - القراءة خلف الإمام:

طبع في المدينة باسم (خير الكلام في القراءة خلف الإمام) سنة ١٤٠٥ هـ ثم طبع في بيروت وغيرها.

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٧.

١٠ – الأسماء والكنى:

طبع في دائرة المعارف الهندية سنة ١٣٦٠ هـ.

أما كتبه المخطوطة:

١١ – التفسير الكبير: وقد ذكره وراقة فقال: رأيته استلقى ونحن (بفربر) في تصنيف كتاب التفسير.

١٢ – الجامع الكبير ذكره ابن طاهر.

١٣ – بر الوالدين وقع لابن حجر بإسناد متصل.

١٤ – العلل ذكره ابن منده

١٥ – الفوائد ذكره الترمذي في أثناء كتاب المناقب من جامعه (صـ ٤٩٢).

١٦ – قضايا الصحابة والتابعين وهو من أوائل مؤلفاته وهو ابن ثمان عشرة سنة.

١٧ – المبسوط.

١٨ – الهبة: قال وراقه: عمل كتاباً في الهبة فيه نحو خمسمائة حديث.

١٩ – الوحدان: وهم الصحابة الذين ليس لهم إلاّ حديث واحد.

٢٠ – الأشربة: ذكره الإمام الدارقطني في كتاب المؤتلف والمختلف (٤/ ٩٧٣).

٢١ – أخبار الصفات: ذكره فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي (١/ ٢٥٩/١).

٢٢ – الاعتقاد: رواها الإمام اللالكائي من طريق عبد الرحمن البخاري، قال سمعت محمد بن إسماعيل ثم روى له معتقده، انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٩٣ – ١٩٧.

٢٣ – أخبار الصفات: وهي في المكتبة الظاهرية برقم حديث ٢٠٠ ذُكر في فهرس مجلة معهد المخطوطات (١/ ١٣٧).

قال البخاري –رحمه الله–: أقمت بالبصرة خمس سنين معي كتبي أصنف وأحج وأرجع من مكة إلى البصرة.

قال: وأنا أرجو أن يبارك الله تعالى للمسلمين في هذه المصنفات. (١)

وقد استجاب الله لدعائه خاصة في كتابه الذي يعد أصح الكتب المؤلفة في الأحاديث وهو ما سنفرد الكلام عنه- إن شاء الله-.

المطلب الخامس: شمائله

البخاري -رحمه الله- تربى في بيئة صالحة، فقد قال أحمد بن حفص (٢): دخلت على إسماعيل والد أبي عبد الله عند موته فقال: لا أعلم في مالي درهماً حراماً ولا درهماً من شبهة. فلا عجب - بعد توفيق الله- أن ينشأ البخاري صالحاً في هذه البيئة الصالحة.

وكان من زهده -رحمه الله- أن قال: ما توليت شراء شيء قط ولا بيعه. كنت آمر إنساناً فيشتري لي فقيل لي: ولم؟ قال: لما فيه من الزيادة والنقصان والتخليط.

قال وراقه: رأيته استلقى (بفربر) (٣) في تصنيف كتاب التفسير وكان اتعب نفسه في ذلك اليوم في التخريج، فقلت له: إني أراك تقول: ما أثبت شيئاً بغير علم فما الفائدة في الاستلقاء؟

فقال: أتعبت نفسي اليوم. وهذا ثغر خشيت أن يحدث حدثٌ من أمر العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة، فإذا غافصنا (٤) العدو كان بنا حراك.

وكان رحمه الله ذا زهد وورع، قال مرة لأبي معشر الضرير (٥) اجعلني في حل يا أبا معشر فقال: من أي شيء يا أبا عبد الله، قال: رويت حديثاً يوماً فنظرت إليك وقد أعجبت به وأنت تحرك رأسك ويديك فتبسمت من ذلك، فقال: أنت في حل يرحمك الله يا أباعبدالله.

---

(١) هدي الساري لابن حجر (٤٨٨).

(٢) أحمد بن حفص السلمي، قاضي نيسابور، روى عنه البخاري وأبوداود والنسائي (ت ٢٥٨ هـ)، الخلاصة صـ ٥.

(٣) بلدة بين جيحون وبخارى كانت من الثغور: معجم البلدان ٤/ ٢٤٥. وهي في ولاية ليباب في دولة تركمانستان الان

(٤) المغافصة: الأخذ على غِرَّة، لسان العرب ٢/ ١٠٠١.

(٥) محمد بن أبان الخطاب - حافظ ثقة، ت ٢٢٤ هـ، الأعلام ٥/ ٢٩٣

وكان يراقب الله فيما يؤلف ويحدث حتى قال مرة: الحامد والذام عندي سواء أو قال واحد.

وقال: إني أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني إني اغتبت أحداً.

وهو بيّن لمن نظر في كتبه في الرجال فإنه أبلغ ما يقول في الرجل الساقط أو المتروك: فيه نظر أو سكتوا عنه وإن بالغ قال منكر الحديث، وقد قال: كل من قلت فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه.

وله عناية بالعبادة، فقد صلى ذات يوم فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة فلما قضى صلاته قال: انظروا أي شيء آذاني في صلاتي، فنظروا فإذا الزنبور قد ورَّمه في سبعة عشر موضعاً ولم يقطع صلاته قال: كنت في آية فأحببت أن أتمها.

وكان قليل الأكل جداً كثير الإحسان إلى الطلبة مفرط الكرم مرض في آخر عمره فعرضوا ماءه على الأطباء فقالوا: إن هذا الماء يشبه ماء بعض أساقفة النصارى فإنهم لا يأتدمون فصدقهم في قولهم وقال: لم ائتدم منذ أربعين سنة، فسئلوا عن علاجه فقالوا: علاجه الأدم، فامتنع حتى ألح عليه المشايخ وأهل العلم إلى أن أجابهم أن يأكل مع الرغيف سكرة.

قال الحسن السمرقندي: كان محمد بن إسماعيل مخصوصاً بثلاث خصال: كان قليل الكلام وكان لا يطمع فيما عند الناس وكان لا يشتغل بإمور الناس.

وشمائله –رحمه الله– كثيرة، زهداً وعبادةً وكرماً وإحساناً إلى طلبة العلم رحمه الله رحمة واسعة.

المطلب السادس: علمه وثناء الأئمة عليه:

أشتهر الإمام البخاري رحمه الله بطلب العلم المبكر مع الحفظ والإتقان، فقد كان يختلف مع بعض أقرانه إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام قالوا: فلمناه بعد ستة عشر يوماً، فقال: قد أكثرتم عليّ فاعرضوا عليّ ما كتبتم فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه.

وقصته مع أهل بغداد أشهر من أن تورد في قوة حفظه وسعة علمه لما امتحنوه بمائة حديث مغلوطة الأسانيد فردها إلى أصولها في مجلس واحد.

وقد أثنى عليه علماء زمانه وأكبروه واعترفوا له بالفضل، قال الإمام أحمد بن حنبل: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال الإمام قتيبة بن سعيد (١): جالست الفقهاء والزهاد والعباد فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل وهو في زمانه مثل عمر في الصحابة، وسئل قتيبة عن طلاق السكران: فدخل محمد بن إسماعيل، فقال قتيبة للسائل: هذا أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعلي بن المديني (٢) قد ساقهم الله إليك، وأشار إلى البخاري. وقال نعيم بن حماد (٣): محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة. وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل.

---

(١) قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي، ثقة ثبت روى عنه الستة، ت ٢٤٠ هـ التغريب (٢/ ١٢٣).

(٢) علي بن المديني:

(٣) نعيم بن حماد بن معاوية الخزاعي الحافظ، مات في السجن لامتناعه عن القول بخلق القرآن سنة ٢٢٨ هـ، الخلاصة (٣).

وقال الترمذي: لم أر أحداً بالعراق ولا بخرا سان في معرفة العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل.

وقال الدارقطني (١): لولا البخاري لما راح مسلم ولا جاء. ولما ذكر لعلي بن المديني قول البخاري: ما تصاغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني.

قال علي: ذروا قوله هو ما رأى مثل نفسه، وكلام العلماء قديماً وحديثاً أكثر من أن يستوعب ولكن هذا طرف من باب واسع. (٢)

---

(١) علي بن عمر بن مهدي الشافعي، إمام عصره في الحديث، صاحب سنن الدارقطني ت (٣٨٥ هـ) الأعلام (٤/ ٣١٤).

(٢) انظر هذه الأقوال: تاريخ بغداد ٢/ ٣٨ وطبقات الشافعية ٢/ ٣٢١، وهدي الساري ٤٨٥ وتغليق التعليق ٥/ ٤١٠.

المطلب السابع: محنة الإمام البخاري في [مسألة اللفظ]

عاش البخاري -رحمه الله- في الفترة التي تسلط فيها الجهمية والمعتزلة على خلفاء بني العباس ابتداءً من المأمون ثم المعتصم فالواثق فزينوا لهم القول بخلق القرآن وامتحن فيها العلماء. وليس بخاف ما حصل للإمام أحمد من ضرب وحبس بل وصل الأمر إلى القتل كما حصل لأحمد بن نصر الخز اعي (١)، الذي قتله الواثق بيده. (٢) وكان البخاري وهو من تلاميذ الإمام أحمد قد امتحن ولكن ليس بقضية خلق القرآن بل في مسألة تفرعت عنها أول من تكلم بها الحسين الكرابيسي (٣)، وهي قوله (لفظي بالقرآن مخلوق) ولما سئل الإمام أحمد عن ذلك، قال: هذا شرٌ من قول الجهمية من زعم هذا فقد زعم أن جبريل تكلم بمخلوق وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمخلوق. (٤) ولما دخل الإمام البخاري نيسابور كان فيها إماماً عظيماً من أئمة أهل السنة هو الإمام محمد بن يحيى الذهلي (٥) وكان من ثقات المحدثين أثنى عليه الأئمة وعدلوه وقد أخذ عنه البخاري وروى له في صحيحه وزامله في الطلب. فلما استقبله الأهالي الاستقبال العظيم قال هذا الإمام المتبوع _ أعني الذهلي-: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح فاسمعوا منه فظهر الخلل في مجالس الذهلي. وقال مرة: لا تسألوه عن شيء من الكلام فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمت بنا كل ناصبي ورافضي وجهمي ومرجئي بخراسان. فازدحم الناس على البخاري حتى امتلأت السطوح فقام إليه رجل وسأله عن اللفظ في القرآن فأعرض عنه البخاري مرتين ثم سأله فقال: أفعالنا مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا، قال: فوقع بين الناس اختلاف - مع زحمة المكان- فقال بعضهم: قال لفظي بالقرآن مخلوق، وقال بعضهم لم يقل فوقع بينهم خلاف. (٦) وفي رواية أنه قال: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة. (٧)

فقال الذهلي: من زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلاّ من كان على مذهبه. (٨) حينئذ وقعت الوحشة وانقطع الناس عن مجلس البخاري إلاّ مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة (٩) فإنهما فضلا مجلس البخاري على مجلس الذهلي. ثم إن الإمام الذهلي أطلق: أن من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، يعني أنه لا يجيز له الرواية عنه خاصة أنه يوحي إلى أن من ذهب إلى البخاري فلا يروي عني.

---

(١) أحمد بن نصر الخزاعي، من أشراف بغداد، قتله الواثق ونُصِبَ رأسه في بغداد ست سنوات، وكان يخالف القول بخلق القرآن، ت ٢٣١ هـ الأعلام (١/ ٢٦٤). (٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٦٧). (٣) أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي، كان متكلماً عارفاً بالحديث [والكرابيس: هي الثياب الغليظة] كان يبيعها، توفي ٢٤٨ هـ، الأعلام (٢/ ٢٤٤). (٤) المصدر السابق ١١/ ٢٩٠. (٥) محمد بن يحيى بن عبدالله بن خالد الذهلي أبو عبدالله النيسابوري، الحافظ، أحد الأعلام الكبار قال أبوحاتم إمام زمانه ت ٢٥٨ هـ الخلاصة صـ ٣٦٨. (٦) هدي الساري ٤٩٠.

(٧) طبقات الشافعية (٢/ ٢٢٨). (٨) هدي الساري (٤٩٠، ٤٩١). (٩) أحمد بن سلمة البزَّاز حافظ من علماء الحديث، له صحيحٌ في الحديث وهو حجة، توفي (٢٨٦ هـ)، الأعلام (١/ ١٣٢).

فقام مسلم -رحمه الله- على رؤوس الناس وبعث إلى الذهلي كل ما رواه عنه على ظهر جمل.

وحين سئل البخاري لم يفعل الذهلي به ذلك أجاب "كم يعتري محمد بن يحيى الحسد في العلم والعلم رزق الله يعطيه من يشاء"، فقال له السائل: هذه المسألة تحكي عنك؟ فقال: يا بني هذه مسألة مشئومة رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة وجعلت على نفسي أن لا أتكلم فيها. (١)

وهذا هو الصحيح فإن الإمام لم يدخل هذه المسألة بهذا التصور بل وضَّح ودلَّل وأفاد فقد سمعه الإمام محمد بن نصر المر وزي (٢) يقول: من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله. فقال الراوي: يا أبا عبد الله قد خاض الناس في هذا وأكثروا فيه، فقال: ليس إلاّ ما أقول وأحكي لك عنه. (٣)

فهذا الإمام المر وزي ينقل هذا عن البخاري، ومن يطالع آخر كتابه الصحيح، أعني (التوحيد) خاصة آخره مع الكتاب الذي ألفه لبيان مقصده من قوله أفعالنا مخلوقة وهو كتاب (خلق أفعال العباد) عرف مقصد هذا الإمام الكبير.

وسيأتي لذلك مزيد تفصيل لهذا الكلام عن مسألة اللفظ من مسائل كتاب التوحيد وتفصيل كلام الأئمة.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣١.

(٢) محمد بن نصر المروزي إمام في الفقه والحديث من أعلم الناس بإختلاف الصحابة (ت ٢٩٤ هـ) الأعلام (٧/ ١٢٥).

(٣) طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٧.

وأكتفى هنا بقوله في كتاب خلق أفعال العباد ما أسنده عن يحيى بن سعيد قوله (ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة) قال البخاري معلقاً: " حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق (١)، وهكذا خشي البخاري على نفسه عندما سمع تهديد الذهلي بقوله (لا يساكنني في بلد) فخرج ومعه مسلم بن الحجاج حتى أن بعض المؤلفين في الجرح والتعديل من الأئمة من طلاب الذهلي، كابن أبي حاتم ترك الرواية عنه، قال في الجرح والتعديل " سمع منه أبي وأبوزرعة ثم تركاه عندما كتب إليهما محمد بن يحيى الذهلي إنه أظهر عندهم أن لفظه بالقرآن مخلوق. (٢)

قال الذهبي: إن تركا حديثه أو لم يتركاه البخاري ثقة مأمون محتج به في العالم. (٣)

وتعجب السبكي (وحق له) من هذا الكلام في ترك البخاري فقال: فيا لله والمسلمين أيجوز لأحد أن يقول: البخاري متروك؟ ؟ وهو حامل لواء الصناعة ومقدم أهل السنة والجماعة ثم يا لله والمسلمين أتجعل ممادحه مذام؟

فإن الحق في مسألة اللفظ معه إذ لا يستريب عاقل من المخلوقين في أن تلفظه من أفعاله الحادثة التي هي مخلوقة لله تعالى، وإنما أنكرها الإمام أحمد رحمه الله لبشاعة لفظها. (٤)

---

(١) خلق أفعال العباد (٤٢).

(٢) الجرح والتعديل (٧/ ١٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٣.

(٤) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٠.

وأقول: رحم الله إمام الأئمة ومقدم الأمة محمد بن إدريس الشافعي حين سأله المزني عن مسألة من الكلام، فقال: سلني عن شيء إذا أخطأت فيه قلتَ أخطأت، ولا تسألني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت كفرت. (١)

قالها رحمه الله فراراً من الخوض فيما لم يرد عن الله ورسوله من الإمتحان في أمور العقيدة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٨.

المطلب الثامن: وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة بطلب العلم وحفظه ونشره بين أقطار المسلمين مع ما حصل له من المحن في آخر عمره خاصة مع أمير بخارى خالد الذهلي الذي طلب منه أن يقرئه الجامع الصحيح فامتنع تكريماً للعلم، وقال لرسوله: إني لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضرني في مسجدي أو في داري فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر من الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم. (١)

فكانت هذه الحادثة سبباً للوحشة بينهما فنفاه الأمير من مسقط رأسه ومربع صباه وملتقى أهله وما أشدها أن يكون الظلم من ذوي القربى، والطرد من موطن الأهل ولكن (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون) فذهب إلى (خرتنك) من قرى سمرقند وهي على فرسخين منها (٢) وكان له بها أقرباء فنزل عندهم.

وقد سمعه بعضهم في ليلة يدعو بعد صلاة الليل: اللهم قد ضاقت عليّ الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، قال: فما تم الشهر حتى قبضه الله.

قال ورّاقه: سمعت غالب بن جبريل – وهو الذي نزل عليه البخاري– يقول: أقام عندنا أياماً فمرض واشتد به المرض حتى جاء رسول من أهل سمرقند يلتمسون منه الخروج إليهم فأجاب ثم تهيأ للركوب فلبس خفيه وتعمم فلمّا مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل آخر معي يقود الدابة ليركبها، فقال –رحمه الله–: أرسلوني قد ضعفت فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى رحمه الله، فسال منه العرق شيء لا يوصف فما سكن منه

---

(١) هدي الساري (٤٩٣) تاريخ بغداد (٢/ ٣٣).

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٣٥٦ وقال: بها قبر الإمام البخاري. وهي الان في جمهورية اوزبكستان

العرق (١) إلى أن أدرجناه في ثيابه وكان فيما أوصانا: أن كفنوني بثلاثة أثواب بيض ليس بها قميص ولا عمامة ففعلنا ذلك (٢)، وكان ذلك ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر بعد أن أكمل صيام رمضان ودفن يوم الجوائز يوم عيد المسلمين العظيم بعد صلاة الظهر يوم السبت غرة شوال عام ست وخمسين ومائتين (٣) فصارت مدة حياته اثنين وستين سنة إلاّ ثلاثة عشر يوماً.

رحمه الله رحمة واسعة. ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن نسله بل غاية ما فيها أنه تسرى بجارية ثم بعد مدة أعتقها، ولكن بقي له (علم ينتفع به). نسأل الله أن يجمعنا وإياه ووالدينا في جنات النعيم.

---

(١) (*) ... نتذكر هنا قوله عليه الصلاة والسلام (موت المؤمن بعرق الجبين) رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٧٥) وهو صحيح، انظر أحكام الجنائز للألباني صـ ٣٥.

(٢) طبقات الشافعية ٢/ ١٤، ١٥. وهدي الساري (٤٩٣).

(٣) تاريخ طبقات بغداد (٢/ ٣٤)، وطبقات الحنابلة (١/ ٢٧٨).

المبحث الثاني التعريف بالجامع الصحيح

المطلب الأول: اسمه وموضوعه.

المطلب الثاني: سبب ومدة ومكان تأليفه.

المطلب الثالث: منهجه في تصنيف صحيحه ومكانته.

المطلب الرابع: قيمة كتاب التوحيد بين أبواب الصحيح وعناية العلماء به

المبحث الثاني: التعريف بالجامع الصحيح

المطلب الأول: اسمه وموضوعه

اشتهر اسم كتاب البخاري بـ (صحيح البخاري) وذهبت التسمية وصارت علماً عليه فهل أراد له مؤلفه هذه التسمية؟

الإمام النووي يشير إلى أن اسمه (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه). (١)

ويروي ابن حجر تسمية أخرى وهي [الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه]

وقد رواه عنه خلق كثير بل تواترت الرواية عنه حتى قال راويته محمد بن يوسف الفربري: سمع كتاب الصحيح لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل فما بقي أحد يروي عنه غيري. (٢)

وأما موضوعه فيعلم من عنوانه الذي سماه به الإمام – رحمه الله – فهو جامع مقتصر على الحديث الصحيح لم يخصه بصنف دون صنف ولذا أورد فيه الأحكام والفضائل والأخبار والمغازي والآداب والرقائق وغيرها.

---

(١) شرح النووي ٧.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٧٤، وهدي الساري لابن حجر (٤٩١) وهي الرواية التي يروي بها ابن حجر الصحيح.

المطلب الثاني: سبب ومدة ومكان تأليفه

كان الباعث لتأليف الصحيح ما سمعه البخاري شاباً أيام الطلب في مجلس الإمام إسحاق بن راهويه فقال لهم: لو جمعتم كتاباً مختصراً لسنن النبي صلى الله عليه وسلم. قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب وهذا ربما ساعده فيه الرؤيا التي شاهدها في نومه، قال: رأيت كأني واقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيدي مروحة أذب عنه فسألت بعض المعبرين فقال: إنك تذب عنه الكذب، قال: فهو الذي حملني على إخراج الصحيح. (١)

وقد ألفه في مدة ستة عشر سنة وكان غالب تصنيفه له في المسجد الحرام بل أنه لم يدخل فيه حديثاً إلاّ بعد ما استخار الله وصلى ركعتين وتيقن من صحته وقيل في بخارى أو البصرة، وأما التراجم فكانت بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره، وقد خرجه من ستمائة ألف حديث كما ذكر -رحمه الله- وقد جمع الإمام النووي: أن هذا كله ممكن فإنه طوال الستة عشر عاماً كان متنقلاً بين مكة والبصرة وبخارى. وقال ابن حجر: إن ذلك فرق بين تسو يده وتبييضه وترتيبه. (٢)

وقد عرض البخاري مؤلفه هذا العظيم على أئمة الحديث في وقته وأقروه على ذلك. فقد عرضه على علي بن المديني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين (٣) فأقروه عليه، وقال عن نفسه: كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث إذا كان الرجل فهماً.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٨ وشرح النووي ٧.

(٢) شرح النووي صـ ٨ وهدي الساري ٤٨٩.

(٣) يحيى بن معين البغدادي من مؤرخي الحديث، وسيد الحفاظ قال أحمد: أعلمنا بالرجال (ت ٢٣٣ هـ) الأعلام (٨/ ١٧٢).

فإن لم يكن سألته أن يخرج إليّ أصوله ونسخته، فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون وكيف يكتبون.

المطلب الثالث: منهجه في تصنيف صحيحه ومكانته

اشترط البخاري على نفسه الطهارة والصلاة عند عمله في صحيحه بل قال: وجعلته حجة فيما بيني وبين الله.

وقال: ما أدخلت فيه حديثاً إلاّ بعد ما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته. (١)

وكتابه مقتصر على الصحيح العالي إذ أن شرط البخاري في روايته للحديث: أن يروي عن من لقيه ولو مرة فلا يكتفي بالمعاصرة فقط بل والتصريح بالسماع كما نبه على ذلك الحافظ بالاستقراء، والبخاري يبوب بآية أو حديث أو بعنوان من عنده. وهذه هي أحد مزايا البخاري في جامعه إذ أودع في هذه التراجم الفوائد الفقهية، والنكت الحكمية فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها واعتنى فيها بآيات الأحكام فانتزع منها الدلالات البديعة وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة. (٢)

وفقه البخاري في تراجمه كما اشتهر عنه.

ولفظ الترجمة عند البخاري نوعان:

١ – ما يكون نصاً وهو إما آية أو حديث على شرطه أو حديث ليس على شرطه أو أثر صحابي.

٢ – ما يكون استنباطاً وهو ما ليس من قبيل النوع الأول بل من كلام الإمام البخاري نفسه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٦، ٤١٢.

(٢) هدي الساري صـ ٨.

فمن النوع الأول ومثاله الآية، باب قول الله تعالى ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾ الطلاق ١.

والحديث الذي على شرطه بوب به فقال: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" كتاب الفتن.

الحديث الذي ليس على شرطه كما رواه ابن عدي عن أبي هريرة مرفوعاً: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه. (١)

فقد ترجم له بقوله (باب فضل القرآن على سائر الكلام) كتاب فضائل القرآن.

وأما أثر الصحابي فقد فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعائكم﴾ الفرقان ٧٧. قال ابن عباس دعاؤكم إيمانكم.

ترجم له البخاري بقوله (باب: دعاؤكم إيمانكم) كتاب الإيمان. (٢)

وقد بلغت تراجمه (٣٨٨٢) ترجمة. (٣)

وقد اعتنى العلماء بهذه التراجم كثيراً وأُفردت لها مصنفات خاصة سأقتصر على المطبوع منها وإلاّ فهي كثيرة جداً فمنها:

١ – المتواري على تراجم البخاري لابن المنير. (٤)

٢ – تراجم البخاري لابن جماعة. (٥)

٣ – شرح تراجم صحيح البخاري لولي الله الدهلوي. (٦)

---

(١) رواه اللالكائي في شرح السنة ٢ (/٣٧٤) وهو موقوف على ابوعبدالرحمن السُّلمي.

(٢) تراجم البخاري لابن جماعة المقدمة صـ ٤٧ د. علي الزبن.

(٣) دليل القاري إلى مواضع الحديث في صحيح البخاري د. عبد الله الغنيمان صـ ٧٧.

(٤) أحمد بن محمد بن منصور الجُذامي (ت ٦٩٩ هـ)، الأعلام (١/ ٢٢٠).

(٥) محمد بن إبراهيم الكناني من العلماء بالحديث (ت ٧٣٣ هـ)، الأعلام (٥/ ٢٩٧).

(٦) أحمد شاه ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، فقيه حنفي من المحدثين من علماء الهند المجددين (ت ١١٧٦ هـ)، الأعلام (١/ ١٤٩).

٤ – الأبواب والتراجم للبخاري للشيخ محمد زكريا يحيى الدهلوي. (١)

كما أن الشراح لم يهملوها كابن حجر في الفتح والعيني (٢) في عمدة القارئ والقسطلاني (٣) في إرشاد الساري والكرماني (٤) في الكواكب الدراري وغيرهم –رحمهم الله–.

وأما شرح الصحيح ومختصراته فإنها أوسع من أن يحاط بها، فقد ذكر الدكتور عبد الغني عبد الخالق – رحمه الله تعالى– في كتابه (الإمام البخاري وصحيحه) من شروح وتعليقات ومختصرات الجامع (١١٥ كتاباً)، (٥٩) منها مخطوط ومنها (١٢) شرحاً مطبوعاً ومنها (٢٨) تعليقاً ما بين مخطوط ومطبوع ومنها (١٦) مختصراً ما بين مطبوع ومخطوط). (٥)

ومن أهم الشروح على الإطلاق فتح الباري في شرح صحيح البخاري للعلامة الحافظ أحمد بن حجر.

ويسميه أهل العلم قاموس السنة لما احتوى عليه من الكم الهائل من الأحاديث والعلوم النبوية النافعة وكان ابن خلدون يقول: شرح كتاب البخاري دين على الأمة حتى قيض الله له هذا الإمام الحافظ ولما طلب بعض طلبة العلم في اليمن من العلامة المجتهد محمد بن علي

---

(١) محمد بن زكريا يحيى الدهلوي كبير علماء المسلمين في الحديث في الهند، معاصر، نزل المدينة، له عناية في صحيح البخاري توفي في غرة شعبان ١٤٠٢ هـ ودفن بالبقيع. انظر الإمام البخاري د. نزار أحمداني صـ ١٥٤.

(٢) محمود بن أحمد بن موسى العيني، فقيه أصولي محدث من علماء الأحناف (ت ٨٥٥ هـ).

(٣) أحمد بن محمد بن أبي بكر المصري، من علماء الحديث مولده ووفاته بالقاهرة (ت ٩٢٣ هـ)، الأعلام (١/ ٢٣٣).

(٤) محمد بن يوسف بن علي الكرماني، من شراح البخاري (ت ٧٨٦ هـ).

(٥) الإمام البخاري وصحيحه (٢٠٣ – ٢٤٥).

الشوكاني (١) أن يشرح لهم صحيح البخاري قال: لا هجرة بعد (الفتح) يقصد إلى كفاية فتح الباري في هذا الباب. (٢)

وأما عدد أحاديث الصحيح فهو مختلف فيها يسيراً تبعاً لاختلاف رواتها. وأصح طبعات البخاري تحتوي على (٧٥٦٣) حديثاً بالمكرر. (٣)

[المعلقات في البخاري]

وقد أورد البخاري في صحيحه مجموعة من الأحاديث المعلقة.

والتعليق في الأحاديث هو: [حذف راوٍ أو أكثر من أول السند ولو إلى آخر الإسناد]. (٤)

وتارة يجزم البخاري بها كقوله (قال) أو يأتي بها بصيغة التمريض: (يذكر)، وهي على نوعين مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو يوقف على غيره، فأما المطلق المرفوع فقد يكون موصولاً في موضع آخر من كتابه فلا إشكال فيه وإنما علقه هنا للاختصار، وأما غيره فقد تولى الإمام ابن حجر وصله في كتابه الحافل [تغليق التعليق] في خمسة مجلدات وقد طبع بآخر ولله الحمد. (٥)

---

(١) محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن (ت ١٢٥٠ هـ)، الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٢) حياة البخاري للقاسمي صـ ٤٧.

(٣) طبعة دار السلام عام ١٤١٧ هـ.

(٤) شرح النووي صـ ١٤.

(٥) طبع بتحقيق سعيد بن موسى الغزقي وحققه لنيل درجة الدكتوراه سنة هـ ١٤٠٥ وطبعه المكتب الإسلامي.

وقد أجاد الحافظ واستقصى بقية أسانيد البخاري ولكن لأنها ليست على شرط البخاري لم يجزم بها ومعلوم اجتماع الأمة على تلقي الصحيح بالقبول.

قال النسائي في معرض الكلام على كتب الحديث خاصةً البخاري ومسلم: أجود هذه الكتب كتاب البخاري واجتمعت الأمة على صحة هذين الكتابين ووجوب العمل بأحاديثهما، كما أيده الإمام النووي على ذلك – رحمهما الله–. (١)

---

(١) شرح النووي صـ ٣ بتصرف.

المطلب الرابع: قيمة كتاب التوحيد بين أبواب الجامع وعناية العلماء به

ختم الإمام البخاري كتابه الجامع بكتاب التوحيد ورقمه (٩١) ويحتوي على ثمانية وخمسين باباً (٥٨) احتوت على (٢٤٥) حديثاً مرفوعاً المعلق منها وما في معناه من المتابعة (٥٥) طريقاً والباقي موصول خلص منها غير مكرر (١١) حديثاً وفيه من آثار الصحابة ومن بعدهم (٣٦) أثراً. (١)

ومناسبة ختم البخاري جامعه بهذا الكتاب كما قال الإمام البلقيني: لما كان أصل العصمة أولاً وآخراً هو توحيد الله فختم كتاب التوحيد وكان آخر الأمور التي يظهر بها المفلح من الخاسر ثقل الموازين وخفتها فجعله آخر التراجم فقال (باب قول الله تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ الأنبياء ٤٧ وأن أعمال بني آدم توزن).

فبدأ بحديث إنما الأعمال بالنيات في أول الصحيح وختم بأن أعمال بني آدم توزن وأشار بذلك في أنه إنما يتقبل منها ما كان بالنية الخالصة لله تعالى. (٢)

ولا ريب أن البخاري أودع في كتاب التوحيد أصول اعتقاد السلف في أسماء الله وصفاته والرد على أهل الضلال من الجهمية ومن تبعهم ولذلك صارت العناية به والنقل عنه والإشارة إليه

فقد اختصر الإمام أبي علي الحسن بن البنا الحنبلي المتوفى سنة (٤٧١ هـ) كتاب التوحيد وضمنه كتابه المختار في أصول السنة فقال: باب ما ترجمه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٥٥٤ بتصرف وإضافة

(٢) هدى الساري (٢٩٧) بتصرف

البخاري في كتاب الصحيح فقال: التوحيد وعظمة الرب وصفاته والرد على الجهمية الذين أنكروا صفات الرب وجعلوها مخلوقة (١)

ثم أخذ في التعليق على مراد البخاري.

واختصر الإمام ابن القيم –رحمه الله– تراجم كتاب التوحيد في كتابه: اجتماع الجيوش الإسلامية فأجاد وأفاد (٢)

وأما الشراح الذين أفردوه في الشرح فوقع لي من ذلك ما ألفه العلماء المعاصرون إذ لم أجد من أفرده بالتأليف (من السابقين) ومن ذلك:

١ – (شرح كتاب التوحيد للإمام البخاري) للعلامة عبد الحق الهاشمي المدرس في المسجد الحرام المتوفى سنة (...) (٣) وهو عالة على فتح الباري وغيره من الشروح لا يخرج عنها غالباً مع التنبيه نادراً على بعض ما يخالف فيه ابن حجر مراد البخاري.

٢ – (شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري) لفضيلة العلامة الدكتور عبد الله بن محمد الغنيمان رئيس قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية وهو ممن اعتنى بصحيح البخاري وكتابه (دليل القارئ إلى مواضع الحديث في صحيح البخاري) من أنفع وأدق الفهارس للجامع الصحيح.

ألَّف شرحه في مجلدين، قال في مقدمته (لما أعوزني وجود شرح على هذا الوصف – يقصد فهم السلف لمسائل العقيدة – ولم يسعفني من طلبت منه القيام بذلك من مشايخنا تطفلت على كتب العلماء وقمت بجمع ما أراه مناسباً لشرح ما أورده البخاري رحمه الله –

---

(١) المختار في أصول السنة لابن البنا صـ (٩٨) تحقيق عبد الرزاق البدر

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ٢٣٥ تحقيق د. عواد المعتق

(٣) له ترجمة في الإعلام للزركلي ٣/ ٢٨١ ولم يذكر سنة وفاته وهو والد الشيخ: أبي تراب الظاهري.

ولست ازعم إنني أفهم من كتاب البخاري ما لا يفهمه شارحوه أمثال ابن حجر والعيني والخطابي وابن بطال والقسطلاني وغيرهم ولكن لكل منهم منهجه الخاص وعقيدته التي تملي عليه مسلكاً معيناً (١)

وقد استفدت منه كثيراً، .

وهناك شرح للعلامة محمد بن صالح العثيمين أحد أعلام أهل السنة في زماننا وشرح فيه كتاب التوحيد وقد فُرّغ من تسجيل له وطبع على الآلة الكاتبة واستفدت

منه في فهم مراد البخاري. (٢)

كما استفدت منه – سلمه الله – مشافهة في بعض مسائل كتاب التوحيد فأفادني جزاه الله خيراً، قال حفظه الله في مقدمة شرحه: هذا الكتاب ختم به المؤلف رحمه الله الجامع الصحيح كما ابتداء بالوحي لان الوحي به الابتداء والتوحيد به الغاية ولهذا كان من مات وآخر كلامه لا اله إلا الله دخل الجنة. (٣)

كما أن البخاري رحمه الله قد أفاض في بيان كثير من مسائل كتابه خاصة في مسائل خلق القرآن وما يتبعها من التلاوة والألفاظ وأحكامها هل هي مخلوقة أم لا؟ في كتابه (خلق أفعال العباد).

وقد احتوى كتاب التوحيد من صحيح البخاري على آراء البخاري وفهمه لمسائل العقيدة خاصة مسألة التوحيد وما يتبعها من أسماء وصفات فرتب رحمه الله الكتاب بنفس طريقة الجامع الصحيح فهو يبوب لما يريد أن يظهره بآية أو حديث أو قول ثم يجعل القارئ يستنبط ما بوب

---

(١) شرح البخاري للغنيمان ١/ ٢٩

(٢) شرح ابن عثيمين كتاب التوحيد في الفترة بين ٣/ ١ حتى ١٠/ ٢ من سنة ١٤١٤ هـ

(٣) شرح ابن عثيمين لكتاب التوحيد ص ١

له من النصوص التي أوردها وأحياناً يكون الشاهد في رواية أخرى كما هي عادة البخاري في تنشيط ذهن القاري: نبه على هذا أكثر الشراح.

فمن ذلك تبويبه بآية فيقول: (باب قول الله تعالى: ﴿وكان الله سميعاً﴾ النساء ١٣٤. وأما الحديث فقال: باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (لا شخص أغير من الله).

وربما بوب بفهمه للباب فقال: باب ما جاء في دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم – أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وأحياناً يستنبط دليلاً عقلياً يفهمه من كلام صحابي كقوله: وقال خبيب: وذلك في ذات الإله؛ فذكر الذات باسمه تعالى واستنباطاً من آية فيقول: ﴿قل أي شيء اكبر شهادة قل الله﴾ الأنعام آية (١٩) فسمى الله تعالى نفسه شيئاً وسمى النبي – صلى الله عليه وسلم – القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله.

وأحياناً يورد تفاسير السلف للنص كقوله ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ قال أبو العالية: استوى: ارتفع وقال مجاهد علا وقال ابن عباس (المجيد) الكريم.

ويستشهد بالفطرة على بعض المسائل فيورد خبر أبي ذر –رضي اله عنه– في بحثه عن الحقيقة ويقول لأخيه: اعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم انه يأتيه الخبر من السماء فهذا دليل فطري على علو الله على خلقه فهو يورده في إثبات العلو مع نصوص كثيرة مصرحة بذلك.

وقد أطال رحمه الله في مسألة القرآن فنفى خلقه وتوسع في الفرق بين الخلق والمخلوق والفاعل والمفعول بنصف الكتاب الأخير تقريباً لأنها المسألة التي امتحن بها فأكثر من الأدلة على توضيحها والله أعلم.

الباب الأول مسائل العقيدة في كتاب التوحيد

الفصل الأول: التوحيد والرد على الجهمية

الفصل الثاني: أول واجب على المكلفين

الفصل الثالث: الأسماء الحسنى.

الفصل الرابع: من أحكام الأسماء الحسنى.

الباب الأول: مسائل العقيدة في كتاب التوحيد

الفصل الأول: التوحيد والرد على الجهمية

المطلب الأول: المؤلفات في التوحيد

سمي الإمام البخاري هذا الكتاب بـ كتاب التوحيد " وفي بعض رواياته "كتاب التوحيد والرد على الجهمية وغيرهم " وهذا من استكمال المنهج في الرد على الفرق المخالفة في هذا الجامع المبارك لأنه -رحمه الله- رد على المرجئة في كتاب (الإيمان) وعلى الخوارج في كتاب (الفتن) ورد على الرافضة في كتاب (الأحكام).

والمراد بقوله " وغيرهم " ما فسره البخاري في بعض روايات الصحيح فقال " القدرية " وهي رواية المستملي. ومعلوم أنهم المعتزلة.

فهذه هي رؤوس البدعة: - الجهمية، والمرجئة، والخوارج، والرافضة. على أنه مع هذا كله رحمه الله لم يسم أولئك الذين نبه على أخطاءهم وأوهامهم ولم يسم أحداً بعينه، وهذه همة عالية لأُولي العزم من العلماء.

وغالب الشراح قد تنبه إلى مقصده - رحمه الله - بهذا التبويب أعني الرد على أصول الفرق المخالفة وأفراد كل منها بكتاب خاص.

والبخاري في فعله ذلك داخل في منظومة السلف التي جاهدت في الله حق جهاده في بيان ما أخذ عليهم من العهد بالبلاغ ولو آية وبعدم كتم العلم.

ولما وقع الخلل في الصف آخر عهد الصحابة بدأ العلماء بالتصنيف في العقائد وكان على شقين:

١ – إما توضيحاً للسنة وشرحاً لها.

٢ – وإما رداً على بدعة، وهناك من يجمع بين المنهجين وهم حريصون على النقل عن الله ورسوله إذ هما العمدة في مثل هذه الأمور. . قال ابن تيمية: وأما أهل الحديث فإنما يذكرون مذهب السلف بالنقول المتواترة، يذكرون من نقل مذهبهم من علماء الإسلام وتارة يردون نفس قولهم في هذا الباب. (١)

ومن جهود العلماء في التأليف في نشر السنة وشرح الاعتقاد وبيان التوحيد (٢)

١ – السنة لأبي بكر عبد الله بن محمد العبسي (ت ٢٢٥ هـ).

٢ – السنة للإمام أحمد (٢٤١ هـ) ط

٣ – السنة لأبي بكر بن الأثر م ت (٢٧٣ هـ) ط.

٤ – السنة لأبي داود صاحب السنن (ت ٢٧٥ هـ).

٥ – السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ت ٢٩٠ هـ) ط

٦ – السنة لأبي بكر أحمد المروزي ت (٢٩٢ هـ) ط

٧ – السنة لمحمد بن نصر المروزي (ت ٢٩٤ هـ).

٨ – التوحيد لأبي عبد الله بن مندة (ت ٣٢٠ هـ).

٩ – التوحيد لابن خزيمة (ت ٣١١) ط.

١٠ – الشريعة للإمام الآجري (ت ٣٦٠ هـ) ط.

١١ – الإبانة الكبرى لابن بطة العكبري (ت ٣٨٧ هـ) ط.

١٢ – التوحيد لمحمد بن إسحاق بن مندة (ت ٣٩٥) ط.

---

(١) الفتاوى ٤/ ١٥١، ١٥٢

(٢) سأرمز للمطبوع بـ (ط). وممن نبه على مؤلفات أهل السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٧٦) والفتاوى لابن تيمية ٣/ ٣٧٩ والذهبي من خلال سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤.

١٣ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (ت ٣٩٥) ط.

١٤ – الحجة في بيان المحجة في شرح عقيدة أهل السنة لقوام السنة إسماعيل الأصبهاني (ت ٥٣٥ هـ) ط.

وفي الجانب الآخر أعني جانب الرد وتفنيد الشبه على الجهمية خاصة والمخالفين عامة فمنها:

١ – الرد على الجهمية لعبد الله بن محمد الجعفي شيخ البخاري (ت ٢٢٩ هـ).

٢ – الإمام نعيم بن حماد له ثلاثة عشر كتاباً في الرد على الجهمية (ت ٢٢٩ هـ). (١)

٣ – الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن فكناني (ت ٢٤٠ هـ) ط.

٤ – الرد على الجهمية للإمام أحمد (ت ٢٤ هـ) ط.

٥ – خلق أفعال العباد للبخاري (ت ٢٥٦ هـ) ط.

٦ – الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ط.

٧، ٨ – الرد على الجهمية – والرد على المريسي كلاهما للإمام الدارمي (٢٨٠ هـ) ط.

٩ – الرد على الجهمية للإمام ابن أبي حاتم (٣٢٧ هـ).

١٠ – التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملطي (ت ٣٧٧ هـ) ط.

١١ – الرد على الجهمية لمحمد بن إسحاق بن مندة (ت ٣٩٥ هـ) ط.

وقد يسر الله الاطلاع – بفضله ومنه – على المطبوع منها والاستفادة منه وما زال أئمة السنة موضحين وشارحين ورادين على المخالفين.

وقول البخاري (كتاب التوحيد والرد على الجهمية)، يحوجنا إلى توضيح: التوحيد وإلقاء الضوء على الجهمية.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٩٩

المطلب الثاني: تعريف التوحيد

التوحيد: مصدر وحد يوحد أي جعل الشيء واحداً.

وقيل الحكم بان الشيء واحد والعلم بأنه واحد.

وفي الاصطلاح: إفراد الله بما يختص به سبحانه. (١)

وهو ثلاثة أنواع: الربوبية والألوهية، والأسماء والصفات.

وقال الجرجاني: وهو ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية والإقرار بالوحدانية ونفي الأنداد عنه جملة. (٢)

ومسألة تقسيم التوحيد حصل فيها انتقاد بين المعرفين من كل طائفة والحق أنه تقسيم اصطلاحي ظهر باستقراء النصوص مع تنزيه الله.

ولا باس أن نعرج على مسألة مهمة وهي من قال بهذا التقسيم أعني الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وأقدم من وجد مقسماً لذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله فقال: والله تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء). (٣)

وقال شارح الفقه الأكبر لأبي حنيفة: الملا على القارئ. (٤)

---

(١) معجم ألفاظ العقيدة لعامر الفالح ص ١٠٢.

(٢) التعريفات للجرجاني صـ ٩٦.

(٣) أصول الدين عند ابي حنيفة ص ٢٠٨ وهي في الفقه الأبسط لأبي حنيفة صـ ٥١.

(٤) علي بن سلطان الملا القاريء، فقيه حنفي من صدور العلم في عصره صنف كتباً كثيرة، (ت ١٠١٤ هـ)، الأعلام (٥/ ١٢).

" ابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية (١)

وممن قال به أيضاً من المتقدمين الإمام عبد الله بن محمد بن بطة العكبري ... (ت ٣٨٧) هـ قال في كتابه (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة).

ما نصه " وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاث أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعاً.

الثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مبايناً بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

الثالث: أن يعتقده موصفوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه. (٢)

وممن قال به من المتقدمين الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق ابن مندة (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه (كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد).

قال محققه: اشتمل على أقسام التوحيد التي ورد ذكرها، الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ثم سرد الأبواب التي نص عليها ابن مندة لذلك. (٣)

---

(١) المرجع السابق صـ ٢٠٩

(٢) الإبانة لابن بطة صـ (٦٩٣ – ٦٩٤) من القسم المخطوط انظر القول السديد صـ ٢٩

(٣) التوحيد لابن مندة ١/ ٣٣ – ٤٢ بتحقيق د. علي فقيهي

وكذلك نص على مثله الإمام الطحاوي في عقيدته (ت ٣٢١ هـ) فقال في أولها " نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: أن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ولا اله غيره ".

فتأمل قوله (لا شيء مثله) في الصفات (ولا شيء يعجزه) وهذا من توحيد الربوبية (ولا اله غيره) وهذا من توحيد الألوهية، وهذا ما فسره به الشارح ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٣ هـ) في بيان وشرح هذه الأقسام.

ومنهم الإمام المقريزي (١) الشافعي صاحب الخطط المشهورة (ت ٨٤٥ هـ) فقد بنى عليها كتابه تجريد التوحيد المفيد. (٢)

ومن المتأخرين البيجوري شارح جوهرة التوحيد قال: " الحمد لله رب العالمين " يشير إلى تقدير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية – ثم قال: وغالب سور القرآن متضمنة نوعي التوحيد. (٣)

وأما وجوده في كلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجب فكثيرٌ جداً وهم أكثر من حرره وأبرزه.

وأما الإمام البخاري فقد أفرد الربوبية وجعل فعل الله منها فقال: ففعله من ربوبيته حيث يقول ﴿كن فيكون﴾ (٤) يس ٨٢، فذكر جزءاً من التقسيم ولم ينص على غيره، والحاصل: أن هذا التقسيم استقراء لنصوص الشرع وهو مطرد لدى أهل كل فن، وهو خلاصة النظر في كلمة

---

(١) أحمد بن علي بن عبدالقادر مؤرخ الديار المصرية ولي فيها الحسبة والخطابة (ت ٨٤٥ هـ)، الأعلام (١/ ١٧٧).

(٢) تجريد التوحيد للمقريزي ٣٨ وما بعدها وذكر إقرار المشركين لتوحيد الربوبية وإنكارهم لتوحيد الإلوهية صـ ٤٦.

(٣) شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص ٩٧.

(٤) خلق أفعال العباد (١١٣).

التوحيد (لا إله إلاّ الله) فقد دلت هذه الكلمة على إفراد الله بالعبادة ودلت على ربوبيته، فإن العاجز لا يكون رباً، ودلت على كمال أسمائه وصفاته، إذ أن مسلوب الصفات ليس بشيء. والله أعلم.

المطلب الثالث: تعريف الجهمية

الجهمية – كما يظهر من تسميتها – نسبة إلى الجهم بن صفوان لأنه هو الذي أظهرها وبينها وجادل عنها قال عنه الإمام أحمد: (إنه وضع دين الجهمية). (١)

وهناك من الآراء التي تبناها عن غيره نسبت إليه لأنه هو الذي نشرها فمن هو الجهم؟ . (٢)

اسمه: أبو محرز الجهم بن صفوان وكان مولى لبني راسب من الأزد وهو من أهل خراسان وقد أخذ عن الجعد بن درهم في الكوفة ثم صار قاضياً للحارث بن سريج (٣) الذي خرج على دولة بني أمية في أواخرها وقد اسر الجهم في معركة بين الحارث بن سريج وأمير خراسان من قبل بني أمية نصر بن سيار (٤)، فتولاه (سلم بن أحوز) (٥) أمير خراسان فقال له الجهم إن لي أماناً من أبيك؛ فقال سلم: ما كان له أن يؤمنك ولو فعل ما أمنتك ولو ملأت هذه الملاءة كواكب وأنزلت عيسى بن مريم ما نجوت. والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك ثم أمر بقتله.

والجهم عاش في عصر الرواية في زمن صغار التابعين ومع ذلك لم يعرف له رواية.

---

(١) الرد على الجهمية للإمام أحمد ص ١٠٥.

(٢) انظر للتوسع مقالات الأشعري (١/ ٣٣٨) (الملل والنحل ٣٦) وسير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦) والبداية والنهاية (١٠/ ٢٧).

(٣) التميمي الخراساني خرج على هشام بن عبدالملك ثم هرب إلى الترك ثم رجع وقتله الكرماني سنة ١٢٨ هـ الأعلام (٢/ ١٥٤).

(٤) نصر بن سيار أمير خراسان من قبل هشام بن عبدالملك (ت ١٣١ هـ) الأعلام (٨/ ٢٣).

(٥) المازني والي الشرطة لنصر بن سيار أمير خراسان. كان من القواد (ت ...) البداية والنهاية (٩/ ٣٦٤).

قال عنه أبو معاذ البلخي (١): لم يكن له علم ولا مجالسة أهل العلم فقيل له صف لنا ربك: فدخل البيت لا يخرج كذا ثم خرج بعد أيام فقال هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء ولا يخلو منه شيء. (٢)

وأهم آراء جهم والتي جمعت من كلام الأئمة الذين دونوا في الفرق أو ردوا عليه فهو لم يترك كتاباً نأخذ منه فكره وآراءه والتي من أهمها:

١ – نفي الأسماء والصفات.

٢ – الإيمان هو المعرفة فقط.

٣ – القول بالجبر فلا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وأن نسبة الأفعال للناس مجازية.

٤ – القول بفناء الجنة والنار

وممن سرد ما أنكره جهم الإمام الملطي عن الإمام أبي عاصم بن أصرم (٣) فمنها:

(أنكر جهم أن الله على العرش وأن له كرسي وأن يكون في السماء دون الأرض وأنكر أن يكون له سمع وبصر ويد وأنكر أنه استوى إلى السماء أو أنه تكلم مع موسى أو أنه يتكلم وأنكر النزول إلى السماء الدنيا وأنكر النظر إلى الله وأنكر قبض ملك الموت للأرواح ومنكر ونكير وأنكر الشفاعة وخروج قوم من النار ثم أنكر أن الجنة والنار مخلوقتان وزعم أنهما تفنيان بعد خلقهما. (٤)

---

(١) عبدالله بن محمد البلخي محدِّث بلخ استشهد على يد القرامطة عام ٢٩٤ هـ، الأعلام (٤/ ١١٨).

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٤٥

(٣) خشيش بن أصرم النسائي ثقة حافظ حجة، قال الذهبي كان صاحب سنة واتباع روى عنه أبوداود والنسائي (ت ٢٥٣ هـ) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٥٠).

(٤) التنبيه والرد للملطي (٩٩ – ١٤٤)

وحيث يطلق أئمة السنة كلمة (الجهمية) فإنهم يعنون أتباع جهم ولمن قال ببعض أقواله أو بنى كلامه على ما أصَّله جهم فمن ذلك المعتزلة ومنهم بعض الصفاتية المثبتة المخالفة للجهمية لكن يردون بعض الصفات أو قالوا بتأويلها.

وقد كفّر الأئمة الجهمية الغلاة.

قال ابن المبارك: الجهمية كفار زنادقة، وقال أحمد بأن الجهمي إذا مات لا يرثه ولده.

وقد عقد البخاري لذلك فصلاً في أول (خلق أفعال العباد) وقال: نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت أضل في كفرهم منهم وإني لاستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم.

وقال البخاري أيضاً: ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى ولا يسلم عليهم ولا يعادون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم. (١)

وأصحاب كتب الفرق يجعلون الجهمية تارة قسماً من إحدى الفرق الكبرى كالمرجئة كما فعل الأشعري وتارة من الجبرية كما فعل الشهرستاني والبغدادي وهناك من يجعلهم فرقة واحدة ثم يعدد لهم فرق أوصلها بعضهم إلى اثنتي عشرة فرقة ذكروا منها المعطلة والمريسية والزنادقة والواقفة واللفظية وهكذا كل فرقة زادت شيئاً أو تميزت.

وسيأتي الكلام أثناء البحث – بحول الله – عن أقوالهم وشبههم والرد عليها. (٢)

---

(١) انظر كلام الأئمة وكلام البخاري في خلق أفعال العباد للبخاري (٢٩ – ٤٠).

(٢) انظر في هذه الفرق مقالات الأشعري (١/ ٢١٣) والملل والنحل (٣٦) والفرق بين الفرق (٢٥).

الفصل الثاني: أول واجب على المكلفين

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: كتاب التوحيد

(– باب ما جاء في دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم – أمته إلى توحيد الله تعالى).

١) أسند فيه حديث معاذ وفيه " فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك".

٢) وحديث معاذ وفيه: أتدري ما حق الله على العباد. . . أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً".

٣) وحديث أبي سعيد الخدري في الرجل الذي يقرأ سورة الإخلاص وفيه " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"

٤) وحديث عائشة عن الرجل الذي بعثه الرسول – صلى الله عليه وسلم – على سرية وكان يختم بـ " قل هو الله أحد " وقال – عليه السلام – حين قال " إنها صفة الرحمن وأنا أحبُ أن أقرأ بها". فقال: " أخبروه أن الله يحبه".

بعث الله أنبيائه جميعاً بالتوحيد ودعوة أقوامهم إلى أن يوحدوا الله.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تنص على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له وتبين لزوم ذلك للإنسان لزوم أمرٍ أوجبه الله عليه وجاء الوعيد والتهديد لمن تركه وأعرض عنه، والترغيب والوعد بالجزاء الجميل لمن أمتثل ذلك واتبع الرسل ومع وضوح ذلك من النصوص الشرعية، فقد وُجد من خالف ذلك الجانب وأعرض عن العلم بأمر الله وشرعه والذي بفقده يستحكم الضلال والبعد عن كل خير.

فلابد للعبد أن يعلم أنَّ أهمّ ما أوجبه الله عليه معرفة ما أمر الله والعمل به. وأول ما أوجب الله تعالى على العبد وأعظمه هو الإيمان به تعالى وبرسوله ثم الاهتداء إلى ذلك وتفاصيله

بالوحي الذي جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – قال تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي﴾ سبأ ٥٠.

وقال عبد الله بن رواحة والنبي – صلى الله عليه وسلم – يسمع ويردد معه. . "والله لولا الله ما اهتدينا" وذلك عند بناء مسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم –.

وقد تكلم الناس في أصل المعرفة بالخالق سبحانه. . هل هي فطرية أم نظرية؟ . وترتب على هذا اختلاف آخر وهو: هل النظر واجب أم لا؟ على أقوال:

الأول: أن النظر واجب وأن المعرفة بالصانع متوقفة عليه. وهو قول الجهمية وطوائف من المتكلمين كالجو يني وحكى الإيجي الإجماع على ذلك وهو المشهور عند المعتزلة. (١)

الثاني: يمكن حصول المعرفة بدون النظر لكنه طريق صحيح وهو قول أبي سليمان الخطابي (٢) والقاضي أبي يعلى (٣) وأبي جعفر السمناني. (٤)

والثالث: أنه ليس بواجب مطلقاً وهو قول ابن حزم وقد شدد اللهجة في إنكاره وقال: "فلقد بقينا سنين كثيرة لا نعرف الاستدلال ولا وجوهه ونحن ولله الحمد في غاية اليقين بدين الإسلام، وكل ما جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – نجد أنفسنا في غاية السكون إليه، وفي غاية النفار عن كل ما يتعرض فيه بشك. (٥)

---

(١) المواقف للايجي صـ ٢٧.

(٢) حمد بن محمد الخطابي، فقيه محدِّث شرح البخاري وسنن أبي داود (ت ٣٨٨ هـ) الأعلام (٢/ ٢٧٣).

(٣) محمد بن الحسين الفراء، عالم عصره في الأصول والفروع وشيخ الحنابلة في وقته ت (٨٥٤ هـ) الأعلام (٦/ ٩٩).

(٤) محمد بن أحمد السمناني، قاضي حنفي كان مقدم الأشعرية في وقته توفي (٤٤٤ هـ) الأعلام (٥/ ٣١٤).

(٥) الفصل لابن حزم (٤/ ٧١).

الرابع: هو واجب بالجملة وهو قولٌ للخطابي وأبي فرج المقدسي. (١)

والموجبون للنظر يقولون هو: أول الواجبات، ومنهم من يقول بل القصد إلى النظر هو أول الواجبات. وقال أبو هاشم بل الشك أول الواجبات. (٢)

وهناك من فصَّل فقال: يجب النظر في حالٍ دون حال، وعلى شخص دون شخص فوجوبه من العوارض التي تجب على بعض الناس في بعض الأحوال لا من اللوازم العامة فيقال: كل علم وجب ولم يحصل إلاّ بالنظر وجب فيه النظر.

وأما إذا حصل ضرورة أو حصل بدون النظر ولم يكن العلم واجباً لم يكن النظر فيه واجباً. وذكر ابن تيمية: أن هذا أعدل الأقوال وكلام الأئمة والسلف إنما يدل عليه. (٣)

ومعرفة الخالق فطرية وإنما تكون نظرية عند من فسدت فطرته فاحتاج إلى النظر والبرهان ومن المعلوم من دين الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه لم يوجب هذا النظر على الأمة، ولا أمرهم به. بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة، ولو كان النظر واجباً لكان أول ما يجب على الرسل دعوة قومهم إليه وهذا مما علم فساده من دين الإسلام. (٤)

والفطر تعرف الخالق بدون الآيات والأدلة الفعلية لأن معرفة الدليل تستلزم تصور المدلول عليه قبل ذلك، كما أن معرفة الاسم تقتضي تصور المسمى من قبل حتى تمكن المطابقة وتتم المعرفة. (٥)

---

(١) عبد الواحد بن محمد الشيرازي شيخ الشام في وقته، حنبلي له مؤلفات جليلة (ت ٤٨٦ هـ) الأعلام (٤/ ١٧٧).

(٢) المواقف صـ ٣٢.

(٣) الرسائل الكبرى لابن تيمية ٢/ ٣٤٧، ٣٤٨.

(٤) انظر الفتاوي لابن تيمية ١٦/ ٣٣٠.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٥٩ – ٦٠.

والقلوب مفطورة على الإقرار به سبحانه أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره كما قالت الرسل: ﴿أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض﴾ إبراهيم ١٠.

قال الشهرستاني: فما عددت هذه المسألة – توحيد الربوبية– من النظريات التي يقام عليها برهان، فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها على صانع حكيم عالم قادر".

ثم قال: ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك. (١)

ويشير الإمام أبو المظفر السمعاني (٢) إمام الشافعية في وقته إلى هذا الأمر بقوله: " وإنما أنكرنا طريقة أهل الكلام على ما أسسوا فإنهم قالوا: أول ما يجب على الإنسان النظر المؤدي إلى معرفة الباري وهذا قول مخترع لم يسبقهم إليه أحد من السلف وأئمة الدين ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها لا منقولاً من النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا من الصحابة – رضي الله عنهم– وكذلك من التابعين بعدهم. فكيف يجوز أن يخفى عليهم أول الفرائض وهم صدور هذه الأمة والسفراء بيننا وبين رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. ثم ساق رحمه الله الأدلة على أن أول واجب هو الدعوة إلى توحيد الله واستدل لذلك بحديث الباب عن معاذ وحديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. (٣)

---

(١) نهاية الأقدام صـ (١٢٤).

(٢) منصور بن محمد التميمي الشافعي، مفسرٌ محدِّث وهو صاحب الأنساب له (الإنتصار لأصحاب الحديث) وغيره (ت ٤٨٩ هـ) الأعلام (٧/ ٣٠٣).-

(٣) رواه البخاري – الإيمان ب ١٧.

ثم قال: وما روى أنه دعاهم إلى النظر والاستدلال وإنما يكون حكم الكافر في الشرع أنه يُدعى إلى الإسلام فإن أبى وسأل النظرة أو الإمهال لا يجاب إلى ذلك.

ثم قال: وربما لا يتفق النظر والاستدلال له في مدة يسيرة فيحتاج إلى إمهال الكفار مدة طويلة تأتي على سنين ليتمكنوا من النظر التمام والكمال وهذا خلاف إجماع المسلمين. (١)

قال الإمام الطحاوي في أول عقيدته المشهورة: " نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله. أن الله واحد لا شريك له".، وعلق عليه الشارح بقوله:

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة ألا إله إلا الله لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوالٌ لأرباب الكلام المذموم. بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب بلوغه ولم يوجب أحدٌ منهم على وليه أن يخاطبه حينئذٍ بتجديد الشهادتين وإن كان الإقرار بالشهادتين واجبٌ باتفاق المسلمين ووجوبه يسبق وجوب الصلاة لكن هذا أدى إلى هذا الواجب. ثم قال فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال – صلى الله عليه وسلم –: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنَّة) فهذا أول وآخر واجب. (٢)

وهذه المسألة هي أول المسائل في كتب أهل الكلام عند الأشاعرة والماتريدية وهي من جملة ما بقى من أصول المعتزلة.

---

(١) نقل هذا الإمام قوام السنة إسماعيل التميمي في كتابه الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة ٢/ ١١٧.

(٢) بتصرف من كلام شارح الطحاوية ابن أبي العز صـ ٢٣.

كما نقل ذلك الحافظ بن حجر عن أحد كبار الأشاعرة فقال: " وقد أعترف أبو جعفر السمناني وهو من رؤوس الأشاعرة وكبارهم بأن هذه المسألة من مسائل المعتزلة بقيت في المذهب" (١) وهنا يبين تأثير المعتزلة على الأشاعرة.

والذي بوب له البخاري رحمه الله تعالى من دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم – أمته إلى التوحيد هو الذي نُقل عن السلف الصالح والأئمة الأعلام فقد أخرج الإمام الهروي (٢) في كتابه (ذم الكلام) بسنده عن الإمام الشافعي رحمه الله، قال: سئل الإمام مالك عن الكلام والتوحيد فقال مالك: "محال أن يظن بالنبي – صلى الله عليه وسلم – أنه علَّم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد. (٣)

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما الإقرار بشهادة إلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (٤)، وهذا هو الذي يفهم من تبويب الإمام البخاري.

فأحاديث الباب دالة على ذلك فحديث معاذ وفيه قوله – صلى الله عليه وسلم –: (أول ما تدعوهم إليه) وحديث (حق العباد على الله أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)، والشرك ضد التوحيد. وحديث (فضل سورة الإخلاص) وهي التي تحتوي على أصول التوحيد وإفراد الله بأنه الواحد الأحد الصمد. والنصوص تؤيد ذلك فمنها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس –رضي الله عنهما–

---

(١) فتح الباري ١/ ٧٠، ١٣/ ٣٤٨.

(٢) عبد بن أحمد بن محمد ابوذر الهروي، عالم من الحفاظ من فقهاء المالكية، (ت ٤٣٤ هـ) الأعلام (٣/ ٢٦٩).

(٣) اعتقاد الأئمة الأربعة د. عبد الله الخميس صـ ٢٥.

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم صـ ١٦٥، ومختصر العلو للذهبي صـ ١٧٦.

أن رجلاً قال للنبي – صلى الله عليه وسلم – أنشدك الله. آلله أرسلك أن نشهد ألا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى، قال نعم، فأسلم. (١)

وحديث عمرو بن عبسة عند مسلم قال: ما أنت؟ قال: نبي الله قلت: آلله أرسلك قال: نعم، قلت بأي شيء قال: أن يوحد الله ولا يشرك به. (٢)

وحديث أسامة في قصة قتله للرجل الذي قال: لا إله إلا الله فأنكر عليه. (٣) وما كتبه عليه السلام إلى هرقل وكسرى وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى التوحيد إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوي الدال على أنه – صلى الله عليه وسلم – لم يرد في دعائه المشركين على أن يؤمنوا بالله وحده ويصدقوه فيما جاء به عنه فمن فعل ذلك قَبِلَ منه، قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ محمد ١٩.

وقد حذر الإمام القرطبي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم (المفهم) من الانسياق وراء من قعَّدوا قواعد وألزموا الناس بها بعيداً عن النصوص الشرعية فقال في شرح حديث " أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم" (٤) هذا الشخص الذي يبغضه الله هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق ورده بالأوجه الفاسدة والشبة الموهمة وأشد ذلك الخصومة في أصول الدين كما يقع لأكثر المتكلمين ثم ساق أقوالاً لعلماء الكلام ورجوعهم عنه، ثم قال: ولو لم يكن في الكلام إلا مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ح (٢٢٦٠).

(٢) صحيح مسلم ح (١٣٧٤).

(٣) البخاري ح (٣٩٣٥).

(٤) مسلم ح (٤٨٢١).

الأولى: قول بعضهم إن أول واجب الشك إذ هو اللازم عند وجوب النظر والقصد إلى النظر وإليه أشار الإمام الجو يني بقوله " ركبت البحر الأعظم وغصت في كل شيء نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فرار من التقليد والآن فقد رجعت واعتقدت مذهب السلف.

ثانيهما: قول جماعة منهم أن من لم يعرف الله بالطرق التي رتبوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه حتى لقد أُورِدَ على بعضهم: أن هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك فقال: لا تشنِّع علي بكثرة أهل النار. (١)

فلماذا ليس النظر ولا القصد إلى النظر؟ الصحيح أن القرآن يعرض النظر ولكن لمن يحتاج إليه، أمّا النظر المنهي عنه هو النظر المؤسس على الآراء الفلسفية كالجوهر والعرض وغيرها، قال شيخ الإسلام: ولما كان الكلام في هذه الأبواب المبتدعة مأخوذاً في الأصل عن المعتزلة والجهمية ونحوهم وقد تكلم هؤلاء في أول الواجبات هل هو النظر أو القصد أو الشك أو المعرفة؛ صار كثير من المنتسبين للسنة يوافقونهم على ذلك. (٢) فتبين أن هذه المقالة من موروثات بدع الجهم التي تقاسمتها الفرق بعده وصدق فيهم قول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

ولذا تقاسمت الطوائف قوله ... وتوارثوه إرث ذي السهمان

لم ينج من أقواله طرفاً سوى ... أهل الحديث وشيعة القرآن. (٣)

وممن صرح بأنها من قول الجهم الإمام السُجزي (٤) في رسالته في الحرف والصوت فقال "وهو من أفظع الأقاويل وهو قول الجهم". (٥)

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٦٢، ٣٦٣

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣، ٤.

(٣) النونية ١/ ٤٨ شرح هرّاس.

(٤) عبدالله بن سعيد بن حاتم السجزي، من حفاظ الحديث له (الإبانة عن أصول الدِّيانة) وغيرها. (ت ٤٤٤ هـ) الأعلام (٤/ ١٩٤).

(٥) رسالة في الحرف والصوت للسجزي صـ ١٩٨.

وقال شيخ الإسلام: هذا القول هو في الأصل معروف عمن قاله من القدرية والمعتزلة ونحوهم من أهل الكلام وإنما قاله من قاله من الأشعرية موافقة لهم، ولهذا قال أبو جعفر السمناني: القول بإيجاب النظر بقية بقيت في المذهب من أقوال المعتزلة وهؤلاء الموجبون للنظر يبينون ذلك على أنه لا يمكن حصول المعرفة الواجبة إلا بالنظر لا سيما القدرية منهم فإنهم يمنعون أن يثاب العباد على ما يخلق فيهم من العلوم الضرورية وليس إيجاب النظر على الناس هو قول الأشعرية كلهم بل هم متنازعون في ذلك. (١)

قال الغزالي رحمه الله" أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر فضيقوا رحمة الله الواسعة وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين. (٢)

وفي حديث الباب وحسن إيراد البخاري له – رحمة الله – الدليل على أن أول الواجبات التوحيد. فقوله – صلى الله عليه وسلم –[أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله] بينتها الرواية الثانية (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله) وقوله (فإذا عرفوا ذلك) ليس فيه دليل لمن يوجب المعرفة أولاً بل الفعل متعلق بالدعوة، أي إذا عرفوا ما تدعوهم إليه فأخبرهم. . . الحديث.

وهذا يعرف من حال الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي هداه الله تبارك وتعالى بنص الوحي فقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحنا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ الشورى ٥٢ – ٥٣.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٠٧.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٦٢).

ونظيره قوله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وأن اهتديت فبما يوحي إلى ربي﴾ سبأ ٥٠.

" ففي هاتين الآيتين يبين الله سبحانه أن الإيمان والهدى حصل بالوحي النازل لا بمجرد العقل الذي كان حاصلاً قبل الوحي". (١)

وانظر إلى فعله – صلى الله عليه وسلم – مع عمه أبي طالب قبل موته قال له: "يا عم قل كلمة أحاج لك بها عند الله" (٢) فكان يكتفي منه بذلك، وهذا فعل الصحابة أسلموا كباراً وصغاراً بادية وحضراً أحراراً وعبيداً مع اختلاف عقولهم فهماً وإدراكاً لم ينقل عن واحد منهم أنه طُلب منه النظر والاستدلال على طريقة المتكلمين فلو كان الأمر على ما زعموا وألزموا الناس به فكيف كانت دعوة معاذ لأهل اليمن؟ بإثبات وجود الرب وحدوث العالم؟ أم هل كان بدليل التمانع أو الأعراض أو حدوث الأجسام؟ أم بأي دليل غير: قل لا إله إلاّ الله وأسلم تسلم.

وننبه هنا مرة أخرى على أننا لا نعترض على النظر الذي وردت النصوص بالأمر به ولكن الاعتراض على النظر المؤسس على الآراء الفلسفية والطرق الكلامية الذي يحصل بعدم تطبيقها تكفير لعامة المسلمين ولمن لم يطبق هذه الأساليب وقد نكون أنا وأنت منهم أيها القارئ.

وأمّا الأدلة التي يحتج بها الموجبون للنظر فليست لكل أحد.

قال شيخ الإسلام: تعليقاً على أدلة الموجبين للنظر [سورة ليس فيها أن النظر أول الواجبات ولا فيه إيجاب النظر على كل أحد وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس وهذا موافق

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٥٧ ..

(٢) البخاري ح (٣٥٩٥).

لقول من يقول أنه واجب على من لم يحصل الإيمان إلا به بل هو واجب على كل من لا يؤدي واجباً إلا به وهذا أصح الأقوال. (١)

إذن من حصل له ما يفسد فطرته فيحتاج إلى نظر يحصل له به معرفة الرب وهذا أمرٌ ليس على القاعدة المطردة، أن معرفة الرب أمرٌ فطري، وأما الأصل فأول واجب هو شهادة ألا إله إلا الله.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٨.

الفصل الثالث: الأسماء الحسنى

المبحث الأول: إثبات الأسماء الحسنى

المطلب الأول: إثباتها وأقسامها

الاسم مشتق من السمو والرفعة (١) وورد إثبات لفظ الاسم لله تبارك وتعالى، على وجه التفصيل فمما ورد في إثبات لفظ (الاسم) في القرآن ونسبته إلى الله قوله تعالى، ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ الأعراف ١٨٠، وقوله، ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ طه ٨ وقوله، ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الأعلى ١.

ومن الأحاديث " اللهم باسمك أموت وأحيا"، " بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء" وكذلك ورد الإثبات المفصل لأسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة كآخر سورة الحشر ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس﴾ الحشر ٢٣.

وختام كثير من الآيات يكون بهذه الأسماء ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ العنكبوت ٢٦، ﴿والله غني حليم﴾ البقرة ٢٦٣، ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ النساء ١١.

ومن السنة قوله – صلى الله عليه وسلم – "إن الله جميلٌ يحب الجمال" (٢) وقوله " إن الله هو السلام". (٣)

فهذه أدلة صريحة على إثبات صحة نسبة الاسم لله تبارك وتعالى. (٤)

ويذهب السلف الصالح إلى وجوب إثبات أسماء الله عز وجل إثباتاً حقيقياً بألفاظها ومعانيها سواءً ما جاء به القرآن أو ما قاله الرسول – صلى الله عليه وسلم –، قال تعالى، ﴿ولله الأسماء

---

(١) الاشتقاق للزجاج صـ ٢٢٥.

(٢) رواه مسلم ح (١٣١).

(٣) رواه البخاري ح (٦٨٣٣).

(٤) انظر للتوسع شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٢١٦.

الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف ١٨٠، وقال جل شأنه، ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ الإسراء ١١٠. وقد أنكرها الجهمية ونفوها عن الله تعالى، وزعموا أنه لا يجوز تسمية الله عز وجل باسم يصح إطلاقه على المخلوق، مدعين أن ذلك يقتضي التشبيه، لأجل هذا أثبتوا بعض الأسماء التي رأوا أنها لا يجوز أن تكون مشتركة بين الخالق والمخلوق، كالمحيي والمميت والخالق والقادر. . مع أنهم يطلقون الأسماء كلها على الله عز وجل على جهة المجاز.

قال ابن خزيمة –رحمه الله تعالى– في الرد عليهم، " وليس في تسميتنا بعض الخلق ببعض اسامي الله تعالى بموجب عند العقلاء الذين يعقلون عن الله خطابه أن يقال، أنكم شبهتم الله بخلقه إذا أوقعتم بعض اسامي الله تعالى على بعض خلقه. وهل يمكن عند هؤلاء الجهال حل هذه الأسامي من المصحف أو محوها من صدور أهل القرآن أو ترك تلاوتها، أليس قد أعلمنا منزل القرآن على نبيه – صلى الله عليه وسلم – أنه الملك وسمى بعض عبيده ملكاً، وأخبرنا أنه السلام وسمى تحية المؤمنين بينهم سلاماً في الدنيا وفي الجنة فقال، ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ الأحزاب ٤٤. وأعلمنا أنه المؤمن وسمى بعض عباده مؤمناً فقال، ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ (١) الأنفال ٢.

فكل ما مضى عليه كتاب الله وحديث رسوله – صلى الله عليه وسلم – وجب الإيمان به، فمن أنكر أو ألحد فإنه يخشى عليه من الكفر بعد ثبوت الحجة عليه، كما قال الإمام الشافعي – رحمه الله–، (لله تعالى أسماء وصفات جاء بها في كتابه، وأخبر بها نبيه – صلى الله عليه وسلم – لا يسع أحداً من خلق الله تعالى قامت عليه الحجة ردَّها لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – القول بها، فإن خالف ذلك

---

(١) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٦٥.

بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر بالله تعالى، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية ولا بالفكر. (١)

ويقسم بعض العلماء الأسماء الإلهية من حيث ورودها إلى ثلاثة أقسام،

أولاً، الأسماء المفردة كالرحمن، والرحيم، والسميع، والعليم، ونحو ذلك. وهي على أوجه،

- فمنها ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير.

- ومنها ما يرجع إلى أفعال الرب تبارك وتعالى مثل الخالق، الرزاق.

- ومنها ما يرجع إلى تنزيه محض، ولابد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس، والسلام.

- ومنها الاسم الدال على جملة أوصاف عددية لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد مثل (المجيد، العظيم، الصمد). (٢)

ثانياً، الأسماء المتقابلة،

- كقولنا الظاهر والباطن والقابض والباسط والمعز والمذل والضار والنافع لأن إطلاق واحد من غير ما يقترنه يوهم نقصاً تعالى الله عنه، فلا يطلق المانع والقابض والمذل على انفراد كل واحد فيما يقابله، فهي لم ترد في الوحي إلا كذلك. (٣)

---

(١) ذم التأويل لابن قدامه صـ ٢١، تحقيق بدر البدر.

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٥٩ بتصرف.

(٣) معارج القبول للحكمي ١/ ٦٤ بتصرف.

- والجمع بينهما يكون وصف مدح إذ يدل على أن طرفي الأمور بعيدة كما قاله الغزالي في المقصد الأسنى. (١)

- وقال الإمام الخطابي -رحمه الله تعالى-، " وإذا ذكرت القابض مفرداً عن الباسط كنت قد قصرت الصفة على المنع والحرمان وإذا أوصلت أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين منبئاً عن وجه الحكمة فيهما. (٢)

- ثالثاً، الأسماء المضافة إليه- تعالى-، وهي نوعان،

- الأول، المضافة إلى الخلق (كرب العالمين، مالك يوم الدين، رب العرش) ونحوها.

- الثاني، المضافة إلى لفظ (ذو) نحو " ذو الطول، ذو الجلال والإكرام، ذو القوة المتين، ذو العرش المجيد".

- وورد عدة تقسيمات أخرى لا يخلو بعضها من تكلف، عدها بعضهم خمساً وبعضهم عشراً. (٣)

وجمهور أهل السنة أن أسماء الله توقيفية لا يجوز تسميته بما لم يرد به السمع، وذلك أن أسماء الله وصفاته من الأمور الغيبية التي لا يمكن لنا أن نعرفها إلا عن طريق الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء من الغيب، ثم هم (يبلغونه للناس)، ولا يجوز القياس فيها، أو الاجتهاد؛ ولأن هذا هو الطريق الصحيح والوحيد لمعرفة توحيد الله عز وجل، وأسماءه وصفاته،

---

(١) المقصد الأسنى للغزالي صـ ١٥٦.

(٢) شأن الدعاء (٥٧ - ٥٨).

(٣) فتح الباري ١١/ ٢٢٣، أسماء الله للأشقر (٨٠ - ٨٣).

وهو الاعتماد على الوحي الذي أوحاه الله إلى نبيه وأمره باتباعه، قال تعالى، ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ محمد ٩، وقال تعالى، ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي﴾ سبأ ٥٠.

قال الزجاج، " لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه". (١) وقال الخطابي، "ومن علم هذا الباب، أعني الأسماء والصفات، ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط أنه لا يتجاوز فيها التوقيف، ولا يستعمل فيها القياس، فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة ومتعارض الكلام. (٢) وقال ابن قدامة (٣)، "ومذهب السلف –رحمة الله عليهم– الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقص منها ولا تجاوز لها ولا تفسير لها ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها (٤) ".

وقد خالف بعض المعتزلة أهل الحق في هذا الباب وقالوا، أن العقل دال على جواز تسمية الله باسم، وأن الأسماء مأخوذة من الاصطلاح والقياس.

وكان الجبائي (٥) يقول، أن العقل إذا دل على أن الباري عالم، فواجب أن تسميه عالم، وإن لم يسم نفسه بذلك إذا دل العقل على المعنى وكذلك في سائر الأسماء. (٦)

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٢٣.

(٢) شأن الدعاء صـ ١١١ – ١١٢.

(٣) عبدالله بن أحمد الموفق بن قدامه، إمام الحنابلة في الشام، كثير التأليف صاحب (المغني) وغيره (ت ٦٢٠ هـ) الأعلام (٩/ ٢٢٢).

(٤) ذم التأويل صـ ٩.

(٥) أبوهاشم عبدالسلام ابن شيخ المعتزلة، أخذ عن والده وشهر المذهب ودافع عنه. (ت ٣٢١ هـ) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٦٣).

(٦) مقالات الإسلاميين الأشعري ٢/ ٢٠٧.

ومناظرة الأشعري للجبائي في هذا مشهورة والتي قال في آخرها الجبائي، لم منعت أنت أن يسمى الله عاقلاً وأجزت حكيماً؟ فقال، لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الأذن الشرعي دون القياس اللغوي. (١)

وقد قدمنا الأدلة على التوقيف في إطلاق الأسماء على الله لأنها من الأمور الغيبية والتي لا مجال للعقل فيها قال – صلى الله عليه وسلم –، " لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" (٢) والتسمية من الثناء فدل على أن العقل لا مجال له في باب الأسماء إلا التصديق والوقوف عند النصوص. (٣)

---

(١) طبقات السبكي ٣/ ٣٥٧.

(٢) رواه مسلم ح (٢٢٢).

(٣) للتوسع انظر الأسماء الحسنى لعبد الله الغصن صـ ٦١.

المطلب الثاني: دلالة الأسماء الحسنى على الذات

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى– " إن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر، فإنه يدل على الذات، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر (١) ".

ومعرفة دلالة اللزوم من أنفع العلوم وأدقها ولكن يتفاوت الناس في معرفتها. قال ابن القيم –رحمه الله–، "يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ومن هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإنه من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة، أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته، فإن اسم الله العظيم له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها (٢) ".

ودلالة أسماء الله على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام، ومثال ذلك (الخالق) يدل على ذات الله وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام، ولهذا لما ذكر الله خلق السموات والأرض، قال، ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ (٣) الطلاق ١٢. وهذا كما نبه العلماء من العلم الرباني الذي يجب العناية به من طالب العلم والعناية بالتفكر فيه، كيف لا. وهو في أسماء الرب تبارك وتعالى.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٢٥٤.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٠ – ٣١.

(٣) القواعد المثلى لابن عثيمين صـ ١٤. وانظر بتوسع بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٦٢.

المبحث الثاني: الاسم والمسمى

وأما مسألة الاسم والمسمى وهل هو عين المسمى أم لا؟

فهي مسألة حادثة في آخر القرون المفضلة وهي ناتجة عن الخلاف مع المعتزلة في عهد الإمام أحمد. وهي أحد فروع مسألة خلق القرآن.

فلما قال المعتزلة أن القرآن مخلوق اطرد ذلك عندهم إلى القول أن الأسماء مخلوقة وهي غير المسمى فجاء رد السلف عليهم. وأول من رد عليهم الإمام أحمد رحمه الله وإن كان شق عليه ذلك لعظم الكلام في مسألة حادثة. قال الإمام الطبري رحمه الله، "وأما القول في الاسم هل هو المسمي أم هو غيره فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيها شين والصمت عنها زين. (١)

وقال " ثم حدث في زماننا حماقات خاض فيها أهل الجهل والعناد ونوكى (٢) الأمة والرعاع يتعب إحصاؤها ويُمل ويكثر تعدادها، منها القول في اسم الشيء أهو هو أم هو غيره". (٣)

وهذا هو رأي الغزالي – رحمه الله – في المسألة إذ يقول إن مسألة الاسم والمسمى طويلة الذيل قليل النيل قليلة الجدوى. (٤)

---

(١) صريح السنة لابن جرير الطبري صـ ٥٢.

(٢) النوكى: جمع أنوك وهو الأحمق، لسان العرب ٣/ ٧٤٦.

(٣) صريح السنة للطبري صـ ٢٢.

(٤) المقصد الأسنى صـ ٢١.

وقد أمسك بعض السلف عن هذه المسألة فهذا الإمام إبراهيم الحربي (ت ٢٨٥ هـ) وكان من أخص الناس بالإمام أحمد – رحمه الله– روى عنه الذهبي بسنده إلى إبراهيم الحربي قال ولم يكن في وقته مثله يقول وقد سئل عن الاسم والمسمى، لي مذ أجالس أهل العلم سبعون سنة ما سمعت أحداً منهم تكلم في الاسم والمسمى. (١)

وفي موضع آخر، أن أبا طاهر المخلص قال سمعت أبي سمعت إبراهيم الحربي وقد وعدنا أن يملي علينا مسألة في الاسم والمسمى وكان يجتمع في محله ثلاثون ألف محبرة وكان إبراهيم مقلاً وكانت له غرفة يصعد فيشرف منها على الناس فيها كوة إلى الشارع فلما اجتمع الناس أشرف عليهم فقال لهم، قد كنت وعدتكم أن أملي عليكم في الاسم والمسمى ثم نظرت فإذا لم يتقدمني في الكلام فيها إمام نقتدي به فرأيت الكلام فيه بدعة فقام الناس وانصرفوا، وحين سأله أحدهم عن هذه المسألة قال، ألم تحضر مجلسنا بالأمس، قال، بلى، قال، أتعرف العلم كله، قال، لا، قال، فاجعل هذا مما لم تعرف. (٢)

وسبب هذه المسألة مقولة الجهمية والمعتزلة في أن أسماء الله مخلوقة فيقولون الاسم غير المسمى أو أسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق. وهؤلاء هم الذين أنكر عليهم الأئمة.

أما ما حدث بعدهم هل هو هو أو هو غيره أو لا يقال هو هو ولا هو غيره أو يفصل في ذلك فهذا اشتهر بعد الأئمة بعد أحمد وغيره كما يذكر ذلك ابن تيمية. (٣)

وتوضيح هذا الأمر كما يلي،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦١.

(٣) الفتاوى ٦/ ١٨٧، ٨٨

ذهبت الجهمية والمعتزلة إلى أن الاسم غير المسمى وأن أسماء الله تعالى مستعارة مخلوقة من وضع البشر وهي ليست توقيفية، قال القاضي عبد الجبار، "اعلم أن جميع ما ذكرناه في الدلالة على حسن إجراء الاسم على المسميات من غير إذن يدل على حسن إجرائها على القديم تعالى ذكره من غير إذن" وقال، "إن استعمال الأسماء والأوصاف يحسن من جهة اللغة وإن لم يرد بها التوقيف، وإذا صح ذلك صارت اللغة هي الأصل فيه. (١)

وسلفه في ذلك بشر المريسي إذ قال " إن أسماء الله غير الله، مستعارة، مخلوقة، كما أنه قد يكون شخص بلا اسم فتسميته لا تزيد في الشخص ولا تنقص (٢)، وعلَّة الجهمية ومن وافقهم هنا اتفاقهم على استحالة إثبات اسم لله تعالى بدون ألا يكون له صفة في الأزل. والصفات غير الموصوف، فلو كان متصفاً بصفات أزلاً للزم تعدد القدماء ومن هنا قالوا هي مستعارة مخلوقة وأنها لم تزده شيئاً كما إن الاسم لا يزيد مسماه ولا ينقص منه.

وقد ناقش أئمة السلف رحمهم الله هذه الدعاوى. واشتد إنكارهم على من ادعى أن أسماء الله مخلوقة قال الإمام الشافعي – رحمه الله–، إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة. (٣)

وقال الأصمعي إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى فاحكم أو قال فاشهد عليه بالزندقة لفظهما سواء. (٤)

---

(١) المغني للقاضي عبد الجبار ٥/ ١٧٩.

(٢) الرد على المريسي للدارمي صـ ٣٦٣.

(٣) شرح السنة للالكائي ٢/ ٢٣٦.

(٤) شرح السنة للالكائي ٢/ ٢٣٧.

وقال إبراهيم بن هاني سمعت أحمد بن حنبل وهو مختفٍ عندي، فسألته عن القرآن، فقال، من زعم أن أسماء الله مخلوقة فهذا كافر. (١)

ومثله عن الإمام إسحاق بن راهويه (٢) قال، أفضوا إلى أن قالوا، أسماء الله مخلوقة لأنه كان ولا اسم وهذا الكفر المحض لأن لله الأسماء الحسنى فمن فرق بين الله وبين أسمائه أو بين علمه ومشيئته فجعل ذلك مخلوقاً كله والله خالقها فقد كفر. (٣) وقال أبو الحسن الأشعري –رحمه الله–، " من زعم أن أسماء الله غيره فهذا ضال" (٤)، وقال أبو داود صاحب السنن ‘‘من زعم الاسم غير المسمى، فقد زعم أن الله غير الله وأبطل في ذلك". (٥) وقد توسع في الرد عليهم عقلياً الإمام الدارمي (٦) – رحمه الله– في رده على بشر المريسي العنيد. ومثله الإمام اللالكائي (٧) في شرحه لأصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ألزموهم بعدة لوازم باطلة، إذا كان الاسم غير المسمى منها،

١ – إن من أعظم الشرك أن يقال اعبدوا الله اسماً مخلوقاً في قوله تعالى، ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ النساء ٣٦. فتكون العبادة للاسم.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٤٠.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، عالم خراسان في عصره، أخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي، قال الخطيب: إجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد (ت ٢٣٨ هـ) الأعلام (١/ ٢٩٢).

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٤٠.

(٤) الإبانة للأشعري ٢/ ٢٤٠.

(٥) شرح السنة للالكائي ٢/ ٢٤١.

(٦) عثمان بن سعيد الدارمي، محدث هراة، له باع في الرد على الجهمية (ت ٢٨٠ هـ) الأعلام (٤/ ٢٠٥).

(٧) هبة الله بن الحسن بن منصور من فقهاء الشافعية له عناية بتدوي أصول السنة (ت ٤١٨ هـ) الأعلام (٨/ ٧١).

٢ – إن الآيات كثيرة بالأمر بذكر الله على الذبائح وغيرها ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الأنعام ١١٨، وعلى قولهم لو ذكر اسم زيداً وعمرو أو اللات أو العزى فإنه يجزيه لأن هذه الأسماء مخلوقة كما إن أسماء الله عندهم مخلوقة.

٣ – يلزم على قولهم أن يقول المؤذن أشهد أن الذي اسمه الله لا إله إلا هو أشهد أن الذي اسمه محمد رسول الله.

٤ – ويلزم أن الناس يحلفون بغير الله فيحلفون باسمه المخلوق على زعمهم أن الاسم غير المسمى. (١)

والحاصل أن السلف – رحمهم الله – شق عليهم الكلام فيه. فمما روي عن أحمد أنه كان يشق عليه الكلام في الاسم والمسمى، أو يقول هذا كلام محدث ولا يقول أن الاسم غير المسمى، ولا هو هو ولكن يقول، إن الاسم للمسمى إتباعاً لقوله تعالى، ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف ٧، ولأنها عنده أعلام على المسميات، فلذلك قال هي له. (٢)

ونقل عنه في موضع آخر، أنه عظم عليه الكلام في الاسم والمسمى وتكلم أصحابه في ذلك فمنهم من قال، الاسم للمسمى أو منهم من قال، الاسم هو المسمى، والذين طلبوا السلامة أمسكوا وقالوا لا نعلم. (٣)

فالخلاف في هذه المسألة بينهم على أقوال منها،

---

(١) بتصرف من شرح السنة للالكائي ٢/ ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) طبقات الحنابلة ٢/ ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٩٩.

١ – الإمساك عن هذا القول نفياً وإثباتاً كما هو الحال في المروي عن الشافعي وإبراهيم الحربي.

٢ – أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبي قاسم الطبري، ومعمر بن المثنى (١) وابن فورك والبغوي واللالكائي والحارث المحاسبي (٢)، ومرادهم أن اللفظ هو التسمية والاسم ليس هو اللفظ بل هو المراد باللفظ.

٣ – أن الاسم للمسمى وهو قول أكثر أهل السنة في مقدمتهم الإمام أحمد والإمام الطبري وغيرهم، وهو الذي رجحه شيخ الإسلام وساق أدلتهم. وهذا القول لا يخالف الكتاب والسنة، ويدل عليه قوله تعالى، ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ الأعراف ١٨٠. ومن السنة " أن لله تسعة وتسعين اسماً"، وقوله، " أن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي وأنا الحاشر". (٣)

فهذه النصوص تدل على أن الاسم للمسمى ويدل عليه. وهذا القول موافق لمنهج أهل السنة والجماعة في عدم إطلاق الألفاظ التي لم ترد في الكتاب والسنة التي هي محتملة لمعنيين صحيح وباطل. فإذا سئل أهل هذا القول عن الاسم أهو المسمى أم غيره، أجابوا بجوابين، الأول، أن هذه المسألة حادثة لم ترد في الكتاب والسنة، ولم ترد عن السلف الصالح.

الثاني، أن هذا السؤال فيه إجمال فلا يجاب بإطلاق إنما يفصل في ذلك، ويقال، "الاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى. فإذا قلت، قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه. وإذا قلت الله، اسم عربي، والرحمن اسم عربي،

---

(١) معمر بن المثنى التيمي بالولاء أبوعبيدة النحوي من أئمة العلم بالأدب واللغة (ت ٢٠٩ هـ) الأعلام (٧/ ٢٧٢).

(٢) أسماء الله الحسنى، عبد الله الغصن ص ٣١.

(٣) رواه البخاري ح (٤٥١٧).

والرحمن من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم هنا للمسمى ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال. فإذا أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله. (١)

والبخاري –رحمه الله– في صحيحه سار على منهج السلف الصالح من أن النصوص الدالة على أن الاسم للمسمى من غير أن يدخل في تفصيل ذلك، فبوب بقوله باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، وأورد فيه حديث الذكر عند النوم "بسمك ربي وضعت جنبي" وحديث ذكر الله على ما أرسلت إليه كلبك المعلّم، وحديث النهي عن الحلف إلا بالله.

والبخاري –رحمه الله– ساق بعض النصوص، واختلف الشراح في بيان قصده –
رحمه الله– على عدة آراء،

١ – أنه لم يدخل أصلاً في موضوع الاسم والمسمى لأنه كان يرى رأي القائلين بعدم الخوض كمعاصره الإمام الحربي (٢) وأن الترجمة لبيان كيفية دعاء الله باسماءه.

٢ – أن الاسم للمسمى وهو ما انتهى إليه تقرير شيخ الإسلام. (٣)

٣ – أن مقصوده تصحيح القول، بأن الاسم هو المسمى كما نقله الحافظ عن ابن بطال (٤). (٥)

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز صـ ١٠٢.

(٢) شرح كتاب التوحيد د. عبد الله الغنيمان ١/ ٢٢٣.

(٣) الفتاوى ٦/ ١٨٥

(٤) علي بن خلف بن عبدالملك من أهل قرطبة، له شرح البخاري (ت ٤٤٩ هـ) الأعلام (٤/ ٢٨٥).

(٥) فتح الباري ١٣/ ٣٩١.

والذي يظهر والله أعلم، أن البخاري عاش هذه الفتنة وعاصر الخلاف فيها ومراده في الكتاب الرد على الجهمية والمعتزلة. وهم القائلون بأن الاسم غير المسمى، كما فصل ذلك الإمام الدارمي في رده على بشر المريسي. (١)

وأبواب الكتاب تؤيد أنه يتعرض لغالب ما ظهر من بدع الجهمية والمعتزلة في وقته، والأدلة التي ساقها هي الأدلة التي يوردها أهل السنة في أن الاسم للمسمى. ومن ثم يفصلون في ذلك كما فصل هذه المسألة شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى– في رسالة كاملة. (٢) ويظهر لي أن هذا مراده – رحمه الله– خاصة أنه حين قرر الاستعاذة بالاسم فمعنى هذا صحتها كما صحت الاستعاذة بالذات وهذا هو المروي عن الشافعي.

وأتبعه أيضاً بعدم الحلف إلا بالله تأكيداً لهذه المسألة وأن الاسم للمسمّى والله أعلم.

---

(١) الرد على المريسي صـ ٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) الفتاوى وقد افرد رسالة كاملة للاسم والمسمى ٦/ ١٨٥ – ٢١٣.

المبحث الثالث: عدّ الأسماء الحسنى وإحصاؤها

بوب البخاري – رحمه الله تعالى– بقوله، باب (إن لله مائة اسم إلا واحداً)، ثم أورد حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– قال، قال عليه الصلاة والسلام، أن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة.

وهنا اختلفت عبارات العلماء وآراهم في عد الأسماء الحسنى وفي إحصاءها، أما عن عددها فالجمهور على أنها أكثر من ذلك كما حكاه الإمام النووي – رحمه الله تعالى– وقال، ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث، أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصاءها لا الإخبار بحصر الأسماء. (١)

وقال الخطابي – رحمه الله–، إنما هو بمنزلة قولك أن لزيد ألف درهم أعدها للصدقة، وكقولك، أن لعمرو مائة ثوب من زاره خلعها عليه، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم ولا من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالته أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم، وأن الذي أعده عمرو من الثياب للخلع مائة ثوب. (٢)

قال شيخ الإسلام – رحمه الله–، وهو الذي عليه جمهور العلماء. (٣) ويستدل لذلك بحديث ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– فيمن أصابه هم وحزن، أن يقول، [سورة اللهم أنّي

---

(١) الأذكار صـ ٥٥. شرح مسلم ١٧/ ٥.

(٢) شأن الدعاء صـ ٢٤.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٣٢ – ٣٣٣.

عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضائك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي. إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً. (١) فمن يعلم الأسماء التي استأثر الله بها في علم الغيب عنده، فهذا جازم بأنها غير محصورة، وكذلك يقال أنه لم يثبت حديث صحيح صريح في تعيين هذه الأسماء التسعة والتسعين، والروايات التي تحددها هذه الأسماء قد تكلم فيها العلماء بتضعيف طرقها، وأن الراجح أن سرد الأسماء مدرج من بعض الرواة اجتهاداً، ويتضح ذلك بعد دراسة الروايات، والطرق التي سردت الأسماء الحسنى، وسأوجز نتيجة بعض الدراسات التي قام بها بعض الباحثين. (٢) فأصل الحديث في الصحيحين دون سرد الأسماء، وإما سرد الأسماء المشهور فله عدة طرق، الأولى، من طريق الوليد بن مسلم، – رواه عنه الترمذي (٣٥٧٤) وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم (١/ ١٦)، والبيهقي في السنن والأسماء والصفات (صـ ١٥٥)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٣٠٣٢)، جميعهم من هذا الطريق. (٣) الثانية، من طريق عبد الملك بن محمد الصنعاني، رواه ابن ماجة (٣٨٦١) مع اختلاف في سرد الأسماء ونقص وتقديم وتأخير. (٤) الثالثة، من طريق عبد العزيز بن الحصين. (٥) والأسانيد الثلاثة تكلم عنها منفردة ومجموعة علماء الحديث ونقدوها سنداً ومتناً. قال الحافظ – رحمه الله –، " واختلف العلماء في سرد الأسماء، هل هو مرفوع أم مدرج في الخبر من بعض الرواة؟ فمشى كثير منهم على الأول واستدلوا به على جواز تسمية الله تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الاسم، لأن كثير من هذه الأسماء كذلك، وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات عنه، ونقله عبد العزيز النخشبي (٦) عن كثير من العلماء (٧) ". ثم توسع رحمه الله في الرد على أصح الروايات في الباب، وهي رواية الوليد بن مسلم، وقال، " وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب وتدليسه، واحتمال الإدراج (٨) ".

---

(١) أحمد في المسند ١/ ٣٩١، ابن حبان ٢٣٧٢ والصحيحة للألباني ١/ ٣٣٦ حديث ١٩٩.

(٢) النهج الأسمى – محمد الحمود ١/ ٥٠ – ٥٤، أسماء الله الحسنى – عبد الله الغصن ١٥٥ – ١٧٣.

(٣) الوليد بن مسلم القرشي، مولى بني أمية أبو العباس الدمشقي، عالم الشام وهو ثقة، ولكنه كان كثير التسوية ت ٩٦ هـ. تهذيب التهذيب ١١/ ١٥١. (٤) أبو الزرقاء، قال عنه ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، وقال ابن حجر: لين الحديث. تهذيب التهذيب ٦/ ٤٢٤، التقريب ١/ ٥٢٢.

(٥) أبو سهل المروزي، قال عنه البخاري: ليس بالقوي عندهم، وقال ابن معين: ضعيف، وقال مسلم: ذاهب الحديث. لسان الميزان ٤/ ٢٩.

(٦) عبدالعزيز بن محمد النخشبي، كان من الحفَّاظ، (ت ٤٥٦ هـ) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٦٧).

(٧) الفتح ١١/ ٢١٥. (٨) الفتح ١١/ ٢١٩.

وقال البيهقي – رحمه الله – (في الأسماء والصفات)، ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم، ولهذا الاحتمال ترك البخاري، ومسلم إخراج حديث الوليد في الصحيح. (١)

وأما من جهة المتن ففيه عدة تحفظات للأئمة على بعض الأسماء التي لا تصلح أن تكون من الأسماء الحسنى لعدم كمالها وحسنها، أو لعدم ورودها بصيغة الاسم. قال ابن عطية الغرناطي –رحمه الله–، " حديث الترمذي ليس بالمتواتر، وفي بعض الأسماء التي فيه شذوذ (٢) ".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله–، " اسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ". (٣)

وهذا بيّن لأن صفة الانتقام لا تحمل معنى الكمال المطلق.

قال ابن حجر – رحمه الله تعالى (٤) –، "والتحقيق إن سردها إدراج من بعض الرواة". وقال الصنعاني – رحمه الله–، " اتفق الحفاظ من أئمة الحديث، إن سردها إدراج من بعض الرواة (٥) ".

وأما ما ورد في الترغيب في إحصاءها وأن ثوابها الجنة، فاختلفت عبارات العلماء –رحمهم الله تعالى– في تحديد معنى الإحصاء على عدة أقوال منها،

---

(١) الأسماء والصفات صـ ١٩.

(٢) تلخيص الحبير ٤/ ١٩٠.

(٣) الفتاوى ٨/ ٩٦.

(٤) بلوغ المرام ٢٥٤.

(٥) سبل السلام ٤/ ١٠٨.

١ – العدّ حتى تستوفى حفظاً ثم يدعى بها، ودليل أصحاب هذا القول الرواية الثانية للبخاري في كتاب الدعوات (من حفظها دخل الجنة) فيستوفيها العبد حفظاً ويدعو بها ويثني عليه بجميعها كقوله تعالى، ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ الجن ٢٨، وعلى هذا القول الإمام الخطابي والنووي. (١)

٢ – المراد بالإحصاء الإطاقة كقوله تعالى، ﴿علم أن لن تحصوه﴾ المزمل ٢٠. أي لن تطيقوه، ولقوله عليه الصلاة والسلام، (استقيموا ولن تحصوا) (٢)، فيكون المعنى أن يطيق الأسماء الحسنى ويحسن المراعاة لها وأن يعمل بمقتضاها، وأن يعتبرها فيلزم نفسه بواجبها، فإذا قال يا رحمن يا رحيم تذكر صفة الرحمن واعتقد أنها من صفات الله سبحانه فيرجو رحمته ولا ييأس من مغفرته. (٣)

٣ – أن يكون الإحصاء بمعنى العقل والمعرفة من قول العرب، فلان ذو حصاة، أي ذو عقل، كقول طرفة،

وأن لسان المرء ما لم تكن له

حصاة على عوراته لدليل (٤)

فالمعنى من عرفها وعقل معانيها وآمن بها دخل الجنة، وعلى هذا ترجم به لهذا الحديث الحافظ محمد بن إسحاق بن منده (٥). (٦)

---

(١) شأن الدعاء صـ ٢٦، الأذكار صـ ٩٤.

(٢) رواه أحمد ٥/ ٧٧٦، ابن ماجة ٢٧٧، وغيره قال الأرناؤوط صحيح لطرقه. جامع الأصول ٩/ ٣٩٢.

(٣) شأن الدعاء صـ ٢٧ – ٢٨. الفتح ١١/ ٢٢٥.

(٤) ديوان طرفة بن العبد صـ ١١٢.

(٥) أبوعبدالله العبدي من كبار حفاظ الحديث الراحلين في طلبه المكثرين من التصنيف فيه، (ت ٣٩٥ هـ) الأعلام (٦/ ٢٩).

(٦) كتاب التوحيد لابن منده ٢/ ١٤.

٤ – المراد بالإحصاء قراءة القرآن كاملاً، فإذا ختمه كان كمن أحصى الأسماء في أثناء الآيات أو فكأنه قال، من حفظ القرآن، قراءة فقد استحق دخول الجنة. (١)

٥ – قال الإمام ابن القيم – رحمه الله– مبيناً معنى الإحصاء وأنه شامل لثلاثة أمور،

الأول: إحصاء ألفاظها وعدها أو الإحاطة بها لفظاً.

الثاني: فهم معانيها ومدلولها.

الثالث: دعاء الله سبحانه وتعالى بها والتعبد بمقتضاها. (٢)

وقال ابن بطال رحمه الله، " والإحصاء يقع بالقول وبالعمل، فالذي بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والقدير، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الإقتداء بها في معانيها كالكريم والعفو فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها، فبهذا يحصل الإحصاء العملي، وأمّا الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها ولو شارك المؤمن غيره في العدد والحفظ فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها. (٣)

والإمام البخاري – رحمه الله– بوب بقوله، " باب (إن لله مائة اسم إلا واحدة) ثم أورد الحديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة)، ثم أورد الآية (أحصيناه) يس ١٢، وقال إن معناها حفظناه ".

---

(١) شأن الدعاء صـ ٢٩، تفسير الأسماء الحسنى للزجاج صـ ٢٢ – ٢٤.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٦٤.

(٣) الفتح ١٣/ ٣٩٠.

والشراح للبخاري يرون في الغالب أنه يرى أن إحصاءها حفظ ألفاظها. وهذا هو المتبادر وحجتهم رواية البخاري الأخرى في كتاب الدعوات وفيها [لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة]. (١)

ولكن هناك رأي معاصر للدكتور عبد الله الغنيمان الذي قال: إن عادة البخاري -رحمه الله- التي سار عليها في كتابه أنه إذا جاء لفظ في الحديث، وفي القرآن لفظ يوافقه في اللفظ والاشتقاق أنه يذكره، وإن كان لا يوافقه في المعنى، وأمثلة ذلك كثيرة، كما قال.

وعلل أن قوله: (أحصيناه) حفظناه، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ يس ١٢، وقد فسره البخاري -رحمه الله - في كتاب التفسير عند سورة (يس) بنفس التفسير. (٢)

ثم ذكر التعليل لذلك من قول الأصيلي (٣) - رحمه الله- إن الحفظ قد يقع للكافر والمنافق كما في حديث الخوارج " يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم". (٤)

فبان أن البخاري يرى حفظها ولم يصرح بغيره إلاّ ما علّله الدكتور الغنيمان والجمهور على أن الإحصاء هو الإحاطة والفهم والدعاء بها وهو الذي يوافق الأدلة والله أعلم.

المبحث الرابع: الأسماء التي ذكرها البخاري - رحمه الله-:

أورد البخاري - رحمه الله- بعض الأسماء الحسنى على سبيل الذكر تارة، وعلى سبيل بيان عدم مطابقتها ومشابهتها لأسماء المخلوقين، ويتضح ذلك من الأحاديث التي يوردها تحت الباب:

ومن الأسماء التي ذكرها:

١: الله جل جلاله

فبوب رحمه الله بقوله: قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ الإسراء ١١٠، والاسم (الله) الذي ورد كثيرا في القرآن مأخوذ من إله وتقديرها " فُعلانية" بالضم، فتقول: إله بين الالهية والأُلهانية، وأصله من يأله إذا تحير، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله جل جلاله، وغير ذلك من صفات الربوبية، وصرف همه إليها. أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد. (٥)

واختلف العلماء في اسم الله هل هو مشتق أم جامد؟ وقد ناقش الإمام ابن القيم الذين يرون عدم اشتقاقه، وذكر أن حجتهم أن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق.

---

(١) صحيح البخاري. الدعوات باب ٦٨. (٢) الفتح ٤/ ١٨٠٦.

(٣) عبد الله بن إبراهيم الأموي الأصيلي، عالم بالحديث والفقه له باع في الخلافيات، (ت ٣٩٢ هـ) الأعلام (٤/ ٦٣). (٤) شرح كتاب التوحيد الغنيمان ١/ ٢٢١. (٥) النهاية لابن الأثير ١/ ٦٢.

ورد ابن القيم أن القائلين بالاشتقاق ليس هذا مقصودهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير وغيرها، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة والقديم لا مادة له. (١)

وقال: القول الصحيح أن الله أصله من الإله كما قال سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ (٢)، وهو علم على الله تبارك وتعالى لا يسمى به غيره.

ورحم الله سيبويه حين سئل عنه، فقال: الله: أعرف المعارف.

٢: الرحمن

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم نحوا من (٧٥) مرة.

والرحمة هي الرقة والتعطف، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وإن كانا مشتقين من الرحمة؛ لأن بناء فعلان أشد مبالغة من فعيل ونظيرهما نديم وندمان، وقوله الرحمن يجمع كل معاني الرحمة من الرأفة والشفقة والحنان واللطف والعطف. (٣)

ويروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ مريم ٦٥، قال ليس أحدٌ يسمى الرحمن غيره. (٤)

وقال - صلى الله عليه وسلم -: قال الله عز وجل: " أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي (٥) ".

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٧، التوحيد لابن منده ٢/ ٤٧.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ١٠٦.

(٥) الإمام أحمد ١/ ١٩١ من حديث عبد الرحمن بن عوف، أبو داود ١٦٩٥ وهو صحيح بطرقه.

وهناك من أدعى عدم معرفة العرب لهذا الاسم واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ الفرقان ٦٠، واستدل أيضاً بإنكار قريش عند توقيع معاهدة الحديبية لما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعلي –رضي الله عنه–: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فو الله، ما أدري ما هي، ولكن اكتب بسمك اللهم كما كنت تكتب. (١)

ويرد عليهم كما قال ابن جرير –رحمه الله–: " وقد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن (٢) ".

وبين أن ذلك جحوداً منهم بدليل قوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ الزخرف ٢٠، وبأشعار العرب كقول سلامة بن جندل الطهوي (٣):

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشاء الرحمن يعقد ويطلق

وهذا الاسم من الأسماء الخاصة بالله غير المشتركة مع خلقه، كما قال ابن كثير – رحمه الله تعالى.

والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها مالا يسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك. (٤)

---

(١) البخاري ح ٢٧٣١.

(٢) تفسير ابن جرير ١/ ٤٤.

(٣) سلامة بن جندل ت ٢٣ ق. هـ، شاعر جاهلي من أهل الحجاز، له ديوان مطبوع رواه الأصمعي – الأعلام ٣/ ١٠٦.

(٤) ابن كثير ١/ ٢١.

٣: (الرزاق)

ورد اسم الرزاق في آية واحدة وهي التي بوب بها البخاري -رحمه الله- بقوله: باب "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين"؛ وورد بصيغة الجمع خمس مرات منها قوله تعالى: ﴿والله خير الرازقين﴾ الجمعة ١١.

والرزق ما ينتفع به، يقال رزق الخلق رَزقاً ورِزقاً، فالرزق بفتح الراء هو المصدر الحقيقي، والرزق بكسرها الاسم، ويجوز أن يوضع موضع المصدر، والجمع أرزاق، والرزاق من أبنية المبالغة (١)، وفي معناه قال ابن جرير -رحمه الله-: الرزاقُ خلقَه المتكفل بأقواتهم.

وقال الخطابي: هو المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته، فلم يختص بذلك مؤمناً دون كافر، ولا ولياً دون عدو يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيل له، ولا متكسب فيه، كما يسوقه إلى الجلد القوي ذي المرة السوي، قال سبحانه: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم﴾ العنكبوت ٦٠، وقال جل شأنه: ﴿وما من دآبة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ (٢) هود ٦.

---

(١) لسان العرب ٣/ ١٦٣٦.

(٢) شأن الدعاء صـ ٥٤.

وقال السعدي -رحمه الله تعالى-: (الرزاق) لجميع عباده فما من دآبة إلاّ على الله زرقها، ورزقه لعباده نوعان:

١ - رزق عام شمل البر، والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

٢ - الرزق الحلال: وهو رزق القلوب وتغذيتها بالعلم والإيمان والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته. (١)

وقد أنكر الله تعالى على المشركين عبادتهم للأوثان والأصنام مع إنها لا تملك لهم رزقاً فقال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ النحل ٧٣، ومثله قوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركاءكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ الروم ٤٠، أي لا يقدر شركاؤكم على شيء من ذلك، بل لو أمسك الله سبحانه الرزق عن الناس، فلا يملك أحدٌ أن يفتحه عليهم من دون الله، كقوله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ (٢) الملك ٢١، ورزقه تبارك وتعالى بلا مشقة ولا كلفة ولا تخصيص لأحد دون أحد، بل ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ الشورى ١٩، ومنه حديث الباب عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ما أحد أصبر على أذىً سمعه من الله يدّعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم) ومعناه أن الله واسع الحلم حتى مع الكافر الذي ينسب له الولد فهو يعافيه ويرزقه.

---

(١) تفسير السعدي ٥/ ٣٠٢.

(٢) انظر نحوه في تفسير الطبري ٢٩/ ٦.

وهنا تنبيه: أن كثرة الرزق لا تدل على محبة الله للعبد وهذا الظن هو الذي اعتقده الكفار ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَبين قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ سبأ ٣٥ – ٣٧، وهذا من الاستدراج ﴿أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ المؤمنون ٥٥ – ٥٦.

ولا يعارض هذا أن التقوى وطاعة الله سبب عظيم للرزق والبركة ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ الأعراف ٩٦، وقال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ الطلاق ٢ – ٣، وقال ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ إبراهيم ٧.

بقي أن نقول أن أعظم رزق يرزقه الله لعباده هو الجنة، قال تعالى: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسنا وإن الله لهو خير الرازقين﴾ الحج ٥٨، وقال ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ الطلاق ١١، فهذا الرزق الذي لا ينقطع وليس بدٌ منه ولا استدراج ولا نهاية ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ ص ٥٤، جعلنا الله ممن كتب له هذا الرزق.

٤ – السلام

ورد هذا الاسم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿الملك القدوس السلام المؤمن﴾ الحشر ٢٣.

والسلام والسلامة البراءة، وتسلم منه تبرأ منه، والسلامة العافية. يقال سلم يسلم سلامة، ومنه قيل للجنة دار السلام؛ لأنها دار السلامة من الآفات، ومنه قوله: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ طه ٤٧، أي من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه. (١)

وقال ابو حاتم الرازي (٢): فالله عز وجل وضع هذا الاسم يريد السلام بين عباده ليكون أماناً لهم فيما بينهم، فإذا سلّم أحدهم على الآخر، فقد أعطاه الأمان، كأنه يقول قد سلمت من قبلي. (٣)

وقال ابن كثير –رحمه الله–: " السلام أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله (٤) ".

وقال الإمام ابن مندة (٥) –رحمه الله–: [سورة ومعنى السلام أن ذات الله عز وجل خلصت بانفراد الوحدانية عن كل شي، وبانت عن كل شيء، وأخلصت به القلوب إلى توحيد الله وسلمت، قال تعالى، ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (٦) الشعراء ٨٩.

---

(١) لسان العرب ٣/ ٢٠٧٨، والنهاية ٢/ ٣٩٢، شرح الأسماء الحسنى للزجاج صـ ٣٠.

(٢) محمد بن إدريس الرازي من أقران البخاري ومسلم له تفسير مشهور، (ت ٢٧٧ هـ) الأعلام (٦/ ٢٧).

(٣) أصول الكلمات صـ ٢٩٣ د. محمد يعقوب تركستاني.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٣.

(٥) محمد بن إسحاق بن مندة من كبار حفاظ الحديث المكثرين من التصنيف، (ت ٣٩٥ هـ) الأعلام (٦/ ٢٩).

(٦) التوحيد ٢/ ٦٨.

والله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام، فيسلم على عباده ﴿سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾ يس ٥٨، ويستقبل عباده بدار السلام، ويدعو إليها ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ يونس ٢٥، وقد صرح النبي – صلى الله عليه وسلم – في تسمية الله بالسلام، وبوب به البخاري –رحمه الله– في كتاب الاستئذان [باب (السلام اسم من أسماء الله تعالى)].

وهذا جزء من حديث رواه البخاري في الأدب المفرد فقال: "إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله في الأرض فأفشوا السلام بينكم". (١)

وأورد البخاري حديث "كنّا نصلي خلف النبي – صلى الله عليه وسلم – فنقول السلام على الله" فأرشدهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المشروع في السلام.

وحديث الباب نهيٌ عن إلقاء السلام على الله؛ لأنه هو السلام، وأرشدهم عليه الصلاة والسلام لقول التحيات لله والصلوات والطيبات) الحديث.

قال الخطابي: المراد أن الله هو ذو السلام فلا تقولوا السلام على الله فإن السلام منه بدأ وإليه يعود، وهنا نشير إلى فقه أم المؤمنين خديجة –عليها رضوان الله– ففي حديث أنس قال: قال: جبريل للنبي – صلى الله عليه وسلم –: إن الله يقرييء خديجة السلام، يعني فأخبرها. فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته. (٢)

ففهمت أن الله لا يرد عليه السلام مثل المخلوقين؛ لأن السلام اسم من أسماء الله. ويرى الحافظ –رحمه الله– أن إيراد البخاري لهذا الاسم الإشارة إلى ذكر الأسماء التي تسمى الله

---

(١) الأدب المفرد صـ ٤٣٧ وحسنه ابن حجر.

(٢) النسائي في فضائل الصحابة ح ٢٥٤ وإسناده حسن.

بها وأطلقت مع ذلك على المخلوقين (١) ففي الحديث "السلام عليك أيها النبي" وتحية المؤمنين يوم يلقونه "سلام".

---

(١) الفتح ١٣/ ٣٧٨.

٥ – المؤمن

قال الزجاج: أصل الإيمان التصديق والثقة: وقال الله عز وجل: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ يوسف ١٧، أي لفرط محبتك ليوسف لا تصدقنا. فهذا بمعنى التصديق، والمعنى الآخر هو الأمان الذي ضده الإخافة قال تعالى: ﴿وآمنهم من خوف﴾ (١) قريش ٤، وقد وردت في آية واحدة ﴿السلام المؤمن المهيمن﴾ الحشر ٢٣. قال ابن جرير: المؤمن الذي يؤمن خلقه من ظلمه، ويروى عن ابن عباس –رضي الله عنه– المؤمن الذي أمن خلقه أن يظلمهم (٢) وقال الغزالي: المؤمن، الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه وسده طرق المخاوف ولا يتصور أمن وأمان إلا في محل الخوف والمؤمن المطلق: هو الذي لا يتصور أمن وأمان إلاّ ويكون مستفاداً من جهته، وهو الله سبحانه وتعالى. (٣)

وقال السعدي (٤) – رحمه الله– المؤمن الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال وبكمال الجلال والجمال الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، ويدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به. (٥)

ويقال أيضاً ما قيل في السلام من أنه سمى نفسه وسمى بعض خلقه فلا منافاة، فالمؤمن من اتصف بالإيمان فلا حرج في تسمي غير الله بهذا الاسم.

---

(١) شرح الأسماء الحسنى – للزجاج صـ ٣١

(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ٣٦.

(٣) المقصد الأسنى ص ٧٠.

(٤) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مفسر من علماء الحنابلة، مولده ووفاته في القصيم، له [التفسير المشهور: تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن] (ت ١٣٧٦ هـ) الأعلام (٣/ ٣٤٠).

(٥) تفسير السعدي ٥/ ٣٠١. وانظر التوحيد لابن منده ٢/ ٦٨.

٦ – الملك

بوب له البخاري بقوله تعالى: ﴿ملك الناس﴾ الناس ٢، وأورد فيه حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–: " يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك اين ملوك الأرض".

وقد ورد في القرآن خمس مرات منها ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ طه ١١٤، وقد ورد باسم (المالك) كقوله ﴿مالك يوم الدين﴾، ومرة باسم المليك ﴿عند مليك مقتدر﴾ القمر ٥٥، والملك هو المتصرف بالأشياء حسب إرادته ومشيئته، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، قال الطبري –رحمه الله– أخبر أنه ملك الناس وهو ملك جميع الخلق انسهم وجنهم وغير ذلك، إعلاماً منه بذلك من كان يعظم بعض الناس تعظيم المؤمنين ربهم: أنه مُلك من يعظمه وأن ذلك في ملكه وسلطانه، تجري عليه قدرته، وأنه أولى بالتعظيم وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ويتعبد له من غيره من الناس. (١) وقال الراغب: الملك هو المتصرف بالأمر والنهي. (٢) قال الزجاج: قال أصحاب المعاني: الملك النافذ الأمر في ملكه، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه، فالملك أعم من المالك، والله تعالى مالك المالكين كلهم، والملاّك إنما استندوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى. (٣) وقال: أما الناس فقد تملك مع العجز عن التصرف، كأن يكون المالك صبياً أو مجنوناً ووليهما لا ملك له مع أن التصرف ثابت له. (٤)

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٥٤.

(٢) مفردات الراغب صـ ٤٧٢.

(٣) شرح الاسماء الحسنى – الزجاج ص ٣.

(٤) المصدر السابق.

فإذا كان الملك المطلق إنما هو لله وحده لا شريك له فالطاعة المطلقة إنما هي له وحده لا شريك له، فملك الملوك هو الله، ولذلك ورد النهي عن التسمّي ذلك بقوله – صلى الله عليه وسلم –: "إن اخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك". (١)

والتوفيق بين الترجمة وحديث الباب ظاهر وهو أن الناس الذين يوجد منهم الملوك والجبابرة، والذين يذل لهم ويخضع لهم بعض العباد قد يصرفون لهم ما هو خالص حق الله من العبادة هؤلاء ملك له تحت قهره، آخذ بنواصيهم، ويظهر ذلك جلياً بقبض الأرض. يقول: (أنا الملك أين ملوك الأرض)، فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذي أورثهم الذل والصغار. (٢)

---

(١) البخاري ح (٥٨٥٣).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان بتصرف ١/ ١٤٣ – ١٤٤.

٧ – العزيز

ورد هذا الاسم في القرآن اثنتان وتسعون مرة.

والعز في اللغة: القوة والشدة والغلبة، فرجل عزيز: منيع لا يغلب ولا يقهر، وعزني فلان على الأمر، أي غلبني ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ سورة ص ٢٣، وعز يعز فهو عزيز، قل حتى ما كاد يوجد فأصبح نادراً. (١) قال قتادة العزيز، أي في نقمته إذا انتقم. (٢) قال السعدي –رحمه الله– العزيز الذي له العزة كلها، عزة القوة والغلبة والامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات. وقهر جميع الموجودات واتت له الخليقة وخضعت لعظمته. (٣)

وعلى هذا يكون معنى الاسم على أربعة أوجه:

١ – العزيز هو: المنيع الذي لا يرام جانبه.

٢ – العزيز هو: القاهرة الذي لا يغلب ولا يقهر.

٣ – العزيز هو: القوي الشديد.

٤ – العزيز بمعنى: نفاسة القدر وأنه سبحانه لا يعادله شيء ولا مثيل ولا نظير.

---

(١) النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ٣٦.

(٣) تفسير السعدي ٥/ ٣٠٠ – ٣٠١.

وهذا الذي نظمه ابن القيم –رحمه الله– بقوله في الكافية الشافية:

وهو العزيز فلن يرام جنابه أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم يغلبه شيءهذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثلاث معان

وهي التي كملت له سبحانه من كل وجه عادم النقصان (١)

---

(١) الكافية الشافية ٢/ ٢١٨.

المبحث الخامس: اطلاق بعض النعوت على الله

المطلب الأول: إطلاق الذات على الله

بوب البخاري -رحمه الله- للنعوت التي يجوز إطلاقها على الله عز وجل، فقال: باب [ما يذكر في الذات والنعوت واسامي الله].

واستشهد بقول الصحابي الجليل خبيب بن عدي (١) -رضي الله عنه- حين عرض على القتل، فقال: "وذلك في ذات الإله"، قال البخاري: فذكر الذات باسمه تعالى.

قال الحافظ -رحمه الله- واستعمال البخاري لها دال على أن المراد بها نفس الشيء على طريقة المتكلمين في حق الله تعالى ففرق بين النعوت والذات. (٢)

وقد سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الأبيات، ولم يرد إنكاره لها فدل على جواز ذلك، وفي أثر لابن عباس وابن عمر -رضي الله عنهم- وربما رفعاه قالا: "تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله". (٣)

وقال حذيفة بن اليمان لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما إن جمعت في الله وقسمته في ذات الله فأنت أنت وإلا فلا. (٤)

وذكر هذا الإمام ابن مندة فقال: إن ذات الله عز وجل موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) (٥)، وهو موجود بحقائق الإيمان على الإتقان بلا إحاطة إدراك بها بل هو أعلم

---

(١) وذلك في قصة غزوة الرجيع رواها البخاري وغيره ح (٣٩٨٩).

(٢) الفتح ١٣/ ٣٨٢.

(٣) رواه البيهقي في الأسماء والصفات صـ ٢٤٠، والألباني في الصحيحة ٤/ ٣٩٥ وقال حسن بمجموع طرقه.

(٤) رواه ابن مندة في التوحيد ٣/ ٣٢.

(٥) رواه مسلم ح (٢٠٤٤).

بذاته، فهو موصوف غير مجهول، وموجود غير مدرك، ومرئي غير محاط به لقربه كأنك تراه، وقريب غير ملازق، وبعيد غير منقطع، يسمع ويرى وهو العلي الأعلى، وعلى العرش استوى تبارك وتعالى، ظاهر في ملكه وقدرته، وقد حجب عن الخلق كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعقول لا تكيفه، وهو بكل شيء محيط، وهو على كل شيء قدير. (١)

وأصل كلمة ذات هي بمعنى صاحبة، وهي تأنيث كلمة "ذو". (٢)

ومن هنا أنكر بعض الأدباء -كما قال النووي - إطلاق ذات على الحقيقة، فهي عندهم بمعنى صاحبة، وقالوا: ليس لها في اللغة مدلول غير ذلك، وأنكر الكندي إطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس. (٣)

وأجاب الحافظ بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبه، أما إذا قطعت عن هذا المعنى واستعملت بمعنى الإسمية فلا محذور لقوله تعالى: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ الأنفال ٤٣، أي بنفس الصدور. (٤)

ولهذا قال البخاري -رحمه الله- (فذكر الذات باسمه تعالى) أي أقام الذات مقام اسمه تعالى. (٥)

قال شيخ الإسلام: " لفظ ذات تأنيث ذو، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافاً إلى غيره منهم يقولون: فلان ذو علم وذو قدرة، ونفس ذات علم وقدره، وحيث جاء في القرآن أو

---

(١) التوحيد لابن مندة ٣/ ٣٤.

(٢) تهذيب الاسماء واللغات للنووي ٢/ ١٦٣.

(٣) الفتح ١٣/ ٣٨٢.

(٤) المصدر السابق ١٣/ ٣٨٢.

(٥) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٢٤٣.

لغة العرب لفظ (ذو)، ولفظ (ذات) لم يجيء إلا مقروناً بالإضافة كقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ الأنفال ١، وقوله: ﴿عليم بذات الصدور﴾ الأنفال ٤٣، وقول خبيب -رضي الله عنه- (وذلك في ذات الإله) ونحو ذلك.

لكن لما صار النظار يتكلمون في هذا الباب قالوا: إنه لا يقال أنها ذات علم وقدرة ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة وعرفوه، فقالوا: الذات، وهو لفظ مولد ليس من لفظ العرب العرباء، ولهذا أنكره طائفة من أهل العلم كأبي الفتح ابن برهان (١)، وابن الدهان (٢) وغيرهما، وقالوا: ليست هذه اللفظة عربية.

ثم حدد -رحمه الله- أنها لفظة مولده كالموجود والماهية والكيفية (٣)، وقال: هذا اللفظ يقتضي وجود صفات تضاف الذات إليها. فيقال ذات علم وذات قدرة وذات كلام فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً. (٤)

وهنا يتبين أن إطلاق الذات على الله ليس كإطلاق الصفات، أي أنه وصف له، وإنما المراد التفرقة بين الصفة والموصوف، وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ إنما يريدون نفس الموصوف وحقيقته، فلا إنكار عليهم في ذلك كما وضحه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

---

(١) أحمد بن علي بن برهان، فقيه بغدادي يضرب به المثل في حل الإشكال (ت ٥١٨ هـ) الأعلام (١/ ١٧٣).

(٢) سعيد بن المبارك الأنصاري، عالم باللغة والأدب له تفسير وعناية بكتب اللغة (ت ٥٦٩ هـ) الأعلام (٣/ ١٠٠).

(٣) الوجود: مبدأ الآثار وهو الذي يمكن أن يخبر عنه. وضده المعدوم

الماهية: ما به الشيء هو هو، فهي حقيقة الشيء وأساسه وجوهره، وهي إما بسيطة أو مركبة.

الكيفية: هيئة قارة في الشيء لا يقتضي قسمةً ولا نسبةً لذاته.

انظر التعريفات للجرجاني (٢٤١، ٢٥٠، ٣٠٥).

(٤) الفتاوى ٦/ ٩٨ - ٩٩.

المطلب الثاني: إطلاق النفس على الله

بوب له البخاري -رحمه الله- بقوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ آل عمران ٣٠، واستدل بآية ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ المائدة ١١٦، والنفس في هذه النصوص يراد بها الله جل جلاله ولا يقصد ذات منفكة عن الصفات.

قال ابن خزيمة -رحمه الله- في أول كتاب التوحيد: فأول ما نبدأ به من صفات الله خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا: ذكر نفسه، جل ربنا عن أن تكون نفسه كنفس خلقه، وعز أن يكون عدماً لا نفس له. قال تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ الأنعام ٥٤. فأعلمنا ربنا أن له نفساً كتب عليها الرحمة. (١)

والآيات والأحاديث في إطلاق النفس على الله تبارك وتعالى كثيرة فمن القرآن:

قوله تعالى: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ طه ٤١، وقوله ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ الأنعام ٥٤، وقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ آل عمران ٣٠، وقوله ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ المائدة ١١٦.

ومن الأحاديث: الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) رواه البخاري. (٢)

---

(١) كتاب التوحيد (١/ ١١).

(٢) رواه البخاري ح (٦٩٧٠).

وحديث مسلم " قال عليه الصلاة والسلام لجويرية -رضي الله عنها-: قد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بهنّ لوزنتهنّ: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ومداد كلماته ورضى نفسه وزنة عرشه (١) ".

وفي حديث البخاري، قال عليه السلام: " لما خلق الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو واضع عنده على العرش (إن رحمتي تغلب غضبي) (٢) ".

وقد أورد البخاري حديثاً في الباب هو: " ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله" فطريق هذا الحديث ليس فيه ذكر النفس، لكنه تقدم في كتاب التفسير من طريق آخر في تفسير سورة الأنعام وفيه: "ولا شيء أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه". (٣)

وقال الحافظ رحمه الله: فذكر النفس ثابت في هذا الحديث وإن كان لم يقع في هذا الطريق، لكنه أشار إليه كعادته، فإنه -رحمه الله- كثيراً ما يترجم ببعض ما ورد في طرق الحديث الذي يورده.

قال ابن خزيمة -رحمه الله- فالله جل وعلا أثبت في آي كتابه أن له نفساً، وكذلك قد بين على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن له نفساً، كما أثبت النفس في كتابه، وكفرت الجهمية بهذه الآي وهذه السنن وزعم بعض جهلتهم أن الله تعالى إنما أضاف النفس إليه على معنى إضافة الخلق

---

(١) مسلم ح (٢٦٢٧).

(٢) البخاري ح (٣٠٢٢).

(٣) البخاري ح (٤٣٥٨).

إليه وزعم أن نفسه غيره كما أن خلقه غيره، وهذا لا يتوهمه ذو لب وعلم فضلاً عن يتكلم به. (١)

وهذا واضح البطلان – أعني زعم الجهمية– الذين يزعمون أن الله لا يوصف بالضمير، وهو منفي عن الله كما نقل ذلك عنهم الإمام الدارمي –رحمه الله– حين رد على بشر المريسي، فقال: وادعى المعارض أن الله لا يوصف بالضمير والضمير منفي عن الله، وهي كلمة خبيثة قديمة من كلام جهم، عارض بها قوله تعالى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ المائدة ٧٦، يدفع بذلك أن يكون الله تعالى سبق له علم في نفسه من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم.

قال أبو سعيد: "وقول جهم هذا أصل كبير في تعطيل النفس والعلم السابق، ثم قال –رحمه الله– فإذا اجتمع قول الله وقول الرسولين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم فمن يكترث لقول جهم والمريسي وأصحابهما؟ فنفس الله هو الله والنفس مجمع الصفات كلها، فإذا نفيت النفس نفيت الصفات، وإذا نفيت الصفات كان لا شيء (٢) ".

قال الراغب الأصفهاني (٣) في مفرداته: "نفسه ذاته وهذا وإن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ومضاف إليه يقتضي المغايرة وإثبات شيئين من حيث العبارة فلا

شيء من حيث المعنى سواه سبحانه عن الأثنوية من كل وجه (٤) ".

---

(١) التوحيد ١/ ١٩.

(٢) عقائد السلف صـ ٥٥٠ – ٥٥٢.

(٣) الحسين بن محمد الأصفهاني، أديب من الحكماء، له عناية بغريب القرآن، (ت ٥٠٢ هـ) الأعلام (٢/ ٢٥٥).

(٤) مفردات الأصفهاني صـ ٥١١.

ونقل الحافظ -رحمه الله- عن ابن بطال في هذه الآيات والأحاديث إثبات النفس لله تعالى، وللنفس معانٍ والمراد بنفس الله تعالى ذاته وليس بأمر مزيد عليه، فوجب أن يكون هو (١) "

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: " إن هذه المواضع المراد منها بلفظ النفس عند جمهور العلماء الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته، وليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات كما تظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ (٢) ".

فبان أن البخاري -رحمه الله- يرى جواز إطلاق النفس على الله من باب الإخبار وليس من باب التسمية ومعلوم أن باب الإطلاق والإخبار أوسع من باب التسمية، فأوردها مصدراً لها بالآية الصريحة ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ آل عمران ٣٠.

---

(١) الفتح ١٣/ ٣٨٤.

(٢) الفتاوى ٩/ ٢٩٢ - ٢٩٣.

المطلب الثالث: إطلاق (الشيء) على الله

إطلاق الشيء على الله تعالى يعني إثباتاً للوجود ونفياً للعدم، وقد اختلف المتكلمون هل يسمى الباري شيئاً أم لا.

قال الجهم: أن الله لا يسمى شيئاً، لأن الشيء هو المخلوق الذي له مثل.

والمعتزلة قالوا: إنه غير الأشياء على مقالات:

فهو غير الأشياء بنفسه، ولا يقال إنه غيرها لغيرية.

وقائل انه غير لأشياء والأشياء غيره لنفسه ولنفسها.

وقائل انه غير لأشياء أي ليس هو الأشياء. (١)

ويطلق أهل السنة على الله وعلى صفاته أنه شيء، وليس معناه عندهم أن الشيء اسم من أسماء الله، ولكن يخبر عنه بأنه شيء، ويخبر عن صفاته أنها شيء لأن كل موجود يصح أن يقال له شيء.

قال الحافظ: " الشيء يساوي الموجود لغة وعرفاً وأما قولهم فلان ليس بشيء فهو على طريق المبالغة في الذم فلذلك وصف بصفة العدم. (٢)

والبخاري -رحمه الله- بوب بقوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله. .﴾ الأنعام ١٩. قال: فسمى الله تعالى نفسه شيئاً، وسمى النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن شيئاً، وهو صفة من صفات الله وقال: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ القصص ٨٨.

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري ١/ ٢٣٨.

(٢) الفتح (١٣/ ٤٠٢).

ثم استدل بحديث سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لرجل: أمعك من القرآن شيء، قال: نعم، سورة كذا وكذا لسورٍ سماها.

قال ابن بطال -رحمه الله-: إن الآيات والآثار المذكورة في هذا الباب ترد على من زعم أنه لا يجوز أن يطلق على الله تعالى أنه شيء. (١)

وقد قال الإمام عبد العزيز الكناني (٢) في مناظرته لبشر المريسي في رفع الشبهة عن هذه الكلمة، فإن بشراً ادعى أن القرآن شيء وعلى هذا فهو مخلوق.

وأجابه الكناني: سألت عن القرآن أهو شيء أو غير شيء، فإن كنت تريد هو شيء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم فهو شيء، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له وأنه كالأشياء فلا، ولكن بشراً ادعى عدم الفهم وطلب زيادة إيضاح، فقال الكناني: إن الله عز وجل أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه إذ كان كلامه من صفاته، فلم يقسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه شيء، وأكبر الأشياء ونفياً للعدم، وتكذيباً منه للزنادقة والدهرية ومن تقدمهم جحد معرفته وأنكر ربوبيته من سائر الأمم، فقال عز وجل لنبيه: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ الأنعام ١٩، فدل على نفسه أنه شيء لا كالأشياء وأنزل في ذلك خبراً خاصاً مفرداً لعلمه السابق أن جهماً وبشراً ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه ويشبهونه على خلقه ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة، قال عز وجل: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى ١١، فاخرج نفسه وكلامه وصفاته من

---

(١) المصدر السابق ١٣/ ٤٠٢.

(٢) عبدالعزيز بن يحيى الكناني، فقيه مناظر من تلاميذ الشافعي، ناظر بشر المريسي في حضرة المأمون وسجل ذلك في رسالة (الحيده) (ت ٢٤٠ هـ) الأعلام (٤/ ٢٩).

الأشياء المخلوقة، فهذا الخبر تكذيباً لمن ألح في كتابه وافترى عليه وشبهه بخلقه، قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ الأعراف.

ثم عدد أسماءه في كتابه ولم يتسم بالشيء، ولم يجعله اسماً من أسمائه.

واحتج -رحمه الله- بأن الله ذم اليهودي (١) الذي نفى أن تكون التوراة شيء فقال: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس﴾ الأنعام ٩١.

واستدل بقوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء﴾ الأنعام ٩٣.

وهكذا يمضي الإمام عبد العزيز الكناني -رحمه الله- في استنباط الأدلة رداً على بشر المريسي، الذي طلب دليلاً على أن القرآن شيء، ولكن لا كالأشياء.

فقال الكناني: قال الله عز وجل: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ النحل ٤، وقال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ يس ٨٢، وقال: ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ البقرة ١١٧.

فدل عز وجل بهذه الأخبار كلها وأشباه لها كثيرة على أن كلامه ليس كالأشياء وأنه غير الأشياء وأنه خارج عن الأشياء، وأنه إنما " تكون الأشياء بقوله وأمره ثم ذكر خلق الأشياء كلها فلم يدع منها شيء إلا ذكره وأخرج كلامه وقوله وأمره منها ليدل على أن كلامه غير الأشياء

---

(١) يشير الإمام الكناني للحبر اليهودي: مالك بن الصيف الذي خاصم النبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - (أُنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى: أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين) وكان حبراً سميناً، فقال: والله ما أنزل اللهُ على بشر من شيء. تفسير الطبري (١١/ ٥٢١)، تفسير البغوي (٣٦٦).

وخارج عن الأشياء المخلوقة فقال: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر﴾ الأعراف ٥٤.

فجمع في هذه اللفظة الخلق كله ثم قال: والأمر يعني الأمر الذي كان به هذا الخلق ففرق عز وجل بين خلقه وأمره فجعل الخلق خلقاً والأمر أمراً، وجعل هذا غير هذا. (١)

وفي هذه اللفظة (شيء) صرح الإمام البخاري بها وأنها تطلق على الله ونوع الإستدلال بذلك فقال: فسمى الله نفسه شيئاً ثم استدل باطلاق شيء على القرآن الذي هو صفة لله فقال: وسمى النبي القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله ثم عاد إلى القرآن فأكد بقوله ﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾ القصص ٨٨. فبان غرضه -رحمه الله- ووافق السلف في جواز اطلاق الشيء على الله إخباراً لا تسمية.

---

(١) الحيده الصفحات ٣٣ - ٣٦ بتصرف يسير.

المطلب الرابع: إطلاق (الشخص) على الله

جاء في بعض الأحاديث الصحيحة إطلاق (الشخص) على الله، كما بوب البخاري -رحمه الله- لذلك فقال: باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - لا شخص أغير من الله، وقد رواه تعليقاً -رحمه الله- ولكن وصله ابن حجر في تغليق التعليق (١) بإسناده إلى الدارمي -رحمه الله- وغيره.

ورواه مسلم (٢) أيضاً بهذا اللفظ (لا شخص).

وهناك روايات أخرى بقوله (لا شيء) و (لا أحد).

وهناك من جعل لا شخص تصحيف ووهم من الرواة، وهناك من أولها، فقال الخطابي -رحمه الله-: إطلاق الشخص في صفة الله تعالى غير جائز وذلك لأن الشخص لا يكون إلا جسماً مؤلفاً وإنما يسمى شخصاً ما كان له شخص وارتفاع، ومثل هذا النعت منفي عن الله سبحانه وتعالى، وخليق أن لا تكون هذه اللفظة صحيحة وأن تكون تصحيفاً من الراوي. (٣)

ثم ذكر أن الشيء والشخص سواء فمن لم يفهم الاستماع لم يأمن الوهم، وليس كل الرواة يراعون لفظ الحديث حتى لا يتعدوه.

ويشكك الخطابي -رحمه الله- بأن الراوي جرى منه لفظ الشخص من غير تأمل. (٤)

ولعل الخطابي -رحمه الله- لم يطلع على الروايات الأخرى، فقد روى الحديث مسلم وأحمد والدارمي وغيرهم بلفظ (لا شخص)، ولذلك قال الإمام الكرماني معلقاً على الخطابي:

---

(١) تغليق التعليق (٥/ ٣٤٤).

(٢) كتاب اللعان حديث رقم ١٤٩٩.

(٣) أعلام الحديث ٤/ ٢٣٤٤.

(٤) أعلام الحديث ٤/ ٢٣٤٥

"لا حاجة إلى تخطئة الرواة الثقات بل حكمه حكم سائر المتشابهات فإما أن يفوض وإما أن يؤول (١) " هذا ما يراه الكرماني ولا يُسلم له.

ومثله الحافظ -رحمه الله- فقد تعقب الخطابي بأنه لم يراجع باقي الروايات الصحيحة وأن طعنه في أئمة الحديث الضابطين مع إمكان توجيه ما رووا من الأمور التي أقدم عليها كثير من غير أهل الحديث وهو يقتضي قصور في علم من فعل ذلك منهم. (٢)

وقال الإمام النووي -رحمه الله-: (لا شخص) أي لا أحد، وإنما قال لا شخص استعارة ومعناه لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله ولا يتصور ذلك منه. (٣)

وإلى مثل هذا ذهب البيهقي -رحمه الله- فقد ساق كلام الخطابي وارتضى أن يكون لفظ (لا شخص) تصحيفاً ثم قال: ولو ثبتت هذه اللفظة لم يكن فيها ما يوجب أن يكون الله شخصاً، فإنما قصد إثبات صفة الغيرة لله تعالى والمبالغة فيه، وأن أحداً من الأشخاص لا يبلغ تمامها. ونقل البيهقي مثل ذلك عن أبي بكر الإسماعيلي (٤) بأنه لا يوجب بأن الله شخص. (٥)

واسند لذلك بأن قوله (ما خلق الله شيئاً أعظم من آية الكرسي) ليس فيه إثبات خلق آية الكرسي، وليس فيه إلا أن لا خلق في العِظم كآية الكرسي، لا أن آية الكرسي مخلوقة (٦)، وبهذا قال ابن فورك وأخذه عنه ابن بطال.

---

(١) (٢٥/ ١٢٨) الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري للكرماني (٢٥/ ١٢٨).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٤٠١) بتصرف.

(٣) شرح صحيح مسلم (١٠/ ١٠٣).

(٤) أحمد بن إبراهيم إسماعيل، حافظ جمع بين الفقه والحديث ورياسة الدين والدنيا، (ت ٣٧١ هـ) الأعلام (١/ ٨٦).

(٥) الأسماء والصفات صـ ٣٦٦.

(٦) المصدر السابق، وهذا المثال محل نظر والله أعلم.

وقال ابن فورك بالمنع لهذا الإطلاق لعدم ثباته عنده من طريق السماع وللإجماع على منعه ولأن معناه يقتضي الجسمية.

وقال بالإجماع أيضاً ابن بطال، فقال: أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص.

ونقل عن القاضي عياض (١) -رحمه الله- أنه لا إشكال في قوله (لا شخص) لأنه ربما وقع تجوزاً من (شيء) أو (أحد) وقال: قد يكون المراد بالشخص المرتفع؛ لأن الشخص هو ما ظهر وشخص وارتفع، فيكون المعنى لا مرتفع أرفع من الله كقوله (لا متعالي أعلى من الله) وله توجيه آخر وهو: لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله، وبمثله قال القرطبي (٢)

وأما من يسوق هذا اللفظ من غير تأويل فالإمام عبيد الله القواريري (٣) راوي الحديث في المسند -رحمه الله- قال عبد الله بن أحمد بعد ذكره لهذا الحديث: قال عبيد الله القواريري: "ليس حديث أشد على الجهمية من هذا الحديث (٤) ".

ورواه الإمام الدارمي في سننه ساكتاً عنه. (٥)

وبوب له الإمام الحافظ ابن أبي عاصم (٦) في كتابه [السنة] وساق للحديث إسنادين صحيحين على شرط الشيخين كما قال الألباني. (٧)

---

(١) عياض بن موسى اليحصبي، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته (ت ٥٤٤ هـ)، الأعلام (٥/ ٩٩).

(٢) انظر الأقوال السابقة في فتح الباري (١٣/ ٤١٣).

(٣) عبيد الله بن عمر بن ميسرة الإمام الحافظ، محدِّث الإسلام، روى له البخاري ومسلم وأبوداود وكتب عنه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل (ت ٢٣٥ هـ) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٤٢).

(٤) المسند ٤/ ٢٤٨.

(٥) سنن الدارمي ٢/ ٧٣.

(٦) أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني يقال له ابن النبيل، عالم بالحديث له ثلاث مائة مصنف، (ت ٢٨٧ هـ) الأعلام (١/ ١٨٩).

(٧) السنة لابن أبي عاصم صـ ٢٣٠ - ٢٣١.

ومثله الإمام أبو يعلى ساق هذا الحديث بسنده في [إبطال التأويلات لأخبار الصفات] ثم قال: وأما لفظ الشخص فرأيت بعض أصحاب الحديث يذهب إلى جواز إطلاقه ووجهه أن قوله (لا شخص) نفي من إثبات وذلك يقتضي الجنس كقولك: لا رجل أكرم من زيد، يقتضي أن زيداً يقع عليه اسم رجل، كذلك قوله (لا شخص أغير من الله) يقتضي أنه سبحانه يقع عليه هذا الاسم. (١)

ثم ذكر احتمالاً آخر وهو أن الاستثناء من غير جنسه لورود الروايات الأخرى (لا أحد) وقال إن هذا مثل قوله ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ النساء ١٥٧، وليس الظن من نوع العلم، وقوله ﴿فإنهم عدوٌ لي إلا رب العالمين﴾ (٢) الشعراء ٧٧.

فعلى هذا يمتنع في الرأي الآخر لأبي يعلى إطلاق الشخص على الله. (٣)

وجزم الدكتور عبد الله الغنيمان بأن هذا هو مراد البخاري وأنه وصف له.

وقال عن حكاية الإجماع التي قالها ابن بطال بأنه [لا يجوز أن يوصف بأنه شخص] أنها مجازفة ودعوى عارية عن الدليل وأن الدليل على ثبوت هذا اللفظ ثم قال: " وقد صح عنه – صلى الله عليه وسلم – إطلاق هذا الاسم – أعني الشخص– على الله تعالى فيجب اتباعه في ذلك على من يؤمن بأنه رسول الله وهو – صلى الله عليه وسلم – أعلم بربه وبما يجب له وما يمتنع عليه من غيره من سائر البشر. (٤)

---

(١) إبطال التأويلات لأبي يعلى (١/ ١٦٦).

(٢) المصدر السابق ج ١ صـ ١٦٧.

(٣) وأورده ابن البنا في عقيدته التي اختصر فيها كتاب التوحيد للبخاري من غير تعليق صـ ١٢٢.

(٤) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٣٩).

والبخاري -رحمه الله- لم يصرح بشيء غير التبويب بهذا الحديث المعلق، قال الحافظ -رحمه الله-: لم يفصح المصنف بإطلاق الشخص على الله، بل أورد ذلك على طريق الاحتمال.

ويلاحظ أن البخاري -رحمه الله- جزم بتسميته شيئاً لوضوح ذلك بالآيتين فقال: "فقد سمى الله شيئاً وسمى النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله".

ولكن بعض المؤلفين في مناسبات تراجم البخاري يرى أن مقصود البخاري بهذه الترجمة إثبات صفة الغيرة لله بدليل الحديث الذي أورده في الباب وهو قوله [أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن]. (١)

هذا والله أعلم، له وجاهة ولا حاجة للتأويل ونسبة الرواة للجهالة أو الرواية بالمعنى لثبوت لفظ الشخص في الصحيحين وغيرهما؛ ولأنه لا يلزم في اللغة أن يكون المفضل عليه من جنس المفضل، فلا يلزم إذاً أن يكون الله موصوفاً بالشخصية.

ثم إذا سلم بالوصف بالشخصية على قول من قال به، فهو لا يلزم من كونه شخصاً أن يكون مماثلاً للأشخاص فإن الله ليس كمثله شيء حتى في اللفظة التي يستوي الإنسان والرب عز وجل فإنه لا يماثله في حقيقة معناها، كما مرّ معنا في أكثر من إطلاق.

قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى ١١.

واورد الإمام الدارقطني في كتاب الرؤية، وعبد الله بن أحمد بأسنادهما إلى لقيط بن عامر (٢) -رضي الله عنه- في حديث قدومه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو حديث طويل وفيه ". .

---

(١) الأبواب والتراجم للهندي [٦/ ٣٣٩].

(٢) لقيط بن عامر بن صبرة أبو رزين صحابي، (ت ٢٩٧ هـ) تقريب التهذيب (٢/ ١٣٨).

فذكر الرب فقال تنظرون إليه وينظر إليكم" قال قلت يا رسول الله، كيف ونحن ملئ الأرض وهو شخص واحد فينظر إلينا وننظر إليه؟

فقال: الشمس والقمر آية منه صغيرة تروينهما ويرياناكم".

قال: فأقره النبي – صلى الله عليه وسلم – على قوله " وهو شخص واحد".

وقد اختلف العلماء في صحة هذا الحديث، فممن صححه الإمام ابن القيم، وحكى قبوله عن الأئمة أبو زرعة الرازي وأبو حاتم والبخاري وغيرهم.

ثم علق على قوله (وهو شخص واحد) بقوله: وقد جاء هذا في الحديث وفي حديث آخر (لا شخص أغير من الله).

قال: والمخاطبون بهذا قوم عرب يعلمون المراد منه ولا يقع في قلوبهم تشبيهه سبحانه بالأشخاص بل هم أشرف عقولاً واصح أذهاناً وأسلم قلوباً من ذلك. (١)

والذي بان لي أنه يجوز إطلاق لفظ الشخص من باب الإخبار عن الله ولكن ليس من باب التسمية؛ لأن شرط الأسماء أن تكون حسنى بالغة الحسن أكمله، ولأنه لا يدعي بقوله يا شخص ولم يرد هذا اللفظ في جميع روايات من جمع الأسماء الحسنى، والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٨١. والحديث: قال الأرنؤوط إسناده ضعيف لجهالة عبد الرحمن بن عياش السمعي. وقال مثله محقق أبطال التأويلات: ضعيف لنفس الجهالة السابقة، وقال الحافظ في التهذيب (٥/ ٥٧) ورواه أبو القاسم الطبراني مطولاً وهو حديث غريب جداً. وكذا قال د. محمد القحطاني في تحقيق السنة لعبدالله ابن أحمد ٢/ ٤٨٥.

الفصل الرابع: من أحكام الأسماء الحسنى

المبحث الأول: السؤال بأسماء الله والاستعاذة بها

السؤال هو الطلب بذلٍ وخضوع وافتقار.

والاستعاذة: هي العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه ويرفع البلاء بعد نزوله. (١)

وهذا في حق الأسماء الحسنى ارتبط بقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأعراف ١٨٠.

(فالدعاء هو العبادة) ولعظم أمر الدعاء عند الله فقد أمر عباده به كثيراً في كتابه فقال: ﴿وقال ربك ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ غافر ٦٠، فجعل الاستكبار عن الدعاء استكبار عن العبادة وقال: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ البقرة ١٨٦.

ولذلك لما قال عليه الصلاة السلام (الدعاء هو العبادة) (٢) قرأ بعدها قوله: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ غافر ٦٠.

وقد قرر أهل العلم أن الدعاء نوعان:

١ – دعاء ثناء على الله.

---

(١) لسان العرب ٢/ ٩٢٣.

(٢) رواه أبوداود ح (١٣٢٩) وهو صحيح.

٢ – دعاء مسألة لله.

وكلاهما عبادة لله تبارك وتعالى.

فدعاء مسألة وطلب ودعاء ثناء وهذا بيّن باستقراء النصوص، فدعاء الثناء هو: التعبد لله سبحانه والثناء عليه بأسمائه الحسنى.

ودعاء العبادة يقتضي أن يتعبد العبد لله سبحانه وتعالى بمقتضى الأسماء، فلابد أن تؤثر عليه ظاهراً وباطناً فإذا علم العبد سَمْعَ الله، وعلمه، وبصره، وأنه السميع العليم البصير لا يخفى عليه شيء وأنه يعلم السر وأخفى يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله. (١)

وأما دعاء المسألة بالنسبة للأسماء الحسنى فهو سؤال الله في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب والتوسل إلى الله بالأسماء في الدعاء، فيقول الداعي اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وتب عليَّ يا تواب وارزقني يا رزاق ونحو ذلك.

وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ آل عمران ٨.

وفي تمثل الرسول – صلى الله عليه وسلم – حيث علم عائشة –رضي الله عنها– ما تدعو ربها به في تحريها لليلة القدر أن تقول: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني. (٢)

وهنا لابد من التنبيه على أن ما يدخل في باب الإخبار عن الله تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه والشارع فإن هذا يخبر عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٩٠ بتصرف.

(٢) الترمذي باب ٨٩ ح ٣٥٨ وقال حسن صحيح ٥/ ١٩٥، وانظر أسماء الله للغصن صـ ١٢٦.

قال أبو إسحاق الزجاج: لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه. (١)

وقال الخطابي: ومن علم هذا الباب أعني: الأسماء والصفات ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط أنه لا يتجاوز فيها التوقف ولا يستعمل فيها القياس فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة ومتعارض الكلام. (٢)

وقال شيخ الإسلام: ثم أنت تسميه قديماً وواجب الوجود وذاتاً ونحو ذلك مما لم يرد به الشرع، والشارع يفرق بين ما يدعى به من الأسماء، فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى وبين ما يخبر بمضمونه عنه من الأسماء لإثبات معنى يستحقه نفاه عنه نافٍ مما يستحق من الصفات، كما أن من نازعك في قدمه أو وجوب وجوده قلت مخبراً عنه بما يستحقه: أنه قديم وواجب الوجود. (٣)

وقال في موضع آخر: " فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت في الشرع والعقل وبه يظهر الفرق بين ما يدعى الله به من الأسماء الحسنى وبما يخبر به عنه عز وجل مما هو حق ثابت لإثبات ما يستحقه سبحانه من صفات الكمال ونفي ما تنزه عنه عز وجل من العيوب والنقائض، فإنه الملك القدوس السلام سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كثيراً، قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ الأعراف ١٨٠، مع قوله ﴿قل إي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ الأنعام ١٩، ولا يقال في الدعاء: يا شيء (٤) ".

---

(١) الفتح (١١/ ٢٢٣).

(٢) شأن الدعاء صـ ٨١١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٤/ ١٤٠.

(٤) المصدر السابق ١/ ٢٩٨.

ونذكر هنا مخالفة المعتزلة -[معتزلة البصرة، أما البغداديون فيرون أنها توقيفية]- زعموا أن العقل إذا دل على اسم لله ثبت له، وبالغ أبو علي الجبائي في ذلك حتى سمى الله بأسماء ينزه الرب عنها كالمطيع ومحبل النساء وغير ذلك، وله مناظرات مشهورة مع أبي الحسن الأشعري في ذلك كانت سبباً في مفارقته له. (١)

والاستعاذة كذلك بالأسماء الحسنى مثل الدعاء بها كقول الله تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ النحل ٦٨.

وقوله ﴿إني عذت بربي وربكم﴾ الدخان ٢٠، وقوله ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك﴾ مريم ١٨.

ويلاحظ أن الأسماء تشارك الصفات في جواز السؤال بها والاستعاذة بها، ولكن المخالفة بينهما بالدعاء، فدعاء الأسماء الحسنى توحيد وعبادة، تقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، وأما دعاء الصفات فهو من الشرك، كقولك يا رحمة الله اغفري يا قدرة الله انقذيني.

قال شيخ الإسلام: " إن مسألة الله بأسمائه وصفاته وكلماته جائز مشروع كما جاءت به الأحاديث، وأما دعاء صفاته وكلماته فكفر باتفاق المسلمين، فهل يقول مسلم يا كلام الله اغفر لي وارحمني وأغنني وأعني، أو يا علم الله أو يا قدرة الله أو يا عزة الله أو يا عظمة الله ونحو ذلك.

---

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ٢٠٧.

أو سمع من مسلم أو كافر أنه دعى بذلك أو يطلب من الصفة جلب المنفعة، أو دفع مضرة أو إعانة أو نصر أو إغاثة أو غير ذلك. (١) ويضاف أن الأسماء يصح التعبيد بها كعبدالله، بينما الصفات لا يجوز ذلك فلا يقال عبدالرحمة ولا عبد القوة وهكذا.

وفي هذا الباب بوب البخاري –رحمه الله– بقوله " باب السؤال بأسماء الله والاستعاذة بها" وأورد –رحمه الله– أحاديث تدل على السؤال والتوسل والاستعاذة بالأسماء الحسنى لورود الأحاديث، والتي ساق منها:

" باسمك ربي وضعت جنبي،

– (باسمك أحيا وأموت) وحديث (باسمك نموت ونحيا)

– باسم الله اللهم جنبنا الشيطان"

– إذا أرسلت كلابك المعلَّمة وذكرت اسم الله فامسكن فكل"

– اذكروا اسم الله وكلوا. .

– ضحى بكبشين يسمي ويكبر.

– ومن لم يذبح فيذبح باسم الله

فهذه الأحاديث في الاستعاذة بالله وسؤاله عند النوم وبعده وعند الجماع ولحل الأكل ولحل الصيد وعند النسك تجعل المسلم في كل أحواله مع الله سائلاً ومستعيناً به فهذا بيان من فعله – صلى الله عليه وسلم – وأمره.

---

(١) تلخيص الاستغاثة – الرد على البكري – لابن تيمية صـ ٧٩.

ونقل الحافظ عن الإمام نعيم بن حماد قوله في كتاب الرد على الجهمية " دلت هذه الأحاديث على أن القرآن غير مخلوق إذ لو كان القرآن مخلوقاً لم يستعذ بها، إذ لا يستعاذ بمخلوق، قال تعالى ﴿فاستعذ بالله﴾ الأعراف ٢٠٠، وقال عليه الصلاة والسلام (فإذا استعذت فاستعذ بالله). (١)

وفيه الرد على من قال إن أسماء الله مخلوقه وكلامه مخلوق، كما نقل عن الجهمية. ووجه الرد أنها لو كانت غيره لما جازت الاستعاذة بها، والسؤال واضح في أحاديث الباب والاستعاذة تفهم من حديث جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا.

وقد نبه على هذه المسائل البخاري في – خلق أفعال العباد– خاصة أن الاستعاذة بها فيه أن كلام الله غير مخلوق وأن سواه خلق (٢) وقال فيه: باب ما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يستعيذ بكلمات الله لا بكلام غيره.

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٩٣. وبهذا قال صاحب الأبواب والتراجم للبخاري ٦/ ٣٣٦.

(٢) خلق أفعال العباد ٩٦.

المبحث الثاني: الحلف بأسماء الله

الحلف هو: تأكيد الخبر بذكر اسم الله العظيم الذي يوقع بالكاذب العقوبة، ففي ضمن ذلك أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر ولذلك صار الحلف بغير الله شركاً. (١)

قال عليه الصلاة والسلام " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك". ولما سمع ابن عمر رجلاً يحلف بالكعبة قال: لا يحلف بغير الله، ثم استشهد بالحديث السابق. (٢) وأخرج البيهقي -رحمه الله- عن الشافعي، قال: قال الشافعي -رحمه الله-: من حلف بالله أو باسم من أسمائه فعليه الكفارة، ومن حلف بشيء غير الله مثل أن يقول الرجل [والكعبة] وأبي وكذا وكذا ما كان فحنث فلا كفارة عليه ومثل ذلك قوله: لعمري، لا كفارة عليه ويمين بغير الله فهي مكروهة منهي عنها من قبل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: [إن الله عز وجل نهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليسكت] (٣). (٤)

وهذا هو مراد البخاري -رحمه الله- في إيراد هذا الحديث في باب السؤال بأسماء الله والاستعاذة بها من أن ذكر اسم الله - تعالى- أو صفته لتأكيد الخبر مشروع بالجملة وأنه لا يجوز ذلك لغير الله فيكون ذلك من العبادة بأسماء الله تعالى. (٥)

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٢٤٠).

(٢) رواه أحمد ح (٥٣٣٦) والترمذي ح (١٤٥٥).

(٣) رواه البخاري (٣٦٢٤).

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٤٠٥.

(٥) انظر شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٢٤٠.

وقد بوب البخاري -رحمه الله- في كتاب الإيمان والنذور بقوله: " باب الحلف بغير الله وصفاته وكلماته، ومثله في كتاب التوحيد، قال: من حلف بغير الله وصفاته" وأورد أحاديث تدل على الحلف بغير الله كقول جهنم: (قطٍ قطٍ وعزتك) وقول الرجل الذي يكون آخر من يدخل الجنة: (لا وعزتك لا أسألك غيرها).

وقول أيوب – صلى الله عليه وسلم -: "وعزتك لا غنى بي عن بركتك".

وغيرها من الأحاديث الدالة على أن الحلف بالله أو بأسمائه أو بصفاته فقط.

وتنبيه البخاري وتبويبه يدل على إهتمامه بهذه المسألة من ناحيتين:

الأولى: حماية جناب التوحيد من أن الحلف بغير الله شرك.

الثانية: أن الحلف بأسمائه وصفاته دالٌ على أنها غير مخلوقة.

الباب الثاني الصفات الالهية

الفصل الأول: الصفات الذاتية

الفصل الثاني: الصفات الفعلية

الفصل الثالث: ماورد في الرؤية

الفصل الرابع: ماورد في صفة الكلام

الفصل الخامس: ماورد في أفعال العباد

الباب الثاني الصفات الإلهية

تمهيد: تعريف الصفة وأقسام الناس فيها:

وصف الله تبارك وتعالى نفسه بصفات كمال مطلق من جميع الوجوه ونعوت العظمة والجلال والجمال، ومن تدبر القرآن الكريم عرف أن الله على كل شيء قدير وأنه هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، غفور لعباده، رحيم بهم، يحب لعباده الإيمان ولا يرضى لهم الكفر، وهاب جزيل العطايا، صمدٌ واحدٌ لا شريك له، علا واستوى على العرش، وهو مع عباده إينما كانوا، كل هذا وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

فمن عرف صفات ربه تعبده بها وأجر عليها ومن وصف ربه بالنقائص وعطل ذاته عن صفاته فقد دخل في الوعيد الشديد.

فقد عاقب الله الواصفين له بالنقص كما في قوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ المائدة ٦٤.

وقوله عز وجل: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ آل عمران ١٨١.

ونزه نفسه عما يصفونه به من النقائص فقال: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ الصافات ١٨٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ المؤمنون ٩١.

ولم يسأل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيه – والقرآن ينزل – عن هذه الصفات بل استبشروا بها خيراً وفرحوا برحمته ومغفرته لهم، كما قال الله في كتابه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ يونس ٥٨.

وبنظرة قريبة لأصل كلمة الصفة فيقال: الوصف: ما يقوم بالواصف، والصفة ما تقوم بالموصوف. (١)

قال البخاري –رحمه الله– في خلق افعال العبادة: فالوصف إنما هو قول القائل حيث يقول: هذا رجل طويل وثقيل وجميل وحديد، فالطول والجمال والثقل والحدة، إنما هو صفة الرجل، وقول القائل وصف، كذلك إذا قال: الله رحيم، والله عليم. (٢)

قال شيخ الإسلام: والصفة والوصف تارة يراد بها الكلام الذي يوصف به الموصوف كقول الصحابي – لأنها صفة الرحمن– وتارة يراد به المعاني التي دل عليها الكلام كالعلم والقدرة، والجهمية والمعتزلة وغيرهم تنكر هذه وتقول إنما الصفات مجرد العبارة التي يعبر بها عن الموصوف، والكلابية ومن اتبعهم من الصفاتية قد يفرقون بين الصف والوصف فيجعلون الوصف هو القول والصفة المعنى القائم بالموصوف. وأما جماهير الناس فيعلمون أن كل واحد

---

(١) لسان العرب (مادة وصف).

(٢) خلق أفعال العباد صـ ١١٤.

من لفظ الصفة والوصف مصدر في الأصل كالوعد والعدة والوزن والزنة وأنه يراد به تارة هذا وتارة هذا. (١)

والنصوص متوافرة في الكتاب والسنة في سياق صفات الله تبارك وتعالى وأكثر من أن تورد، لكن هناك شبهة بالغ ابن حزم -رحمه الله- فيها وهي إنكار هذه اللفظة (صفة وصفات) وقال: وأما إطلاق لفظ الصفات لله فمحال لا يجوز؛ لأن الله لم ينص في كلامه المنزل على لفظ الصفات أو الصفة، ولا نبيه صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ولا عن أحد من التابعين ولا عن أحد من تابعي التابعين، وما كان هكذا فلا ينبغي لأحد أن ينطق به، وإنما اخترع لفظ الصفات المعتزلة وسلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام سلكوا غير مسلك السلف الصالح، وربما أطلق هذه اللفظة من متأخري الأئمة الفقهاء من لم يحقق النظر فيها. (٢)

ولعل ابن حزم -رحمه الله- لا يرى حديث البخاري في كتاب التوحيد في الرجل الذي كان في سرية (ويقرأ بهم بقل هو الله أحد ويختم بها قراءته، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك، فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال عليه الصلاة السلام: أخبروه أن الله يحبه).

فاللفظ هنا صريح من صحابي بنعت الله تبارك وتعالى بالصفة، ولذلك علق الحافظ -رحمه

---

(١) الفتاوى ٣/ ٣٣٥.

(٢) الفصل ٢/ ٢٨٥.

الله- بقوله: " وفي حديث الباب حجة لمن أثبت أن لله صفة وهو قول الجمهور. (١)

ولكن ابن حزم -رحمه الله- لما أعيته الحيلة في رد هذا الحديث ظهرت عليه ظاهريته فقال: "قل هو الله أحد خاصة صفة الرحمن". (٢)

وهناك دليل آخر:

فعن ابن عباس -رضي لله عنهما- أن اليهود جاءت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يامحمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله عز وجل ﴿قل هو الله أحد﴾ الاخلاص ١ فقال هذه صفة ربي عز وجل وتقدس وعلا علواً كبيراً. (٣)

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما- فيما رواه عنه علي بن أبي طلحة قال: في سورة الإخلاص ". . . وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلاّ له ليس له كفء وليس كمثله شيء". (٤)

وقال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. (٥)

والنصوص عن السلف في إثبات الصفات ووصف الله بما يليق كثيرة جداً. والخلاف في صفات الله تبارك وتعالى حادث بعد عصر الصحابة ولم يكن هناك خلاف بين صحابة رسول

---

(١) الفتح ١٣/ ٣٥٦.

(٢) الفصل ٢/ ٢٨٥.

(٣) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ٣٨. وابن جرير في تفسيره ٣٠/ ٢٢١ وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم ٦/ ٤١٠، وحسن الحافظ إسناده في الفتح ١٣/ ٣٥٦.

(٤) تفسير الطبري ٣/ ٢٢٣. تفسير بن كثير ٤/ ٩١٠.

(٥) الأربعين في صفات رب العالمين للذهبي صـ ٤٢.

الله صلى الله عليه وسلم في مسائل الصفات وقد صور الإمام المقريزي -رحمه الله- كيف تدرج الناس في هذه المسألة المهمة فقال:

اعلم أن الله تعالى - لما بعث من العرب نبيه محمداً رسولاً إلى الناس جميعاً وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه صلى الله عليه وسلم الروح الأمين وبما أوحى إليه ربه تعالى فلم يسأله عن معنى شيء من ذلك، كما كان يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهي، وكما سألوه صلى الله عليه وسلم عن أحوال القيامة والجنة والنار، إذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم في أحكام الحلال والحرام، وفي الترغيب والترهيب، وأحوال القيامة، والملاحم، والفتن ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث في معاجمها ومسانيدها وجوامعها، ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم ير قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة -رضي الله عنهم- على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف به الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات.

نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة وساقوا الكلام سوقاً واحداً وهكذا أثبتوا -رضي الله عنهم- ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريم من الوجه واليد ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا - رضي

الله عنهم- بلا تشبيه ونزهوا من غير تعطيل ولم يتعرض أحدٌ منهم إلى تأويل شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ولم يكن عند أحدٍ منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله، ولا عرف أحدٌ منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة. (١)

ونقلت هذا الكلام على طوله لنفاسته في عرض العصر النقي الصافي، ثم توالت العصور وأحدث من أحدث في الكلام في الصفات كالجعد بن درهم (٢) والجهم بن صفوان ومقاتل بن سليمان (٣) وغيرهم من المعطلة والمشبهة، فقام أهل السنة في الذب عن الدين وتوضيح الكلام ونشروا لذلك الردود وبينوا النصوص وقعدوا القواعد.

وللبيان فالناس في هذا الباب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المعطلة:

وهم الذين عطلوا الرب عما يجب أن يثبت له من الأسماء والصفات وهذا على مراتب:

١ - وصف الله بسلب النقيضين وهو مذهب غلاة المعطلة، فإنهم يقولون لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، لأننا لو وصفناه بالإثبات لشبهناه بالمخلوقات، ولو وصفناه بالنفي لشبهناه بالمعدومات.

٢ - وصف الله بالسلب والإضافة دون صفات الإثبات، وهو مذهب المعطلة من الفلاسفة والجهمية وهؤلاء كلهم ينفون الأسماء والصفات.

٣ - إثبات الأسماء دون الصفات وهو مذهب المعتزلة ومن تبعهم.

---

(١) المواعظ والاعتبار للمغريزي (الخطط) ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) الجعد بن درهم مبتدع من الموالي له أخبار في الزندقة، قال الذهبي: عداده في التابعين مبتدع ضال، قتله خالد القسري لزعمه أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، (ت ١١٨ هـ) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٣).

(٣) مقاتل بن سليمان الأزدي من أعلام المفسرين كان متروك الحديث وكان يشبه الرب بالمخلوقين، قال أبوحنيفة أفرض مقاتل في الإثبات حتى جعل الله مثل خلقه، (ت ١٠٥ هـ) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١).

والمعطلة قسمان:

* أهل التأويل: وهم الذين يصرفون معاني نصوص الكتاب والسنة عن معانيها الظاهرة بغير حجة وهذا تحريف.

* وأهل التجهيل: وهم الذين ينكرون معاني الأسماء والصفات ويثبتون ألفاظاً لا معاني لها.

الصنف الثاني: وهم المشبهة:

وهم من يشبهون صفات الله بصفات المخلوقين كقولهم لله سمع كسمعي وبصر كبصري.

ومن التشبيه التعرض لكيفية صفات الرب وحقيقتها التي لا يعلمها إلاّ الله، وهؤلاء الحادهم في مقابل الحاد المعطلة فإن أولئك نفوا صفات كماله وجدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه.

الصنف الثالث: السلف المتبعون:

وهم من يصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل. (١)

قال الإمام الصابوني في اعتقاد أصحاب الحديث: إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، وشهد له بها رسوله صلى الله عليه وسلم على ما وردت الأخبار الصحاح به ونقلته العدول الثقات عنه ويثبتون له – جل جلاله – فيها ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا يعتقدون فيها تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه ولا يحرفون كلاماً عن مواضعه، وقد أعاذ الله أهل

---

(١) انظر في هذه الأقسام الفتاوى لشيخ الإسلام ٣/ ٧، ٨ ودرء التعارض ١/ ٨، ٩ ومختصر الصواعق ٥٤، وبدائع الفوائد ١/ ١٧٠.

السنة من التحريف والتكييف والتشبيه ومنَّ عليهم بالتصريف والتفهم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعليل والتشبيه واتبعوا قول الله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (١) الشورى ١١.

والصفات الإلهية تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية

أولاً: الصفات الثبوتية:

Çي ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله وكلها صفات كمال لا نقص بها بوجه من الوجوه كالحياة والعلم والقدرة والاستواء والنزول والوجه واليدين ونحو ذلك.

وهذا مما تضافرت به الأدلة على وجه التفصيل حيث بعث الله رسله بإثبات مفصل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل. (٢)

ثانياً: الصفات السلبية:

وهي التي نفاها الله تبارك وتعالى عن نفسه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز والتعب، وهذا النفي مجمل فإن الرسل نفوا عن الله ما لا يليق به على وجه الإجمال دون التفصيل.

والصفات السلبية تتضمن إثبات كمال ضدها مع تنزيه الرب عن العدم والنفي المحض، وأن النفي يلتزم به المنافي الأدب مع الله تبارك وتعالى. (٣)

---

(١) اعتقاد السلف أصحاب الحديث للصابوني صـ ٣، ٤.

(٢) القواعد المثلى لابن عثيمين ٣١ والتدمرية لابن تيمية صـ ٨

(٣) القواعد الكلية للصفات د. البريكان صـ ١٦٢.

ومجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض والعدم المحض ليس بشيء وما ليس بشيء هو كما قيل: ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحاً أو كمالاً. (١)

وقد نبه على هذا الإمام الكناني في مناظرته لبشر المريسي فقال: إن نفي السوء لا تثبت به المدحة، قال بشر: وكيف ذلك، قال: إن قولي هذه الأسطوانة لا تجهل ليس هو إثبات العلم لها. (٢)

والصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين:

ذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال الله متصفاً بها كالعلم والسمع والبصر والحياة ومنها الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئة الله إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا، والمحبة والغضب والرضا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً.

وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئة الله يتكلم متى شاء بما شاء. (٣)

وذهب إلى هذا التقسيم من المتكلمين أبو الهذيل العلاف من المعتزلة والباقلاني من الأشاعرة. (٤)

---

(١) القواعد الكلية صـ ١٥٩ والتدمرية صـ ٥٧.

(٢) الحيدة صـ ٤٦

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٧٦ والتوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٢ وشروح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٣/ ٤٥٢.

(٤) انظر مقالات الإسلاميين ١/ ١٦٥، والتمهيد للباقلاني صـ ٢٦٢.

وكذا قسم بعض أهل السنة الصفات إلى قسمين سمعية وعقلية يظهر هذا من كلام الإمام أحمد وابن كلاب (١) وعبدالعزيز المكي كما صرح به ابن تيمية. (٢)

ويظهر لنا أن تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية أنه متقدم وذلك بالنظر إلى كلام الإمام ابن خزيمة كما ذكر ذلك في كتاب التوحيد، فقال في باب ذكر إثبات وجه الله: جل ربنا عن ان يهلك شيء منه مما هو من صفات ذاته. (٣)

وقال في صفة الاستواء: باب ذكر استواء خالقنا العلي الأعلى الفعال لما يشاء على عرشه (٤)، فعدها من صفات الأفعال.

والإمام أبو الحسن الأشعري فقال في رسالته إلى أهل الثغر: " ومعرفة أسماءه الحسنى وما هو عليه من صفات نفسه وصفات فعله (٥) ".

---

(١) عبدالله بن سعيد القطان، رأس المتكلمين في زمانه أخذ عنه داود الظاهري والحارث المحاسبي وإليه تنسب الكلاَّبيه، (ت ٢٤٥ هـ) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٤).

(٢) التدمرية صـ ١٤٩، ١٥٠ وانظر أصول الدين عند أبي حنيفة للخميس صـ ٣٠٥.

(٣) ١/ ٢٤ كتاب التوحيد.

(٤) ١/ ٢٣١ كتاب التوحيد.

(٥) رسالة إلى أهل الثغر صـ ١٧٧.

الفصل الأول: الصفات الذاتية

المبحث الأول: ما ورد في السمع والبصر

وصف الله تبارك وتعالى نفسه بالسمع والبصر في القرآن الكريم، ومن ثم وجب الإيمان بأن لله تعالى سمعاً وبصراً يليقان بجلاله فهما صفتان حقيقتان فكما أن له ذاتاً حقيقية لا تشبه الذوات فله صفات حقيقة لا تشبه صفات الخلق، وقد ورد إثبات صفة السمع في سبع وخمسين آية، وإثبات صفة البصر في خمسين آية.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ البقرة ١٢٧، وقوله: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ المجادلة ١، وقوله: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ النساء ١٣٤، وقوله: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى ١١، وهذا الذي بوب له البخاري –رحمه الله تعالى– لإثبات هذه الصفة والرد على من تأولها فقال: باب قول الله تعالى ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ النساء ١٣٤.

وأورد – رحمه الله– أحاديث تدل على مقصود الترجمة لإثبات هاتين الصفتين وصار حجة لمن جاء بعده، منها حديث عائشة – رضي الله عنها– قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات فأنزل الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾.

وحديث أبي موسى -رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: " اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، تدعون سمعياً بصيراً قريباً".

وحديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن جبريل عليه السلام ناداني قال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك"

ومناسبة الأحاديث للترجمة واضحة إن لله سمعاً حقيقياً ثم أورد حديث أبي بكر -رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت فاغفر لي من عندك مغفرة إنك أنت الغفور الرحيم).

فمناسبته والله أعلم كما قال ابن بطال: أن دعاء أبي بكر يقتضي أن الله سميع لدعائه ومجازيه عليه، وقال غيره لما كان بعض الذنوب مما يسمع وبعضها مما يبصر لم تقع مغفرته إلا بعد السمع والإبصار. (١)

وقال ابن المنير: لولا أن سمع الله يتعلق بالسر وأخفى لما أفاد الدعاء في الصلاة سراً. (٢)

وقال الغنيمان: والمقصود من الحديث في هذا الباب أن المدعو لابد أن يكون سميعاً يسمع دعوة الداعي إذا دعاه بصيراً بحاله يوصل إليه ما طلب بقدرته وإلاّ تكون دعوته ضلال وسدى. (٣)

---

(١) الفتح ١٣/ ٣٨٧.

(٢) المتواري لإبن المنير صـ ٤١٥.

(٣) شرح كتاب التوحيد ١/ ١٩٦.

قال الخطابي -رحمه الله-: السميع بمعنى السامع إلاّ أنه أبلغ في الصفة، وبناؤه فعيل بناء المبالغة، كقولهم عليم من عالم وقدير من قادر (١)، وبهذا أيضاً فسره ابن جرير فقال: "وهو السميع البصير" السميع لما ينطق به خلقه من قول. (٢)

وقال (في البصير) والله ذو ابصار بما يعملون لا يخفى عليه شيء من أعمالهم بل هو بجميعها محيط ولها حافظ ذاكر حتى يذيقهم بها العقاب باجزاءها، وأصل بصير مبصر، من قول القائل أبصرت فأنا مبصر ولكن صرف إلى فعيل كما صرف مسمع إلى سميع وعذاب مؤلم إلى اليم ومبدع إلى بديع وما أشبه ذلك. (٣)

وقد خالف أهل السنة في فهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: الجهمية وتبعهم المعتزلة وتأولوا السمع والبصر أنهما بمعنى العلم، فقالوا إنه عالم بالأصوات والألوان لا يسمع بسمع ولا يبصر ببصر، وضربوا مثالاً بقولهم عن الأعمى ما أبصره أي ما أعلمه وإن كان لا يبصر بعين وادعوا أنه لم يثبت نص أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر.

وقد وافق الجهمية في هذا القول من المعتزلة: الكعبي (٤) ومعتزلة بغداد. (٥)

وقد نبه بعض شراح البخاري إلى أن هذا هو مقصوده - رحمه الله- إذ أن كتابه في الرد على الجهمية وأنه بوب بقوله وكان الله سميعاً بصيراً ليثبت هاتين الصفتين وأنه يسمع ويبصر حسب تسلسل النصوص التي أوردها ويمكن القول بهذا وبالرد على المعتزلة.

---

(١) شأن الدعاء صـ ٥٩.

(٢) جامع البيان ٢٥/ ٩.

(٣) جامع البيان ١/ ٣٤١.

(٤) عبدالله بن أحمد بن محمود الكعبي، أحد أئمة المعتزلة وتنسب إليه الكعبية، (ت ٣١٩ هـ) الأعلام (١/ ٦٥).

(٥) نهاية الأقدام صـ ٣٤١. والفرق بين الفرق صـ ١٦٥، ١٦٧.

كما قال ابن بطال -رحمه الله-: غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال إن (معنى سميع بصير) عليم وقال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال فمن انفرد في أحدهما دون الآخر فصح أن كونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر كما تضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً أو بين كونه ذا سمع وبصر، قال وهذا قول أهل السنة قاطبة. (١)

ولهذا عقد الإمام عثمان الدارمي فصلاً حافلاً في رده على الجهمية وفي رده على بشر المريسي خاصة، أورد فيه شبة القوم والرد عليهم من الكتاب والسنة والعقل والزمهم بعدة لوازم على قولهم بالتأويل منها:

١ - القول بعجز الله إذ من لا يسمع ولا يبصر عاجز كما قال الخليل ﴿يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ مريم ٤٢.

٢ - إن السمع والبصر إذا كان اثباتهما نفياً للعجز وجب أن نصف الله كما وصف به نفسه وهو أعلم بصفات نفسه.

٣ - أنه لا يلزم من ثبوت السمع والبصر أن يكون بعضه سميعاً وبعضه بصيراً، ومثل هذا لا يصلح وصفه لأدنى الحيوانات، فكيف بالخالق سبحانه وتعالى. (٢)

فكان أن أورد - رحمه الله - أكثر أحاديث البخاري في الرد على شبهة الجهمية، وقد ورد حديث آخر في إثبات السميع بسمع والبصير ببصر ما رواه أبوداود عن أبي هريرة -رضي

---

(١) الفتح ١٣/ ٣٨٥.

(٢) انظر تفصيل ذلك في الرد على بشر المريسي صـ ٣٩٩ وما بعدها. والحجة للأصبهاني ١/ ١٧٦.

الله عنه- قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ النساء ٥٨. فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه. (١)

قال البيهقي: والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق الوصف لله عز وجل بالسمع والبصر، ثم قال وأفاد أنه سميع بصير، له سمع وبصر، لا على معنى أنه عليم إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب؛ لأنه محل العلوم منا وليس في الخبر إثبات الجارحة -تعالى الله- عن شبه المخلوقين علواً كبيراً. (٢)

ومثل هذا روى عن ابن عباس -رضي الله عنه- في قوله تعالى ﴿تجري بأعيننا﴾ القمر ١٤. قال أشار بيده إلى عينه. (٣)

قال إمام الأئمة ابن حزيمة في هذا الباب العظيم: وتدبروا أيها العلماء ومقتبسوا العلم مخاطبة خليل الرحمن أباه وتوبيخه إياه لعبادته من كان يعبد، تعقلوا بتوفيق خالقنا -جل وعلا- صحة مذهبنا وبطلان مذهب مخالفينا من الجهمية المعطلة، ثم أطال -رحمه الله- في رد شبه الجهمية واستدل بأحاديث البخاري في إثبات أن الله يسمع بسمع ويبصر ببصر مع التنزيه اللائق بالله تبارك وتعالى والله أعلم. (٤)

قال ابن القيم -رحمه الله-:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان

ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان

والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

---

(١) أخرجه أبو داود ح (٤٧٢٨).

(٢) الأسماء والصفات صـ ٢٣٤. والحديث حسنه الحافظ في الفتح ٣/ ٣٧٣.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٣/ ٤٥٦.

(٤) التوحيد لابن خزيمة ١/ ١٠٦ وما بعدها.

وهو البصير يرى دبيب النملة الـ ... سوداء تحت الصخر والصواني

ويرى مجاري القوت في أعضاءها ... ويرى عروق بياضها بعيان

ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الإجفان (١)

---

(١) شرح النونية ٢/ ٢١٥.

المبحث الثاني: ما ورد في العلم والقدرة

المطلب الأول: ما ورد في العلم

أثبت أهل السنة والجماعة أن علم الله شامل لجميع الأشياء صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها، وعلمه محيط بجميع الأشياء في كل الأوقات أزلاً وأبداً، فقد علم تعالى في الأزل جميع ما هو خالق وعلم جميع أحوال خلقه وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم شقاوتهم وسعادتهم ومن هو من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار.

قال تعالى واصفاً نفسه: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا﴾ الجن ٢٦، وقال: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ لقمان ٣٤، وقال: ﴿أنزله بعلمه﴾ النساء ١٦٦، وقال: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه﴾ فاطر ١١، وقال: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ فصلت ٤٧ وغيرها من الآيات. فقد ورد اسمه العليم المتضمن لعلمه في القرآن الكريم في مائة وسبع وخمسين موضعاً تقدم منها ما أستدل به الإمام البخاري -رحمه الله-.

وقد أورد حديثين في ذلك وهما حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلاّ الله)، وأثر عائشة -رضي الله عنها- وفيه قالت: (من حدثك أنه يعلم الغيب، فقد كذب. وهو يقول (لا يعلم الغيب إلا الله).

ثم نقل البخاري -رحمه الله- عن الإمام يحيى الفراء في أحد معاني الظاهر والباطن، قال: قال يحيى (١): الظاهر على كل شيء علماً والباطن على كل شيء علماً، وهي تفسير لقوله

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٢.

تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ ولأن في آخرها دلالة صريحة على صفة العلم فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾. (١)

وهذا الباب من الإمام البخاري ردٌ على غلاة القدرية وعلى الذين ينكرون علم الله السابق، وقد أنكر عليهم السلف إنكاراً شديداً وكفروهم، بل وأفتوا بقتلهم إن لم يرجعوا، قال الإمام أحمد -رحمه الله-: القدري الذي يقول إن الله لم يعلم الشيء حتى يكون هذا كافر.

وقال أبو بكر المروزي سمعت أبا عبد الله (يعني أحمد بن حنبل) يقول: إذا جحد العلم قال: إن الله عز وجل لا يعلم الشيء حتى يكون استتيب فإن تاب وإلاّ قتل. (٢)

ونتيجة لهذا الإنكار من السلف ولرداءة هذا المعتقد تراجع تراجعاً سريعاً حتى لم يعد له وجود، وأشار إلى ذلك شيخ الإسلام، فقال: " لما اشتهر الكلام في القدر ودخل فيه كثير من أهل النظر والعباد صار جمهور القدرين يقرون بتقدم العلم وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق. (٣)

وقال الحافظ: وقد حكى المصنفون في المقالات عن طوائف من القدرية إنكار كون الباري عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم وإنما يعلمها بعد كونها، قال القرطبي: قد انقرض هذا المذهب ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين، قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد

---

(١) شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الحق الهاشمي صـ ٣٠.

(٢) السنة للخلاّل ٣/ ٥٣٢.

(٣) الإيمان لابن تيمية صـ ٣٦٩.

مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول. (١)

وهذا الذي عناه الإمام الشافعي -رحمه الله- بقوله: ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا. (٢)

وقولهم هذا حدث في أواخر عصر الصحابة، فقد جاء عن يحيى بن يعمر (٣) قال: كان أول من قال في القدر معبد الجهني (٤) ثم ساق قصة لقاءه بعبد الله بن عمر وعرض عليه أمر هؤلاء وأنهم يقولون لا قدر وأن الأمر أنف فقال ابن عمر: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وانهم براء مني والذي يحلف به ابن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر. (٥)

ومعنى قولهم لا قدر وأن الأمر أنف، أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه، وأن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم من يعصيه ممن يطيعه حتى فعلوا ذلك فعلمه بعدما فعلوه. (٦)

---

(١) فتح الباري ١/ ١١٩.

(٢) شرح الطحاوية صـ ٣٥٤.

(٣) يحيى بن يعمر العدواني، أول من نقَّط المصاحف، كان من علماء التابعين وكان فصيحاً، (ت ١٢٩ هـ) الأعلام (٨/ ١٧٧).

(٤) معبد بن عبدالله البصري، أول من قال بالقدر من التابعين، وعنه أخذ غيلان مقالته قُتِل على القول بالقدر (ت ٨٠ هـ) الأعلام (٧/ ٢٦٤).

(٥) رواه مسلم ١/ ٣٦.

(٦) انظر للتوسع الإيمان لابن تيمية صـ ٣٦٤ - ٣٦٩.

وقد فصل شيخ الإسلام موقف الناس من علم الله تبارك وتعالى فقال: الناس المنتسبون إلى الإسلام في علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والعلوم وهو قول طائفة من الصفاتية من الكلابية والأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات.

الثاني: أنه لا يعلم المحدثات إلاّ بعد حدوثها وهو أصل قول القدرية.

الثالث: أنه يعلمها قبل حدوثها ويعلمها بعلم آخر حين وجودها (١)، وهذا هو قول السلف، فقد قال إمام الأئمة ابن خزيمة –رحمه الله–: باب ذكر إثبات العلم لله جل

وعلا تباركت أسماؤه وجل ثناؤه بالوحي المنزل على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، لا بنقل الأخبار التي هي من نقل علم الخاص – ثم قال– فأعلمنا الله انه أنزل القرآن بعلمه وأخبرنا أن أي أنثى لا تضع إلا بعلمه. . فكفرت الجهمية وأنكرت أن يكون لخالقنا علم مضاف إليه من صفات الذات. (٢)

وقد أفاض الإمام عثمان (٣) الدارمي في رده على بشر المريسي ومن تابعه من المعتزلة كابي الهذيل وغيره على اختلاف درجاتهم في إنكار العلم جملة أو من أثبت العلم وقال إنه غير الله وأنه محدث مخلوق أو من قال إن علم الله هو الله. (٤)

---

(١) جامع الرسائل ١/ ١٧٧ باختصار. تحقيق رشاد سالم.

(٢) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٢.

(٣) الرد على المريسي صـ ٤٤٠. الرد على الجهمية صـ ٢٢١.

(٤) الفرق بين الفرق صـ ٢١١ ومقالات الإسلاميين ١/ ٢٩٣.

ومثله الإمام الأشعري قال: قد علم الله عز وجل نبيه الشرائع والأحكام والحلال والحرام ولا يجوز أن يعلم ما لا يعلمه، فكذلك لا يجوز أن يعلم الله نبيه ما لا علم له به، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً. (١)

وهكذا الإمام البخاري -رحمه الله- بوب بالآيات الدالة على علم الله الأزلي، قال ابن بطال: في هذه الآيات إثبات علم الله تعالى وهو من صفات ذاته خلافاً لمن قال عالم بلا علم. (٢)

وأورد الإمام البيهقي آيات وأحاديث الباب وغيرها، وقال: كان الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني (٣) يقول من أسامي صفات الذات ما هو للعلم، منها العليم ومعناه يعلم جميع المعلومات، ومنها الخبير يعلم ما يكون قبل أن يكون، ومنها الحكيم يعلم دقائق الأوصاف، ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر، ومعناه لا يغيب عنه شيء، ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى ما علم، ومنها المحصي ويختص أنه لا تشغله الكثرة عن العلم. (٤)

وبهذه المعاني اللائقة بالله فسر الإمام الطبري -رحمه الله- وغيره من أئمة السلف الآيات التي استشهد بها البخاري وبوب بها فقال: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا﴾ الجن ٢٦، أي عالم ما غاب عن أبصار خلقه فلم يروه، فلا يظهر على غيبه أحدا فيعلمه أو يريه أياه، إلا من ارتضى من رسول فإنه يظهره على ما شاء من ذلك. (٥)

---

(١) الإبانة للأشعري صـ ١١١. وقد أفاض - رحمه الله- في مناقشتهم هناك.

(٢) الفتح ١٣/ ٣٧٤.

(٣) إبراهيم بن محمد بن مهران، عالم بالفقه والأصول، كان ثقة في رواية الحديث وله مناظرات مع المعتزلة، (ت ٤١٨ هـ) الأعلام (١/ ٦١).

(٤) الأسماء والصفات صـ ١٤٤.

(٥) الطبري ٢٩/ ١٢١.

وقال البغوي: عالم الغيب رفع على نعت قوله (ربي) وقيل هو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه إلا من يصطفيه لرسالته فيظهره على ما شاء من الغيب؛ لأنه يستدل على نبوته بالآية المعجزة بأن يخبر عن الغيب. (١)

وقوله ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية، هي موافقة لحديث الباب، أعني حديث ابن عمر قال: قال عليه الصلاة والسلام: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلاّ الله.

قال ابن كثير –رحمه الله– عند تفسير هذه الآية: هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلاّ بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لا يجليها لوقتها إلاّ هو﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلاّ الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء من خلقه – ثم قال– وهذه شبيهة بقوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو﴾ وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب. (٢)

وقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ النساء ١٦٦، قال ابن الجوزي فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنزله وفيه علمه.

الثاني: أنزله من علمه.

الثالث: أنزله إليك بعلم منه إنك خيرته من خلقه، قاله ابن جرير. (٣)

---

(١) تفسير البغوي ٨/ ٢٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٢١ – ٧٢٢.

(٣) زاد المسير ٢/ ٢٥٧. والطبري ٦/ ٣١.

وقوله: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه﴾ فاطر ١١، وقوله: ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه﴾ فصلت ٤٧.

قال البغوي -رحمه الله- أي علمها إذا سئل عنها مردود إليه لا يعلمه غيره، وقوله إلاّ بعلمه: إلاّ بإذنه. (١) وقال ابن جرير -رحمه الله-: إلى الله يرد العالمون به علم الساعة، فإنه لا يعلم قيامها غيره. (٢)

وعلى هذا جرى الإمام اللالكائي -رحمه الله- في عرضه لشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، فقال: سياق ما دل من كتاب الله وما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن الله عالم بعلم وأن علمه غير مخلوق ثم ساق الأدلة الكثيرة على هذا. (٣)

---

(١) تفسير البغوي ٧/ ١٧٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٥/ ٢.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للألكاني ٢/ ٤٤٧.

المطلب الثاني: ما ورد في القدرة

القدرة من صفات الله تبارك وتعالى الذاتية ومن أسماءه القادر والقدير والمقتدر، لكن القادر مقيدة مثل قوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ الأنعام ٦٥، أما القدير فجاءت مطلقة مثل ﴿وهو العليم القدير﴾ الروم ٥٤، والمقتدر جاءت مطلقة ﴿عند مليك مقتدر﴾ القمر ٥٥، وكل هذا راجع إلى معنى واحد وهو القدرة.

قال ابن الأثير (القادر والمقتدر والقدير) القادر اسم فاعل من قدر يقدر، والقدير فعيل منه وهو للمبالغة، والمقتدر مفتعل من اقتدر وهو أبلغ. (١)

وهذه الصفة وردت في القرآن بصيغ القادر والمقتدر والقدير أكثر من اثنتي عشرة مرة، قال الإمام البيهقي: هو الذي له القدرة الشاملة والقدرة له صفة قائمة بذاته. (٢)

وقال الخطابي: القادر هو من القدرة على الشيء، يقال قدر يقدر قدرة فهو قادر وقدير، كقوله ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾ الأحزاب ٢٧. ووصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء أراده لا يعترضه عجز ولا فتور.

وقد اتفق المسلمون وأهل الملل على أن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب بل له القدرة الشاملة الكاملة.

ومعنى قدرة الله تعالى: قدرته على الفعل. والفعل نوعان: لازم، ومتعد، فالأفعال اللازمة هي تقوم بالفاعل ولا تتعدى إلى مفعول، وقد ذكر النوعان في قوله تعالى ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ الحديد ٤، قال شيخ الإسلام: الاستواء والأتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعال لازمة لا تتعدى إلى مفعول بل هي قائمة

---

(١) النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٢).

(٢) الاعتقاد للبيهقي صـ ٦٣.

بالفاعل والخلق والرزق والأمانة الإحياء والإعطاء والمنع والهدي والنصر والتنزيل ونحو ذلك تتعدى إلى مفعول. ثم ذكر اختلاف الناس في ذلك وأنهم على ثلاثة أقوال:

أحدها: من لا يثبت فعلاً قائماً بالفاعل فاللازم عنده منتفٍ والمتعدي كالخلق فهو عنده هو المخلوق أو معنى غير المخلوق ونسب هذا القول إلى الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم.

والثاني: أن الفعل المتعدي قائم بنفسه دون اللازم، فالخالق قائم بنفسه ليس هو المخلوق.

والثالث: من يثبت الفعلين اللازم والمتعدي، كما يثبته القرآن وهو قول السلف وأئمة السنة.

ثم قال بعد أن أفاض في الردود عليهم " والمقصود التنبيه على تنازع الناس في مسألة القدرة وفي الحقيقة أنه من لم يقل بقول السلف فإنه لا يثبت لله قدرة ولا يثبته قادراً، فالجهمية – ومن تبعهم – والمعتزلة والقدرية والمجبرة والنافية حقيقة قولهم أنه ليس قادراً وليس له الملك فإن الملك إما أن يكون هو القدرة أو المقدور أو كلاهما وعلى كل تقدير فلابد من القدرة فمن لم يثبت له القدرة لم يثبت له ملكاً كما لا يثبتون له حمداً (١)، وعلى هذا جرى الإمام البخاري –رحمه الله– فبوب بقوله باب قول الله تعالى ﴿قل هو القادر﴾، وهنا أطلق –رحمه الله– لكي تعم القدرة التي هي من صفات الذات لا من صفات الفعل فقط ثم أورد حديث الاستخارة وفيه (واستقدرك بقدرتك فإنك تقدر ولا أقدر) ليبين أن أسماء الله ليست جامدة بل متضمنة للصفات والمعاني التي تدل عليه وهي القدرة. وهناك من فسر من الشراح القدرة بالقوة، والقوة بالقدرة وأنهما بمعنى واحد.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الفتاوى (٨/ ١٨ – ٣٠)

قال ابن بطال في باب قوله تعالى ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ الذاريات ٥٨، قال القوة بمعنى القدرة، وقال البيهقي: القوي التام القدرة لا ينسب إليه عجز في حالة من الأحوال ويرجع معناه إلى القدرة والقادر.

وقال الحافظ" الحديث رد على من قال إنه قادر بنفسه لا بقدرة؛ لأن القوة بمعنى القدرة. (١)

وذكر الحافظ –رحمه الله– مثل هذا في باب [قل هو القادر] وأحال إلى الموضع السابق. وهذا خلاف ظاهر الآيات لأنه يمكن تفسير القوة بأنها الفعل بلا ضعف وليست القدرة؛ لأن القوة الفعل بلا عجز، يستدل بقوله تعالى ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ الروم ٥٤، ولم يقل ثم جعل من بعد ضعف قدرة، وقال سبحانه ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾ فاطر ٤٤، فقال ليعجزه ثم قال إنه كان عليماً قديراً ولم يقل كان عليماً قوياً.

ولأن بينهما فرقاً، فالقوة أكمل من القدرة فمن لا يستطيع حمل صخرة مثلاً يقال له غير قادر ومن يحمله بمشقة يقال إنه قادر غير قوي ومن حمله بسهولة فهو قادر قوي. (٢)

وفي إثبات قدرته التامة تبارك وتعالى تنزيه له ووصف له بما يستحق من الإجلال والتعظيم وهذا معنى قوله تعالى ﴿إنه على كل شيء قدير﴾. فليست القدرة بمعنى القوة بل بينهما فرق، وهنا ننبه بخطأ من يقول (إنه على ما يشاء قدير) فهذا القول فيه تخصيص للقدرة بما يشاء ويلزم من ذلك أن يكون غير قادر على الذي لا يشاؤه ومن هنا يأتي المعتزلة في قولهم

---

(١) الفتح ١٣/ ٣٧٣. و ١٣/ ٣٨٨.

(٢) وانظر شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين صـ ١٩.

إنه لا يشاء أفعال العباد وتكون القدرة هنا من صفات الفعل فقط، فالقدرة لا تتعلق إلاّ بما تعلقت به المشيئة.

قال ابن عباس –رضي الله عنه– في قوله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الزمر ٦٧، قال هذه في الكفار فأما من آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره. (١)

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣١٣.

المبحث الثالث: ما ورد في المشيئة والإرادة

وهي مشيئة الله تبارك وتعالى وإرادته فهو سبحانه ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن، له المشيئة العامة والإرادة التامة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى مشيئته في القرآن الكريم في ما يقرب من أربعمائة موضع.

وهنا مسألة هل الإرادة والمشيئة بمعنى واحد أي مترادفتان أو متباينتان؟

قال الإمام البيهقي –رحمه الله– أنهما بمعنى واحد، فقال: جماع أبواب إثبات صفة المشيئة والإرادة لله وكلتاهما عبارتان عن معنى واحد. (١) وهناك من يفصل بأن المشيئة معناً من معاني الإرادة وليست مرادفة لها. (٢)

والإرادة تنقسم إلى قسمين:

أولاً: إرادة كونية لابد فيها من وقوع المراد، وقد يكون المراد محبوباً أو غير محبوب.

ثانياً: إرادة شرعية، فلا يلزم فيها وقوع المراد، ولا يكون المراد فيها محبوباً لله.

وتكون الإرادة الشرعية بمعنى المحبة.

ودليل الكونية ﴿فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ الأنعام ١٢٥. ودليل الشرعية ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ النساء ٢٧.

وأمر الله تبارك وتعالى نوعان:

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي صـ ١٧٥.

(٢) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين صـ ١٤٧. وانظر شرح كتاب التوحيد للهاشمي صـ ١٤٦. ومعجم ألفاظ العقيدة صـ ٢٩.

أمر تكوين (كوني).

وأمر تعبد (شرعي).

وهذا التقسيم الذي يشير إليه كثيرٌ من متأخري أهل السنة كإبن تيمية وابن القيم وابن إبي العز الحنفي. قد سبقوا إليه، وهو تقسيم متقدم.

وأقدم من وجدته فعل ذلك الإمام محمد بن نصر المروزي صاحب الإمام البخاري وتلميذه والملتقي معه في كثير من شيوخه (٢٠٢ هـ - ٣٩٣ هـ).

قال في كتابه " تعظيم قدر الصلاة" في معرض ذكر الخلاف بين الإيمان والإسلام وبعض مسائله:

والأمر من الله ورسوله قد يتجه على وجوه:

١ - فوجه منه أمر تكوين للشيء، قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾ القمر ٥٠. فهذا أمر التكوين الذي لا يأمر الله به إلاّ مرة واحدة حتى يكون المأمور به كما أراد الله، قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ النحل ٤٠، ومن ذلك قوله تعالى للذين اعتدوا: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ البقرة ٦٥. فكانوا قردة ولم يكن لهم في كونهم قردة نية ولا إرادة.

٢ - ومنه أمر التعبد: قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم﴾ النساء ١٣٥.

فهذا الأمر بخلاف الأمر الأول، هذا أمر تعبد يكون المأمور به بين أمرين:

إن عمل بما أمره الله بنية وإرادة كان مطيعاً لله عاملاً له، وإن ترك أمره قاصداً لذلك، كان عاصياً لله وذلك بتقدير العزيز العليم.

– ثم قال– وأمر التعبد يعيده مرة بعد أخرى ويكرره ويعد على العمل به ويوعد على ترك العمل به، وأمر التكوين لا يكون إلاّ مرة واحدة ولا وعد فيه ولا وعيد. (١)

وهناك إشارة إلى تعلق هذا الأمر بالإرادة وضّحه الإمام ابن القيم بقوله: أمر الله تبارك وتعالى نوعان، أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بأمره وخلقه الكوني وكذلك تتعلق بما يحبه وبما يكرهه كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه وخلق الشياطين والكفار والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه وتعالى شاملة لذلك كله.

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بالأمر الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله فما وجد فيه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعها، فهو محبوب للرب واقع بمشيئته كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته لا محبته، فلفظ المشيئة كوني ولفظ المحبة ديني شرعي والإرادة الكونية هي المشيئة. (٢)

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/ ٥٥٦، ٥٥٨.

(٢) شفاء العليل لابن القيم صـ ٨٨.

وهذا الذي قرره شارع الطحاوية ونسبه إلى المحققين من أهل السنة وأن المشيئة هي الإرادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقوله تعالى عن نوح ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ (١) هود ٣٤.

واختلفوا هل مشيئة الله شاملة لفعله وفعل عباده أو هي خاصة بفعله؟

أهل السنة يقولون أنها عامة فيما يتعلق بفعله وفيما يتعلق بفعل عباده، ففعله كإنزال المطر والأحياء والإماتة، وفعل عباده كصلاح العبد وفساد العبد، قال تعالى ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ فقيد فعلهم بمشيئته فهي شاملة لفعل العبد أيضاً. (٢)

وأما الخلاف فيما يريده الله تبارك وتعالى من مثل قوله ﴿وإذا أردنا﴾ الإسراء ١٦، فالناس فيه على أقوال:

الأول: أن الإرادة أزلية قديمة واحدة وإنما يتجدد تعلقها بالمراد ونسبتها إلى الجميع واحدة، ولكن من خواص الإرادة أنها تخصص وهذا قول ابن كلاب والأشعري ومن تابعهما.

الثاني: أن الإرادة واحدة قديمة لكنها تحدث عند تجدد الأفعال، إرادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة وهو قول الكرامية.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٧٩، ٨٠.

(٢) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين صـ ١٤٨.

الثالث: من ينفون قيام الإرادة به وهو قول الجهمية والمعتزلة على خلاف بينهم فيمن ينفيها أو يفسرها بأنها نفس الأمر والفعل أو يقول بحدوث إرادة لا في محل كقول البصريين من المعتزلة. (١)

الرابع: أنه لم يزل مريد بإرادات متعاقبة، فنوع الإرادة قديم وأما إرادة الشيء المعين فإنه يريده في وقته وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها ثم بعد ذلك يخلقها، فهو إذا قدرها علم ما سيفعله وأراد فعله في الوقت المستقبل لكن لم يرد فعله في تلك الحال، فإذا جاء وقته أراد فعله فالأول عزم والثاني قصد (٢)، وهو قول أهل السنة.

ولعظم هذه المسألة بوب لها الإمام البخاري -رحمه الله- بقوله: بابٌ في المشيئة والإرادة. ثم ساق الآيات والأحاديث التي تنص على مشيئته تبارك وتعالى التامة، وساق في بيانها بعد ست آيات ساق سبعة عشر حديثاً فيها ذكر المشيئة والإرادة بل أشار -رحمه الله- إلى نوعي الإرادة، فأشار إلى الإرادة الكونية بقوله تعالى ﴿توتي الملك من تشاء﴾ آل عمران ٢٦، وقوله ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله﴾ الإنسان ٣٠، وقوله ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله﴾ الكهف ٢٣، وقوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ القصص ٥٦. لأن الإرادة الكونية هي المشيئة العامة التي لا يخرج عنها شيء.

---

(١) انظر تفصيل أقوال المعتزلة في (المعتزلة) د. عواد المعتق صـ ١٠٣ وما بعدها. والرد عليهم في (الإبانة) للأشعري صـ ١١٧ - ١٢٦.

(٢) من كلام شيخ الإسلام (الفتاوى ١٦/ ٣٠١ - ٣٠٣) بتصرف.

وأشار إلى النوع الثاني من الإرادة وهي الدينية الأمرية والتي تتضمن الأمر والمحبة والرضى بقوله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ (١) البقرة ١٨٥.

وأما الأحاديث فسأبين الشاهد منها على وجه الاختصار لطولها فمنها:

حديث أنس (ولا يقولن أحدكم إن شئت فأعطني فإن الله لا مستكره له) فيه أن تعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بأن الله يعطي ما لا يريد كما يحصل لابن آدم وهذا لا يجوز اعتقاده لأن ليس بعد المشيئة إلا الإكراه، والله لا مكره له. (٢)

والحديث الثاني: حديث علي -رضي الله عنه- وفيه [إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا] فيه بيان أنه لا ينبغي معارضة الأمر بالقدر ولهذا انصرف النبي عليه الصلاة والسلام كارهاً لمقالته، وتلا قوله تعالى ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ الكهف ٥٤، ومن إنكاره ضربه فخذه عليه الصلاة والسلام كما في الحديث.

والحديث الثالث: حديث أبي هريرة وفيه قوله [فيقصمها الله إذا شاء] وهي معنى المشيئة النافذة السابقة أي في الوقت الذي سبقت إرادته إن يقصمها فيه.

الحديث الرابع: حديث ابن عمر وفيه [ذلك فضلي أوتيه من أشاء] وهذا رد على المعتزلة إذ الإشارة بقوله [ذلك فضلي] إلى جميع الثواب لا إلى القدر الذي يقابل العمل كما يقوله المعتزلة واثبت مشيئة في فعله لا في فعل العبد. (٣)

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٢٥٢ بتصرف.

(٢) ويدخل في ذلك الدعاء المشهور وليس بحديث [اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه] فهذا من جنس ما نهى عنه الحديث لقوله عليه الصلاة والسلام [لا يرد القدر إلاّ الدعاء] رواه الترمذي ٢/ ٢٠، ولأن في صيغة هذا الدعاء ما يشعر أنه أمر كبير على الله إن يرد القضاء بالدعاء، أو بمعنى لا يهمني الفقر أو المرض ولكن الطف فيه وهذا خطأ. شرح كتاب التوحيد لإبن عثيمين صـ ١٥٥.

(٣) انظر المناسبات في الفتح ١٣/ ٤٥٩ وشرح التوحيد للغنيمان ٢/ ٢٥٦ وابن عثيمين صـ ١٥٨، والفتاوى لشيخ الإسلام ٨/ ٢٤٤، والشريعة للآجري صـ ١٥٠ وما بعدها.

وهكذا في بقية الأحاديث التي تدل على مشيئته تبارك وتعالى وإرادته وما تعلقت به إرادته الكونية، وقد أجمل ووضح شيخ الإسلام –رحمه الله– فذكر أن الأشياء باعتبار تعلق الإرادتين بها من عدمه لا تخرج عن أربعة أقسام:

أحدها: ما تعلقت به الإرادتان وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فهذه مرادة ديناً وشرعاً؛ لأنها محبوبة ومرضية ومرادة كوناً وشرعاً لوقوعها ولولا ذلك لما كانت.

الثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة مما لم يقع كايمان أبي جهل وسائر الكفار، فهذه مرادة ديناً لأنها من الأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها وليست مرادة كوناً لأنها لم تقع.

الثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط وهو ما وقع من المعاصي، فهذه مرادة كوناً؛ لأنها وقعت وغير مرادة ديناً وشرعاً لأن الله لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها.

الرابع: ما لم تتعلق به الإرادة الكونية ولا الشرعية، فهذا ما لم يكن ولم يقع من أنواع المعاصي (١) وهنا تبين أن لفظ الإرادة ينقسم إلى كونية وهي المشيئة وإرادة دينية وهي المحبة والرضى، وأن السلف فهموا الفرق بينهما ويدل على ذلك تنوع الإستدلال في التبويب والتصريح كما في كلام الإمام المروزي.

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ١٨٩.

المبحث الرابع: الصفات (الخبرية)

المطلب الأول: ما ورد في الوجه

وصف الله تبارك وتعالى نفسه في القرآن الكريم بصفات عديدة وورد على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم – ما يوافق هذه الصفات وتلقاها السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بالتسليم، ووصفوا الله على ماوصف به نفسه ومن غير ان يتدخلوا في هذه الصفات بالتأويل أو النفي أو الكيفية أو التحريف اللفظي أو المعنوي.

من هذه الصفات ما وقع فيها الخلاف متأخراً عن القرون المفضلة من وصف الله تبارك وتعالى بالوجه أو اليدين أو العين والقدم والاصابع أو نحوها.

قال الاوزاعي: كان الزهري ومكحول يقولان امروا هذه الاحاديث كما جاءت (يعني احاديث الصفات). وقال سفيان الثوري كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل (١)، إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة عن أئمة الهدى في وجوب الاذعان لكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وقبول ما جاء فيهما من غير تدخل للعقل في تأويل هذه الصفات، وهذه الصفات هي أكثر الصفات التي وقع الاختلاف فيها وتسمى عند اهل الكلام الصفات الخبرية أو السمعية لانها ثبتت بالخبر فقط بخلاف غيرها عندهم فانه ثابت بالسمع والعقل وهذا لا يسلم لهم بل هذه الصفات مثل غيرها وقد وقع فيها الاختلاف بين الناس على ثلاثة مذاهب:

الأول: مذهب أهل السنة والجماعة وهو اثباتها لله عز وجل من غير تمثيل ولا تشبيه، فتصف الله بهذه الصفات على الحقيقة مع نفي مشابهتها للمخلوقين والبعد عن ما يصمه

---

(١) شرح اصول اعتقاد اهل السنه ٣/ ٤٧٨ وقد اطال النقل عن السلف في ذلك

المخالفون من شبهة التجسيم والتشبيه. قال الامام احمد رحمه الله (التشبيه ان تقول يد كيد ووجه كوجه، فأما اثبات يد ليست كالأيدي ووجه كالوجوه فهو إثبات ذات ليست كالذوات (١)

الثاني: مذهب الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم فهؤلاء أولوا فقالوا المراد بالوجه الذات وبالعين العلم واليد بالنعمه وهكذا. . وأدى بهم ذلك الظن إلى التأويل لئلا يقع التشابه بين الله وبين خلقه مع اثباتهم اسماء وصفات يشترك في بعضها المخلوقين مع الله كالعالم والقادر ونحوها.

الثالث: المشبهة الذين شبهوا صفات الله بصفات خلقه وقد ظنوا ان الاتفاق في الاسماء يستلزم الاتفاق في المسميات (٢)

وسنأتي على تفصيل ماورد في هذه الصفات من نصوص.

---

(١) مختصر الصواعق المرسله لابن القيم ١/ ٢٧

(٢) مقالات الاسلاميين للاشعري ١/ ٢٤٧ وما بعدها والفتاوى لابن تيمية ٧/ ٨٨ و ٦/ ٣٥٤.

الوجه (١)

اثبت الله تبارك وتعالى لذاته المقدسة صفة الوجه في أربع عشرة آية من القرآن الكريم فقال ﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾ القصص ٨٨.

وقال ﴿انما نطعمكم لوجه الله﴾ الإنسان ٦، وقال ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾.

وقد دلت السنة على مثل ذلك، فقال – صلى الله عليه وسلم – (جنان الفردوس أربع، جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (٢)، وفي حديث ابو موسى الاشعري رضي الله عنهقال قام فينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور، لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه (٣)

وكان من دعاءه عليه الصلاة والسلام " اسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك" (٤) وقوله فيما استشهد به البخاري رحمه الله فقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهلمّا نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال – صلى الله عليه وسلم – (اعوذ بوجهك)، قال: (أو من تحت أرجلكم)، قال: (أعوذ بوجهك)، قال (أو يلبسكم شيعاً)

---

(١) انظر التوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٥ – ٤٤ والرد على الجهمية لابن مندة ٩٤ – ١٠٣
والاسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٢٥ – ٣٩ والصفات للدار قطني ٥٥ – ٦٥
واصول الاعتقاد للالكائي ٢/ ٤٧٥ والرد على بشر للدارمي ص ٥١٨

(٢) رواه البخاري ٤٨٧٨ ومسلم ٢٩٦ وهذا لفظ مسلم.

(٣) رواه مسلم ٢٩٣.

(٤) رواه ابن ابي عاصم في السنة ح ٤٢٤ قال الالباني (حديث صحيح)

فقال عليه الصلاة والسلام هذا أيسر (١)، وقد ورد مثل هذا الوصف عن صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسلف الامة.

فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه انه سئل بوجه الله فقال: أعطه فانه بوجه الله سأل لا بوجه الخلق. وعن القاسم بن محمد أنه سئل بوجه الله فقال لا يفلح من رّده (٢) وقال الامام ابن خزيمة رحمه الله: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا انا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه نقر بذلك بالسنتنا ونصدق ذلك بقلوبنا من غير ان نشبه وجه خالقنا بوجه احد من المخلوقين (٣) ومثله يروى عن الامام ابي حنيفة فقال: ما ذكره الله في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف (٤)، وقال الامام ابو الحسن الاشعري " فمن سألنا فقال أتقولون أن لله سبحانه وجهاً قيل له نقول ذلك خلافاً لما قاله المبتدعون (٥)

وهذه الصفة يقال فيها ما يقال في الصفات التي تسمى عند المتكلمين الصفات الخبرية فمنهم من نفاها كالجهمية والمعتزلة ومنهم من يتأول هذه الصفات ومنهم من يثبت ماورد في القرآن دون الحديث ويدخل في هذه الاقسام الاخيرة غالب الصفاتية وعلى رأسهم الكلابيه ومن تبعهم، فمن نفى هذه الصفة فالنصوص الكثيرة التي سبق شيء منها يرد عليه ومن أولها فهو لا يخرج عن وصف الوجه بأن المراد به (ذاته أو نفسه وبالنعمة وبالاعمال الصالحة

---

(١) وقد اطال ابن خزيمة في الاحاديث النبوية في ذكر الوجه ثم قال: هذا باب طويل لو استخرج في هذا الكتاب اخبار النبي – صلى الله عليه وسلم – التي فيها ذكر وجه ربنا لطال الكتاب، التوحيد ١/ ٤٤.

(٢) أصول إعتقاد أهل السنة للالكائي ٣/ ٤٥٨

(٣) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٦

(٤) الفقه الأكبر ص ٣٠٢ بواسطة أصول الدين عند ابي حنيفة للخميس ص ٣١٦

(٥) الابانة للاشعري ص ٤١

وبالقبلة) (١) وهنا يظهر أن الذين أولوا هذه الصفة اختلفوا فيما بينهم على تأويلها بل لا تجد فرقتين متفقتين بل في الفرقة الواحدة تجد الإختلاف، ويلزم من تأويل من تأول الوجه انه بهذه التأويلات مخلوق لان النعمة والقبلة والاعمال الصالحة مخلوقة، والبخاري رحمه الله تعالى بوب بآية القصص وهي ﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾ القصص ٨٨. وبحديث (أعوذ بوجهك) فأثبت الوجه لله ثم بيّن أن وجه الله لا يكون مأولاً لأن تأويله بمخلوق يجعله مخلوقاً فأورد حينئذ الاستعاذة به والاستعاذة لا تكون بمخلوق، وهذا غاية الفقه. قال ابن بطال: في هذه الآية والحديث دلالة على ان لله وجهاً وهو من صفات ذاته وليس بجارحة ولا كالوجوه التي نشاهدها من المخلوقين. (٢) وقد يرد الوجه في القرآن ويراد به الثواب أو غيره، قال الامام ابن مندة في قوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ القيامة ٢٣، قال: اجمع اهل التأويل كابن عباس وغيره من الصحابة ومن التابعين محمد بن كعب وعبد الرحمن بن سابط والحسن بن ابي الحسن وعكرمة وابو صالح وسعيد ابن جبير وغيرهم ان معناه إلى وجه ربها ناظرة. (٣) وقال: وأما الذي بمعنى الثواب فكقول الله عز وجل ﴿انما نطعمكم لوجه الله﴾ الانسان ٩ وقوله ﴿ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الانعام ٥٢. (٤) وقد ورد عن بعض السلف كمجاهد وغيره تفسير الوجه بمعنى القبلة وهذا في موضع واحد هو قوله ﴿فاينما تولوا فثم وجه الله﴾ (٥) البقرة ١١٥، فان هذه الآية اختلف فيها هل هي من آيات الصفات أم لا وسواء حصل الاختلاف ام لا، فهل يصح ان يقال ذلك في بقية المواضع التي ذكر فيها الوجه؟ وقد اطال ابن القيم في مختصر الصواعق في بيان هذه المسألة من اثنين وعشرين وجهاً (٦) وقد أورد الامام البخاري رحمه الله آية القصص في كتاب التفسير فقال (كل شيء هالك إلاّ وجهه) إلاّ ملكه ويقال: إلاّ ما أريد به وجه الله فهل أول البخاري هنا؟ أو هل رضي بالتأويل؟ والجواب: أن البخاري لا ريب ممن يثبت صفة الوجه لله تبارك وتعالى على الحقيقة ويدل على ذلك انه أوردها مبوباً لها في كتاب التوحيد وهو مظنة هذه الامور الاعتقادية، ثم اتبعها بحديث (أعوذ بوجهك) فلا إشكال في إثباته للوجه صفة لله، وأما قوله إلاّ ملكه أو ما أريد به وجه الله فقد أوردها في كتاب التفسير عند تفسير سورة القصص، ومعلوم انه يريد بذلك ان هذا من تفسيرها التي تفسر به والذي يلاحظ ان البخاري ينقل عن أئمة اللغة والسلف معاني التفسير خاصة الفراء وابي عبيدة معمر بن المثنى، وقد فهم بعض شراح البخاري ان هذا تأويل منه واحتج بان قوله إلاّ ملكه غير مستقيم لان معنى الآية يكون حينئذٍ (كل شيء هالك إلاّ كل شيء) فان كل شيء ملكه (٧) ولكن البخاري هنا رحمه الله مشى على منهجه في كتاب التفسير وهو ايراد معاني الآية فان قوله (إلاّ ما اريد به وجهه) مروي عن ابن عباس ومجاهد وسفيان كما في الدرر المنثور (٨) وذكر ابو عبيدة (٩) في مجاز القرآن والفراء (١٠)

---

(١) الرد على بشر الدارمي ص ٥١٦ – ٥١٧ (٢) الفتح ١٣/ ٤٠٠ (٣) الرد على الجهمية لابن مندة ص ١٠٢ وتفسير الطبري ٢٩/ ١٩٢ (٤) الرد على الجهمية لابن مندة ص ١٠٣ (٥) الاسماء والصفات للبيهقي ص ٣٨٥

(٦) مختصر الصواعق ٢/ ٣٣٥ – ٣٤٢ (٧) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٢٧٦ (٨) الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٤٤٧ ونسبه البغوي إلى أبي العالية ٣/ ٤٥٩. (٩) معمر بن المثنى أبو عبيدة النحوي من أئمة العلم بالأدب واللغة، كان إباضياً، مكثر من التاليف في اللغة، (ت ٢٠٩ هـ) الأعلام (٧/ ٢٧٢). (١٠) يحيى بن زياد الديلمي إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة يقال الفراء: أمير المؤمنين في النحو، وكان فقيهاً متكلماً، (ت ٢٠٧ هـ) الأعلام (٨/ ١٤٥).

في معاني القرآن (١) ان معناها (إلاّ هو) وقال ابن كثير (إلاّ اياه) ثم ذكر ان لا منافاة بين القولين، فقول مجاهد والثوري ومن وافقهما اخبار عن كل الاعمال بانها باطلة إلاّ ما اريد بها وجه الله من الاعمال الصالحة المطابقة للشريعة والقول الآخر مقتضاه ان كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلاّ ذاته تعالى فانه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. (٢)

وقد نبه الحافظ ان في بعض روايات البخاري انه قال: قال معمر وهي رواية النسفي وهذا وهم فليس في كتاب معمر هذا اللفظ كما تقدم. ولفظ (إلاّ ملكه) ذكره غير واحد من السلف كما نقله شيخ الاسلام في الفتاوى عن الامام طاووس بن كيسان (٣) قوله (إلاّ ملكه) (٤) فالبخاري ناقل عن امام من أئمة السلف وهذه طريقته، فهذا من معاني قوله إلاّ وجهه وهذا الذي فهمه المفسر أبو حيان في تفسيره فقال (إلاّ ملكه) يفسرها قول الله حين ينفخ في الصور فتهلك جميع الخلائق فيقول ﴿لمن الملك اليوم﴾ (٥) غافر ١٦، وقال شارح الطحاوية في رده على الجهمية في استدلالهم بهذه الآية على عدم وجود الجنة والنار الآن، قال: فلم توفقوا أنتم ولا اخوانكم لفهم معنى الآية وإنما وفق لذلك أئمة الاسلام فمن كلامهم: ان المراد

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤ مجاز القرآن لابى عبيدة ٢/ ١١٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٣

(٣) طاووس بن كيسان الخولاني من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية في الحديث وتقشفاً في العيش وجرأة على وعظ الخلفاء، توفي حاجاً في مزدلفة سنة ١٠٦ هـ الأعلام (٣/ ٢٢٤).

(٤) الفتاوى ٢/ ٤٢٨

(٥) البحر المحيط لابي حيان النحوي (٤/ ١٧٣).

كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء وكذلك العرش فانه سقف الجنة وقيل المراد إلاّ ملكه وقيل إلاّ ما أريد به وجهه. (١)

وقال الطبري في قوله تعالى ﴿لمن الملك اليوم. .﴾، يعني يقول الله لمن الملك فترك ذكر ذلك استغناء لدلالة الكلام عليه. (٢)

وعلى هذا يزول الاشكال في هذه المسألة فليس السلف هنا يقولون بان ظاهر الآية ممتنع أو ينفونها ولكن هنا استعمل التأويل على أصله الصحيح وهو التفسير ومعرفة المعنى وهو ما يعتمد على تفسير القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة التابعين وتابعيهم والمعرفة بأساليب اللغة العربية وليس إلى ما ذهب اليه المتكلمون وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناً آخر مع عدم اثبات الصفة أوصلهم إلى ذلك إلاّ لتقديمهم آرائهم على نصوص الوحي وجعلوها ميزاناً يوزن به كلام الله ورسوله فما وافق موازينهم قبلوه وما خالفها أولوه أو ردوه. فيثبت عندهم اللفظ ويصح النص ثم يحرفونه وهو ما يسمونه تأويلاً.

---

(١) شرح الطحاوية ص ٦٢٠

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٨٠، كما في الفتح ١٣/ ٣٨٠.

ولأهمية هذه المسألة انقل قواعد لشيخ الاسلام موضحة لمثل هذه المسألة

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: ويجوز باتفاق المسلمين أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى وبصرف الكلام عن ظاهره إذ لا محذور في ذلك عند أحد مناهل السنة وإن سمي تأويلا وصرفا عن الظاهر فذلك لدلالة القرآن عليه لأنه تفسير للقرآن بالقرآن ليس تفسيرا له بالرأي، والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغير دلالة من الله ورسوله والسابقين والله اعلم ٠٠ (١)

وقال رحمه الله:

وهذا التوحيد وتفسيره المذكور فى قوله (ألا كل شئ ما خلا الله باطل) هو نحو مما ذكر فى قوله تعالى ﴿كل شئ هالك الا وجهه﴾ بعد قوله ... ﴿فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون﴾ فإن ذكره ذلك بعد نهيه عن الاشراك وأن يدعو معه الها آخر وقوله لا اله الا هو يقتضى أظهر الوجهين وهو أن كل شئ هالك الا ما كان لوجهه من الأعيان والاعمال وغيرهما

روى عن أبي العالية قال الا ما أريد به وجهه وعن جعفر الصادق الا دينه ومعناهما واحدوقد روى عن عبادة بن الصامت قال يجاء بالدينا يوم القيامة فيقال ميزوا ما كان لله منها قال فيماز ما كان لله منها ثم يؤمر بسائرها فيلقى فى النار وقد روى عن على ما يعم ففى تفسير الثعلبى عن صالح بن محمد عن سليمان ابن عمرو عن سالم الافطس عن الحسن وسعيد بن جبير عن على بن أبى طالب أن رجلا سأله فلم يعطه شيئا فقال أسألك بوجه الله فقال له

---

(١) الفتاوى ٦/ ٢١

على كذبت ليس بوجه الله سألتنى انما وجه الله الحق ألا ترى الى قوله كل شئ هالك الا وجهه يعنى الحق ولكن سألتنى بوجهك الخلق وعن مجاهد الا هو وعن الضحاك كل شئ هالك الا الله والجنة والنار والعرش وعن ابن كيسان إلا ملكه

وذلك أن لفظ الوجه يشبه أن يكون فى الاصل مثل الجهة كالوعد والعدة والوزن والزنة والوصل والصلة والوسم والسمة لكن فعله حذفت فاؤها وهى أخص من الفعل كالآكل والإكلة فيكون مصدرا بمعنى التوجه والقصد كما قال الشاعر

أستغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد اليه الوجه والعمل

ثم أنه يسمى به المفعول وهو المقصود المتوجه اليه كما فى اسم الخلق ودرهم ضرب الأمير ونظائره ويسمى به الفاعل المتوجه كوجه الحيوان يقال أردت هذا الوجه أى هذه الجهة والناحية ومنه قوله ولله المشرقوالمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله أى قبلة الله ووجهة الله هكذا قال جمهور السلف وان عدها بعضهم فى الصفات وقد يدل على الصفة بوجه فيه نظر وذلك أن معنى قوله أينما تولوا أى تتولوا أى تتوجهوا وتستقبلوا يتعدى الى مفعول واحد بمعنى يتولاها ونظير ولى وتولى قدم وتقدم وبين وتبين كما قال لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وقال بفاحشة مبينة وهو الوجه الذى لله والذى أمر الله أن نستقبل فان قوله ولله المشرق والمغرب يدل على أن وجه الله هناك من المشرق والمغرب الذى هو لله كما فى آية القبلة سيقول السفهاء من الناس ما ولا هم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فلما سألوا عن سبب التولى عن القبلة أخبر أن له المشرق والمغرب

وأما لفظ وجهة مثل قوله ولكل وجهة هو موليها فقد يظن أيضا أنه مصدر كالوجه كالوعدة مع الوعد وانها تركت صحيحة فلم تحذف فاؤها وليس كذلك

لأنه لو كان مصدرا لحذفت واوه وهو الجهة وكان يقال ولكل جهة أو وجه وإنما الفعلة هنا بمعنى المفعول كالقبلة والبدعة والذبحة ونحو ذلك فالقبلة ما استقبل والوجهة ما توجه اليه والبدعة ما ابتدع والذبحة ما ذبح ولهذا صح ولم تحذف فاؤه لأن الحذف إنما هو من المصدر ... ... الخ كلامه. (١) وقال رحمه الله: فإنه كثيرا ما يغلط الناس في هذا الموضع إذا تنازع النفاة والمثبتة في صفة ودلالة نص عليها يريد المريد أن يجعل ذلك اللفظ – حيث ورد – دالا على الصفة وظاهرا فيها. ثم يقول النافي: وهناك لم تدل على الصفة فلا تدل هنا. وقد يقول بعض المثبتة: دلت هنا على الصفة فتكون دالة هناك؛ بل لما رأوا بعض النصوص تدل على الصفة جعلوا كل آية فيها ما يتوهمون أنه يضاف إلى الله تعالى – إضافة صفة – من آيات الصفات. كقوله تعالى: ﴿على ما فرطت في جنب الله﴾. وهذا يقع فيه طوائف من المثبتة والنفاة وهذا من أكبر الغلط فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه. وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية وهذا موجود في أمر المخلوقين يراد بألفاظ الصفات منهم في مواضع كثيرة غير الصفات. وأنا أذكر لهذا مثالين نافعين (أحدهما صفة الوجه فإنه لما كان إثبات هذه الصفة مذهب أهل الحديث والمتكلمة الصفاتية: من الكلابية والأشعرية والكرامية وكان نفيها مذهب الجهمية: من المعتزلة وغيرهم ومذهب بعض الصفاتية من الأشعرية وغيرهم صار بعض الناس من الطائفتين كلما قرأ آية فيها ذكر الوجه جعلها من موارد النزاع فالمثبت يجعلها من الصفات التي لا تتأول بالصرف والنافي يرى أنه إذا قام الدليل على أنها ليست صفة فكذلك غيرها. (مثال ذلك قوله تعالى ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾. أدخلها في آيات الصفات طوائف من المثبتة والنفاة حتى عدها " أولئك "كابن خزيمة مما يقرر إثبات الصفة وجعل " النافية " تفسيرها بغير الصفة حجة لهم في موارد النزاع. (٢)

المطلب الثاني: ما ورد في العين

ذكر الله تبارك وتعالى صفة العين فقال ﴿ولتصنع على عيني﴾ طه ٣٩ وقال ﴿فانك باعيننا﴾ الطور ٤٨ وقال ﴿واصنع الفلك باعيننا﴾ هود ٣٧ وكذلك جاء إ ثبات هذه الصفة في السنة النبوية. ففي حديث ابن عمر قال: ذكر الدجال عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: (ان الله لايخفى عليكم ان الله ليس بأعور – واشار بيده إلى عينه – وان المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية) ويقال في هذه الصفة ما يقال في الصفات الخبرية التي ثبتت بالسمع من الايمان بها على الوجه اللائق به تعالى فهذا الذي فهمه سلف الامة. فقد فسر ابن عباس قوله (باعيننا) أنه اشار إلى عينيه وقد مرّ معنا حديث ابي هريرة حين تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قوله تعالى ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ النساء ١٢٤، فوضع ابهامه على اذنه واصبعه التي تليها على عينه قال ابو هريرة رضى الله عنه: رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يفعل ذلك. (٣) وقد ذكر ذلك غير واحد من السلف وتصريحهم بهذا (٤) وبوب الامام الاشعري في الابانة فقال: باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين، ثم ذكر الادلة على ذلك. وصرح رحمه الله حين ذكر جملة من أقوال اصحاب الحديث والسنة وان من عقيدتهم اثبات ان لله عينين بلا كيف (٥) وهذا هو فعل البخاري رحمه الله فقد أورد الآيات الدالة على اثبات هذه الصفة فقد جاءت في القرآن مفردة مضافة إلى الضمير وجاءت مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع، قال ابن القيم " ذكر العين مفردة لا يدل على انها عين واحدة ليس إلا قولك افعل هذا على عيني لا يريد ان له عيناً واحدة ولما اضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً أو مضمراً

---

(١) الفتاوى ٢/ ٤٢٧ ومابعدها. (٢) الفتاوى ٦/ ١٤ – ١٥ (٣) رواه ابو داود في باب الرد على الجهمية من سننه ٥/ ٩٦ (٤) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٩٦ (٥) مقالات الاسلاميين للاشعري ١/ ٣٤٥

حسن جمعها مشاكلة للفظ كقوله تعالى ﴿تجري باعيننا﴾ القمر ١٤ وقوله ﴿واصنع الفلك باعيننا﴾ هود ٣٧ (١) ومايذكره المفسرون من تفسير لمعاني الآيات التي يستشهد بها على اثبات صفة العين لا يلزم منه انكار هذه الصفة فقوله ﴿واصنع الفلك باعيننا﴾ بان معناها: بمراى منا وحراستنا وحفظنا لك وقوله ﴿ولتصنع على عيني﴾ بمعنى لتربى بمراى ومنظر مني، وقوله: ﴿فانك باعيننا﴾ أي بمراى منا وتحت كلاءتنا (٢) فهذه المعاني معانٍ صحيحة وهي بماذكر دالة على اثبات العين اذا انها تصح نسبة العين إلى ما ليس من شأنه ان يكون له عين والسياق بيّن ذلك بمن اضيفت اليه، كما قال ابن جرير تجري باعيننا (تجري السفينة التي حملنا نوحاً فيها بمراى منا ومنظر (٣) هذا الذي فهمه السلف ومنهم البخاري رحمه الله، ثم استشهد رحمه الله باحاديث الدجال وفيه (ان ربكم ليس باعور) و (ان الله ليس باعور). قال الدارمي في رده على بشر المريسي " ففي تأويل قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ان الله ليس باعور " بيان انه بصير ذو عينين خلاف الاعور ". (٤)

قال ابن المنير " وجه دلالة الحديث على اثبات العين لله من جهة ان العور عرفاً عدم العين وضد العور ثبوت العين فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها وهو وجود العين (٥)، وعلى هذا نثبت العينين لله تبارك وتعالى كما قال ابن خزيمة " بين النبي – صلى الله عليه وسلم – ان لله

---

(١) مختصر الصواعق ص ٢٤

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٢ و ٣/ ٢١٧ و ٦/ ٤٣٨

(٣) تفسير الطبري ٢٧/ ٦٤

(٤) الرد على بشر المريسى ص ٤٠٦

(٥) الفتح ١٣/ ٤٠١

عينين فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل (١) وقد تقدم الرد على من يؤل هذه الصفة في اثبات البصر لله تبارك وتعالى.

المطلب الثالث: ما ورد في اليدين والأصابع (٢)

من الصفات الثابتة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة اليدان قال تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ المائدة ٦٤ وقال تعالى ﴿ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي﴾ ص ٧٥ وقال ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ الزمر ٦٧ وقال ﴿يد الله فوق ايديهم﴾ الفتح ١٠. وقال ﴿بيده الملك﴾ تبارك ١ وقال ﴿بيدك الخير﴾ آل عمران ٢٦. وقال عليه الصلاة والسلام كما في البخاري من حديث طويل وهو محاجة آدم وموسى وفيه: يا آدم انت ابونا خلقك الله بيده) وفيه (أنت موسى كلمك الله تكليماً وخط لك التوراة بيده)، فاليد في ما سبق من النصوص هي يد حقيقية على ظاهرها خلافاً لمن أولها من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم. قال الامام المقدسي (٣) في كتابه الصفات: فلا نقول يد كيد ولا نكيف ولا نشبه ولا نتأول اليدين على القدرتين كما يقول اهل التعطيل والتأويل بل نؤمن بذلك ونثبت الصفة من غير تحديد ولا تشبيه، ثم قال ولا يصح حمل اليدين على القدرتين فان قدرة الله واحدة ولا على النعمتين فان نعم الله لا تحصى كما قال سبحانه ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ابراهيم ٣٤. (٤)

---

(١) التوحيد لابن خزيمة ص ٩٧

(٢) انظر في هذه الصفة الاسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٤٣ – ٥٣ والتوحيد لابن خزيمة ٥٣ – ٧٦ والشريعة للآجري ٣٢١ والسنة لابن ابي عاصم ص ٤٧٣ والرد على الجهمية لابن منده ٣٩ – ٤٢

(٣) عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي، من عائلة علمٍ وحديث، مكثر من التاليف، من أوائل من ألف في الرجال، (ت ٦٠٠ هـ) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٤٣).

(٤) الصفات للامام عبد الغني المقدسي ص ٨٥ ضمن عقائد أئمة السلف

قال الامام البربهاري (١) " واعلم انما هلال الجهمية من انهم فكروا في الرب عز وجل فأدخلوا (لم وكيف) وتركوا الأثر ووضعوا القياس، قاسوا الدين على رأيهم فجاؤوا بالكفر عياناً " (٢) وعلى هذا اثبت الأئمة في ما ساقوه في معتقداتهم ومصنفاتهم في ردودهم على الجهمية والمعتزلة أو في بيان السنة قال شيخ الإسلام إسماعيل الصابوني عن أهل السنة: ويقولون انه خلق آدم بيده كما نص سبحانه في قوله ﴿قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي﴾ ص ٥٧.

ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة والجهمية اهلكهم الله ولا يكيفونها بكيف ويشبهونها بايدي المخلوقين تشبيه المشبهة خذلهم الله (٣) وهو الذي قرره الإمام الاشعري: أن من جملة ما عليه أهل الحديث والسنة أن لله يدين بلا كيف، ثم ساق الأدلة لذلك في عدة كتب له (٤) ومثله الامام الاصبهاني في الحجة قال: (فصل في اثبات اليد لله تعالى صفة له) ثم قال: (ذكر البيان من سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – على إثبات اليد موافقاً للتنزيل). (٥) والنصوص التي وردت في اثبات اليدين تضمنت اثبات صفات أخرى لهذه اليد وهو الذي نراه في الاحاديث التي استشهد بها الأئمة على ذلك فمنها: –

١ – صفة اليمين كما في حديث ابي هريرة (يمين الله ملآى) وقوله (أخذها الرحمن بيمينه).

٢ – صفة الكف كما في حديث الصدقة (فتربوا في كف الرحمن).

٣ – صفة الأصابع كما في حديث الحبر اليهودي الذي رواه البخاري في الباب من حديث النواس بن سمعان –رضي الله عنه–. ٤ – صفة القبض والطي كما في حديث ابن عمر (يقبض الله الارض). ٥ – صفة البسط كما في قوله تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾.

قال ابن القيم رحمه الله: " فهذا القبض والبسط والطي باليمين والاخذ والوقوف على يمين الرحمن والكف وتقليب القلوب باصابعه ووضع السموات على اصبع والجبال على أصبع وذكر احدى اليدين ثم قوله " وبيده الاخرى – ممتنع فيه اليد المجازية سواء بمعنى القدرة أو بمعنى النعمة فانها لا يتصرف فيها هذا التصرف، هذه لغة العرب نظمهم ونثرهم هل تجدون فيها ذلك اصلاً. (٦) قال الامام أحمد (من زعم ان يداه نعماه كيف يصنع بقوله (خلقت بيديّ) مشددة (٧)، والإمام البخاري قرر هذه الصفة وبوب لها وساق من الاحاديث ما يدل على ثبوتها، فحديث انس فيه (خلقك بيده) ثم حديث ابي هريرة قال: يد الله ملآى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال (أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم يغض ما في يده) وقال (وكان عرشه على الماء وبيده الاخرى الميزان يخفض ويرفع)، وحديث ابن عمر (أن الله يقبض يوم القيامة الارض وتكون السموات بيمينه ثم يقول انا الملك)، فهذه الآية فيها اثبات اليدين لله ثم أورد رحمه الله ما يدل على ذلك من السنة فقال (بيده) مرة ثم قال (وبيده الأخرى) ثم ساق رحمه الله ما يدل على الاصابع للرحمن فجاء بحديث ابن مسعود ان يهودياً

---

(١) الحسن بن علي بن خلف البربهاري، شيخ الحنابلة كان قوالاً للحق داعية إلى الأثر، عاصر الأشعري وكان مطاعاً، (ت ٣٢٨ هـ)، سير اعلام النبلاء (١٥/ ٩٠). (٢) الحجة في بيان المحجة للاصبهاني ١/ ١٨٥ (٣) شرح السنة للامام البربهاري ٢٧. (٤) عقيدة السلف اصحاب الحديث للصابوني صـ ٢٦. (٥) مقالات الإسلاميين ١/ ٣٤٥ والابانة ص ٤١ ورسالة اهل الثغر صـ ٦٩. (٦) مختصر الصواعق ٢/ ٣٢٥ وانظر تأصيلاً لهذا رد الدارمي ص ٣٨٨ – ٣٩١. (٧) ابطال التأويلات لابي يعلى ١/ ١٦٩.

جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال يا محمد ان الله يمسك السموات على اصبع والاراضين على اصبع والجبال على أصبع والشجر على اصبع والخلائق على اصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ زاد عبد الله بن مسعود: فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تعجباً وتصديقاً له وساق بنحوه حديثاً لابن مسعود فيه اختلاف يسير وليس هذا هو الحديث الوحيد الذي فيه ذكر الأصابع فقد قال عليه الصلاة والسلام " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ". (١) قال الامام البغوي: والأصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل وكذلك ما جاء به الكتاب والسنة من هذا القبيل من صفات الله (٢) وقال ابن بطال: " لايحمل ذكر الاصبع على الجارحة بل يحمل على انه صفة من صفات الذات لا تكيف ولا تحدد (٣) وبمثله قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث " ولا نقول اصبع كاصبعنا لان كل شيء منه عز وجل لايشبه شيئاً منا ". (٤) والمخالف لهذه الاحاديث له نفس الحجة التي سبقت في باقي الصفات وأولها كما اول غيرها، فحديث (إن قلوب العباد بين أصبعين) اولهما بالنعمة أو بالقدرة، وقال لانها تقتضي المماسه وهذا بعيد فانه ليس في ظاهر الحديث أن القلب متصل بالأصابع ولا مماس لها ولا أنها في جوفه ولا أن قول القائل هذا بين يدي يقتضي مباشرته ليديه، فقوله تعالى ﴿والسحاب المسخر بين السماء والارض﴾ البقرة ١٦٤ لم يقتض أن يكون مماساً للسماء والارض. (٥)

---

(١) رواه الترمذي باب القدر ح ٢١٤ وابن ابي عاصم في السنة ١/ ١٠١ بسند حسن

(٢) شرح السنة للبغوي ١/ ١٦٨

(٣) الفتح ١٣/ ٣٩٨.

(٤) تأويل مختلف الحديث صـ ١٩٦.

(٥) من كلام ابن تيمية بتصرف التدمرية ص ٧٣.

وقد رد الدارمي على هذه الشبهة أيضاً بقوله: " وهل من شيء ليس تحت قدرة الله التي وسعت كل شيء حتى خص الرسول – صلى الله عليه وسلم – القلوب من بينها بقدرتين (١) وهناك من جعل ضحك الرسول – صلى الله عليه وسلم – تعجباً لا موافقة وانكاراً لا موافقة، وهذا يعيد قال ابن خزيمة " قد أجل الله تعالى نبيه من أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته فيجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكاً بل لا يصف النبي – صلى الله عليه وسلم – بهذا الوصف مؤمن مصدق برسالته. (٢) فتمر هذه الاحاديث والصفات على ما يليق بجلال الله. قال الامام وكيع بن الجراح نسلم هذه الاحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا ولا لم كذا؟ يعني مثل حديث بن مسعود ان الله عز وجل يحمل السموات على أصبع وحديث قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ونحوها من الاحاديث. (٣)

واختم هذا المبحث في الصفات الخبرية بقول شيخ الاسلام رحمه الله " فهل يجوز ان يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد وان الله خلق بيده وان يداه مبسوطتان وان الملك بيده، وفي الحديث ما لا يحصى، ثم ان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واولي الأمر: لا يبينون للناس ان هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره؟ حتى ينشأ (جهم بن صفوان) بعد انقراض عهد الصحابة فيبين للناس ما نزل اليهم على نبيهم ويتبعه عليه بشر بن غياث ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق. وكيف يجوز ان يعلمنا نبينا – صلى الله عليه وسلم – كل شيء حتى الخراءة ثم يترك الكتاب المنزل عليه وسنته الغراء مملوة مما يزعم الخصم ان ظاهره التشبيه والتجسيم. وان اعتقاد ظاهره ضلال ثم لا يبين ذلك ولا يوضحه، وكيف يجوز للسلف ان يقولوا أمروها كما جاءت مع أن معناها المجاز

---

(١) الرد على المريسى ص ٤١٨

(٢) التوحيد لابن خزيمة ١/ ١٧٨

(٣) السنة لعبد الله بن الامام احمد ١/ ٢٦٧، وقاله مناسبة لهذه الأحاديث بالذات.

هو المراد – وهو شيء يفهمه الاعراب حتى يكون ابناء الفرس والروم اعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين والأنصار. (١)

وهكذا ظهر تبويب البخاري بإثباته لهذه الصفات كما هو منهج السلف –رحمهم الله– على الحقيقة مع تفويض كيفيتها لله تبارك وتعالى بما يليق به سبحانه مورداً للنصوص على سبيل الجزم كما هي عادته فيما يعتقده –رحمه الله–.

---

(١) الفتاوى ٦/ ٣٦٨، ٣٦٩ بتصرف

الفصل الثاني: الصفات الفعلية

المبحث الأول: الصفات الاختيارية و [شبهة قيام الحوادث بذاته سبحانه وتعالى]

يفرق أهل السنة والجماعة بين صفات الله الذاتية وصفاته تعالى الفعلية والتي يفعلها بمشيئته سبحانه ويثبتون أن هناك صفات ذاتية فعلية هي صفة ذات له تبارك وتعالى وهي صفة فعلية يفعلها متى يشاء سبحانه كالرحمة والخلق والكلام ونحوها.

وأهل السنة في إثباتهم لهذه الصفات ينطلقون من أنه تبارك وتعالى منزه عن الشبيه، كما قال الإمام نعيم بن حماد: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً. (١)

فالصفات التي وصف الله بها نفسه وأعني هنا ما اصطلح على تسميتها بالفعلية الاختيارية حصل فيها الخلاف العظيم بين المسلمين وطال النزاع فيها بسبب القياس الخاطئ بين الخالق والمخلوق إذ أن الصفات الإلهية لا يجوز أن يستدل فيها بالقياس الشمولي ولا قياس التمثيل، فالتمثيل يستوي فيه الفرع والأصل والشمولي يستوي أفراده.

فالله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يوصف به وإدخاله سبحانه مع غيره تحت أي قضية كلية يستوي أفرادها، عمل فاسد، هذا الذي جَرَّ والطوائف

---

(١) شرح أصول السنة للالكائي ٣/ ٥٨٧

إلى الضلال في هذا الباب، وكان الأولى بهم استعمال قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال الله في كتابه ﴿ولله المثل الأعلى﴾ النحل آية ٦٠.

قال العلامة السعدي في تفسيره لهذه الآية هو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود، فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه من الوجوه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة. (١)

وقد اجتهد أئمة السلف –رحمهم الله– في دفع الخطأ الناتج عن الاعتقاد الخاطئ في فهم الصفات الفعلية الاختيارية لله تبارك وتعالى.

ولكن قبل عرض ردهم وتوضيحهم لابد من الرجوع لأصل المشكلة التي لأجلها قام الوهم من قبل الذين نفوا هذه الصفات الاختيارية.

وأساسها: بعد عصر الصحابة والتابعين ومجيء جهم بن صفوان وذلك عندما لقيه بعض عباد السُمنية (٢) ممن لا يؤمنون بالله فقالوا صف لنا ربك الذي تعبده فدخل البيت لا يخرج مدة ثم خرج وقال هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء ولا يخلو منه شيء. (٣) وأما رواية الإمام أحمد انهم قالوا نكلمك فان ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا وان ظهرت حجتك علينا دخلنا دينك فكان مما كلموا به الجهم ان قالوا له:

هل رأيت إلهك أو سمعت كلامه أو شممت له رائحة أو وجدت له حساً أو مجساً وكل ذلك يقول لا.

---

(١) تفسير السعدي ٢/ ٩٣٣.

(٢) السمنية قوم من الدهرية من أهل الهند قالوا بقدم العالم وإبطال النظر والاستدلال، وقالوا بتناسخ الأرواح –الفرق بين الفرق للبغدادي – ٢٧٠.

(٣) الرد على الجهمية لابن أبي حاتم كما في الفتح ١٣/ ٢٩٥.

فقالوا فما يدريك أنه اله قال: فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوماً ثم أنه استدرك حجة مثل حجج زنادقة النصارى الذين يزعمون أن الروح الذي في عيسى من ذات الله فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل في بعض خلقه فتكلم على لسان خلقه فيأمر بما يشاء وينهى عما يشاء وهو روح غائبة عن الأبصار ثم قال للسُمنى ألست تزعم أن فيك روحاً فقال جهم: هل رأيت روحك أو سمعت كلامه أو وجدت له حساً وكل ذلك يقول: لا

فقال جهم: فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار ولا يكون في مكان دون مكان

قال الإمام أحمد: فبنى أصل كلامه على تأول هذه الآيات ﴿ليس كمثله شيء﴾ و ﴿وهو الله في السموات والأرض﴾ الأنعام ٣ و ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ الأنعام ١٠٣ وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فقد كفر وكان من المشبهة (١)

فالجهم أصل اصلاً في إثبات وجود الله وهو الذي عرف بعد بدليل حدوث الأجسام، فالأجسام حادثة لأنها لا تخلو من الحوادث والأعراض أو أنها مستلزمة للأعراض فصار ما لا يخل من الحوادث فهو حادث فالعالم حادث وبه يعرف إثبات الصانع فما قامت به الصفات قامت به الأعراض وما قامت به الأعراض فهو حادث فنفى الجهمية والمعتزلة ات قامت به الاعراض وما قامت به الاعراض فهو حادث فنفى الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم الصفات أو بعضها على أصل جهم هذا ثم ان من اراد اثبات صفة فأنه يثبتها لجوازها عقلاً! فمن اثبت ثلاث صفات ثم من زاد عقله فاثبت سبعاً ثم من اثبت اكثر من ذلك ولايسمونها أعراضاً

---

(١) الرد على الجهمية للامام احمد ص ١٠٢، ١٠٤ بتصرف يسير

ولكن حين جاء ذكر الصفات الاختيارية سموّها حوادث فوجب نفيها عندهم على هذا الأصل.

وهذا الدليل باطل، من وجوه

الأول: طوله الذي يجعل العامي لا يستطيع فهمه حتى يتم لأجله ايمأنه

الثاني: أنه دليل متبوع بعد عهد النبوة والصحابة لم يدع به النبي – صلى الله عليه وسلم – الناس ولا صحابته من بعده

الثالث: اللوازم الفاسدة على هذا الدليل من نفي صفات الله ونفي قدرته على الفعل والقول بأنه فعل بعد ان كان الفعل ممتنعاً عليه

الرابع: هذا الدليل الذي ارتضاه المتكلمون أوجب تسلط الفلاسفة عليهم في مسألة حدوث العالم (١)

والقول بنفي الصفات خوفاً من حلول الحوادث من قبل المتكلمين وانكروها بلسانهم ان الحوادث لا تقوم بالله – حسب فهمهم وان كنا لا نوافق على هذا الاطلاق – إلاّ انهم يقولون به كما نقل ذلك الرازي في (الأربعين في اصول الدين) فبين أن الجبائي وابنه من المعتزلة قالوا بارادة حادثة لا في محل وابو الحسين البصري يثبت في ذاته تعالى علوماً متجددة بحسب تجدد المعلومات

والاشعرية يثبتون نسخ الحكم ويثبتون للعلم والقدرة تعلقات حادثة

---

(١) انظر في ادلة الموجبين والمانعين / موقف ابن تيمية من الاشاعرة للمحمود ٣/ ٩٨٤

والفلاسفة يقولون بان الاضافات وهي القبلية والبعدية موجودة في الاعيان فيكون الله مع كل حادث ثم قال: وذلك الوصف الاضافي حدث في ذاته (١)

وقد نبه الإمام الطحاوي في عقيدته المختصرة إلى ان الله يوصف بصفاته التي لا يلزم من الوصف بها تجدد الحوادث أو قدم الصفة

فقال: ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً.

قال ابن ابي العز رحمه الله مبيناً كلام الإمام الطحاوي: أي أن الله لم يزل متصفاً بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز ان يعتقد ان الله وصف بصفة بعد ان لم يكن متصفاً بها لان صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص

ولا يجوز ان يكون حصل له الكمال بعد ان كان متصفاً بضده ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والاحياء والاماتة والقبض والبسط والطي والاستواء والاتيان والمجيء والنزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ولا ندخل في ذلك بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن اصلُ معناه معلوم لنا كما قال مالك في الاستواء (٢)

وغالب ما يوقع في مثل هذه المسائل هذه الالفاظ المجملة المحدثة واعني بها (لول الحوادث) فهذه لم يرد فيها نفيٌ ولا اثبات في الكتاب والسنة ويلاحظ انها لفظ مجمل لازمه هو المحذور فمن يريد باطلاقها ان الله تبارك وتعالى لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته

---

(١) الاربعين للرازي ص ١١٨

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٩٦ بتصرف

المحدثة أو بعبارة اخرى لا يتجدد له وصف لم يكن فنفي حلول الحوادث بهذا المفهوم صحيح من لوازم التنزيه لله تبارك وتعالى ولكن ان اريد باطلاقه نفي الصفات الاختيارية

أعني أنه لا يفعل ما يريد فلا يتكلم إذا شاء وأنه لا يغضب ولا يرضى مع نفي التشبيه ولا ينزل ولا يستوي كما وصف نفسه ولاق بجلاله فهذا نفي باطل لا يسلم لقائله

وقد بين الإمام البخاري رحمه الله هذا الأمر بايسر عبارة

وواضح دليل لمن تأمل فقال رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ الرحمن ٢٩

و﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ الأنبياء ٢ وقوله تعالى ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ الطلاق ١

ثم اتى بالقول الفصل في هذه المسألة فقال: وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى ١١

ساق البخاري هذا الباب وهو مهم بالنسبة لافعال الله عز وجل لاثبات ان لله صفات هي افعال يفعلها متى شاء ويصح ان نطلق عليها حادثة لكنها ليست كحدوث المخلوقين التي قد يعتريها العجز وقد يعتريها الخفاء وما اشبه ذلك من نواقص حوادث المخلوقين

وقال د. الغنيمان يريد بهذا بيان ان الله تعالى يحدث ما يريد احداثه في أى وقت اراد وان احداثه ذلك من افعاله التي هو اوصاف له (١)

وقد نبه البخاري رحمه الله في اكثر من موضع على هذه المسألة فأشار إلى مسألة انكار افعال الله من القول والفعل مما له تعلق بمشيئة الله وارادته وقدرته مما انكرته الجهمية ومن تبعهم فقال [باب ما جاء في تخليق السموات والارض وغيرها من الخلائق وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره فالرب بصفاته وفعله وامره وهو الخالق المكون غير مخلوق وما كان بفعله وامره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون] ثم قال أيضاً [سورة باب قول الله تعالى، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلاّ لمن اذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ سبأ ٢٣ ولم يقولوا ماذا خلق ربكم] فالله تبارك وتعالى يحدث من امره ما يشاء من القول والأمر والفعل وكما أنه ليس له مثل في ذاته كذلك ليس له في افعاله) والآيات التي استشهد بها البخاري رحمه الله من قوله تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ الرحمن ٢٩ قال عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين سأله اصحابه ما ذاك الشأن قال عليه الصلاة والسلام " أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين " (٢) ونقل مثل ذلك الإمام البغوي قول عامة المفسرين عن هذه الآية فقال: قال المفسرون: من شأنه ان يحي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذلك قوماً ويشفي مريضاً ويفك عانياً ويفرج

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ٢/ ٥٠٦ (٢) رواه البخاري تعليقاً عن ابي الدرداء في تفسير سورة الرحمن جازماً به ووصله ابن حجر ١٣/ ٥٠٧ ورواه ابن حبان مرفوعاً وابن ماجة ١/ ٧٣ حديث ٢٠٢ وسنده حسن

مكروباً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء (١)

ثم استشهد رحمه الله بقوله تعالى ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ الأنبياء ٢، قال الداودي رحمه الله في بيان مراد البخاري: الذكر في الآية هو القرآن وهو محدث عندنا وهو من صفاته تعالى ولم يزل سبحانه بجميع صفاته (٢)

وقد نقل الحافظ عن الداودي (٣) رحمه الله ما يؤيد قوله هذا في شرح قول عائشة " ولساني في نفسي كان أحقر من ان يتكلم الله في بأمرٍ يتلى)

قال: فيه ان الله تكلم ببراءة عائشة حين انزل براءتها بخلاف قول بعض الناس أنه لم يتكلم (٤)

اراد الرد على من يقول ان الله إذا تكلم فيكون كلامه حادثٌ فتحل فيه الحوادث على مايفهمه من يقول بذلك

قال ابن كثير " محدث " أى جديد انزاله ثم استشهد باثر ابن عباس الذي ساقه البخاري بنحوه "كيف تسألون اهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرقوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه وكتابكم احدث الكتب بالله تقرؤنه محضاً لم يشب (٥)

ثم قال البخاري رحمه الله وقوله تعالى: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾

وهذه الآية معلوم انها في المطلقة التي لها عدة تعدها ولم تبن فأمر الله تبارك وتعالى ان تعتد في بيت زوجها من غير ان تخرج منه إلاّ أن تأتي بفاحشة وعلل ذلك بقوله تعالى: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ الطلاق ١

قال ابن جرير " لا تدري ما الذي يحدث لعل الله يحدث بعد طلاقكم اياهن رجعة " (٦)

يحدث للزوجين حالاً غير ما كانا عليه وقت الطلاق فقد تتبدل الكراهية رغبة والبعد قربا ويحصل الندم منهما فيحدث الرجوع بينهما فمقصود البخاري من هاتين الآيتين ان الله تعالى يتكلم بعد ان لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه ويأمر وينهى بعد ان لم يكن امر بذلك المأمور وذلك المنهي بعينه لمن وجه اليه الأمر والنهي (٧)

وفسر شيخ الاسلام الذكر بان منه محدث ومنه غير محدث لان النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره مفسراً لقوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ الأنبياء ٢ وبقوله ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ الشعراء ٥ في الآيتين ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمية ولكن الذي انزل جديداً فان الله ينزل من القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولاً قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا

---

(١) تفسير البغوي ٧/ ٤٤٦ (٢) الفتح ١٣/ ٥٠٧

(٣) محمد بن علي بن أحمد المالكي شيخ أهل الحديث في عصره، مصري من تلاميذ السيوطي، له طبقات المفسرين، (ت ٩٤٥ هـ) الأعلام (٦/ ٢٩١).

(٤) الفتح ١٣/ ٥٠٧

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٧ (٦) تفسير الطبري ١٢/ ٨٧

(٧) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ٢/ ٥٠٨

وكل ماتقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب كما قال تعالى ﴿كالعرجون القديم﴾ يس ٢٩ وقال ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ (١) يوسف ٩٥

ومن قامت لديه شبهة في مسألة حلول الحوادث فان الإمام البخاري جلاها بوضوح إذ ان من يمنع حلول الحوادث قد ارتبط بذهنه قياس الشاهد على الغائب فقال ان الحوادث لا تقوم إلاّ بحادث فقاس على ما يراه فقال البخاري " وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى ١١

فكما أنه تبارك وتعالى لا مثل له في ذاته فكذلك لا مثل له في افعاله واوصافه واحداثه التي يحدثها مما يتعلق بمشيئته وهي افعاله.

ويتساءل العلامة ابن عثيمين عن أصل المسألة: من أين أتى القائلون بأن من قامت به الحوادث فهو حادث، فلا كتاب ولا سنة ولا عقل يدل عليها قال: فنحن نشاهد الآن بانفسنا أنه تحصل حوادث لنا في هذا اليوم غير ما حصل باليوم الذي قبله وهل يلزم إذا قامت بنا الحوادث ان تكون موجودة بوجودنا؟ لا يلزم فالحوادث تتجدد من الحادث ومن غير الحادث بل ان قيام الحوادث به دليل على كماله وأنه يفعل ما يشاء متى ما شاء ولو قلنا أنه لا يستطيع ان يفعل لكان في هذا نقص والله تعالى فعال لما يريد، واستدل بقوله تعالى ﴿ولو شاء الله ما قتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ البقرة ٢٥٣ فالاقتتال من حادث لا شك وهو من فعل الله أي من تقديره أن يفعل وهذا صريح في قيام الافعال الحادثة به (٢)

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ٢/ ٥١١

(٢) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ١٩٢، ١٩٣ بتصرف

ثم استشهد البخاري رحمه الله بحديث ابن مسعود وعلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – " ان الله يحدث من أمره ما يشاء وان مما أحدث ان لا تكلموا في الصلاة "

ذلك ان ابن مسعود قدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يصلي وسلم عليه وكانوا يفعلون ذلك – فلم يرد عليه السلام فلما فرغ الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال لابن مسعود ما قال: ودلالة الحديث واضحة ومطابقة الحديث للترجمة والآيات فقوله – صلى الله عليه وسلم – ﴿ان الله يحدث من أمره﴾ موافق لقوله تعالى ﴿وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ الأنبياء ٢

قال ابن رجب رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري: وقوله " ان الله احدث ان لا تكلموا في الصلاة " اشارة إلى أنه شرع بعد ان لم يكن شرّعه ومنعه بعد أن لم يكن قد منعه (١) ومثله الروايتان عن ابن عباس "كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي انزله الله على نبيكم احدث الأخبار بالله محضاً لم يشب وفي الرواية الاخرى أقرب الكتب عهداً بالله. فالمعنى أنه آخر الكتب واحدثها بالله واقربها عهداً به وهذا موضع الشاهد من الباب، وهذا الباب فصل في ما سيأتي من أبواب فيها الكلام على بقية الصفات الاختيارية إذ سيكون ايرادها على وجه الاختصار خاصة ما دخلت تحت جنس واحد في الكلام، ومابقي من مسائل جرى فيها الخلاف سأعرض له في مسألة الكلام ان شاء الله إذ أطال فيها الإمام البخاري (٢)

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن رجب ٩/ ٢٩١

(٢) يلاحظ في هذه المسألة – أكثر من غيرها – وضوح مخالفة شراح البخاري المتقدمين عن مقصود البخاري إذ غالب أقوالهم في نفي الصفات الاختيارية أو تأويلها انظر الفتح ١٣/ ٥٠٦، ٥٠٧

المبحث الثاني: ما ورد في الاستواء على العرش

لما كان من الجهمية ومن تبعهم يزعمون ان الله في كل مكان وانكروا ان يكون فوق عرشه (١) كما اخبر عن نفسه فقال ﴿ثم استوى على العرش﴾ الحديد ٤ ظنوا ان في اثبات استواءه على العرش تشبيهاً له بخلقه وهو يقول ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ البقرة ١٤٠

وعلّة الجهمية هي علّة كل من لم يفرق الله عن المخلوق فيتوهمون باوهامهم وخيالاتهم أنه إذا كان فوق العرش كان محتاجاً اليه كما يحتاج الملك إلى كرسيه وكذلك من توهم ان استواءه مثل استواء خلقه باطل بل هو مستغن عن كل ما سواه سبحانه وتعالى ولم يتوهم ذلك الصحابة وهم يسمعون ذلك من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بل آمنوا بعلوه علواً يليق به من غير ان يفتقر إلى شيء من مخلوقاته تبارك وتعالى.

قال شيخ الاسلام " وهو سبحانه حامل بقدرته للعرش وحملة العرش فانما أطاقوا حمل العرش بقوته تعالى والله إذا جعل في مخلوق قوة أطاق حمل العرش ما شاء ان يحمله من عظمته وغيرها فهو بقوته الحامل للحامل والمحمول فكيف يكون مفتقراً إلى شيء (٢)

وقد ذكر العرش في القرآن الكريم في احدى وعشرين آية من كتاب الله ذكر الله الاستواء في سبع آيات منها وقد مجد الله تبارك وتعالى نفسه وأنه ذو العرش فاضافة له اضافة تعظيم وتمجيد واختصاص فقال: ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ الأنبياء ٢٢ وقال ﴿

---

(١) ذكر قولهم في كتاب العرش لابن ابي شيبة وغيره وانظر مختصر العلو للذهبي ص ٢٢٠

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٧/ ٢٠

الله لا اله إلاّ هو رب العرش العظيم﴾ النمل ٢٦ وقوله ﴿فتعالى الله الملك الحق لا اله إلاّ هو رب العرش الكريم﴾ المؤمنون ١١٦.

وقد جاء زيادة في وصف العرش في السنة المطهرة فهو أعلى المخلوقات وأعظمها وله قوائم وله حملة قال عليه الصلاة والسلام " إذا سألتم الله عز وجل فسألوه الفردوس فأنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة "كما رواه البخاري وقال – صلى الله عليه وسلم – في حديث أبي مسعود " ما بين سماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء ين خمسمائة عام وبين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام والعرش على الماء والله على العرش يعلم ما انتم عليه " (١)

ووصفه الله تبارك وتعالى بأنه كريم: أى حسن المنظر بهي الشكل فقال: فتعالى الله الملك الحق لا اله إلاّ هو رب العرش الكريم) ١١٦ المؤمنون

قال البغوي: يعني السرير الحسن وقيل المرتفع (٢)

ووصفه بأنه واسع عظيم في قوله ﴿ذو العرش المجيد﴾ البروج ١٥ والمجد الاتساع وعظم القدر (٣)

---

(١) اخرجه ابن خزيمة في التوحيد ١/ ٢٤٢ واللالكائي في شرح السنة ٣/ ٣٩٦
والدارمي في رده على الجهمية رقم ٨١ – ص ٤٦ وحسنه المحقق الشيخ بدر البدر

(٢) تفسير البغوي ٥/ ٤٣٣

(٣) (المجيد) قراءتان: الرفع صفة للرب عز وجل. والجر صفة للعرش وكلاهما صحيح
انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩٦

وان للعرش قوائم كما في حديث ابي سعيد الخدري عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وفيه: الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش فلا ادري افاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور) وفي رواية (آخذ بجانب العرش "كما في البخاري.

وان للعرش زنة عظيمة كما في حديث ام المؤمنين جويرية قال: لقد قلت بعدك كلمات لو وزنت بما قلته لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضى نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته " (١)

وهنا نعلم ان زنة العرش أثقل الأوزان كما ان عدد الخلق أكثر الأعداد.

ووصف لنا العرش ان له حملة من الملائكة يسبحون الله ويكبرونه ولا يستكبرون عن عبادته بل يستغفرون للذين آمنوا، قال الله فيهم ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ غافر ٧ وأعلمنا سبحانه ان حملة عرشه يوم القيامة ثمانية كما قال: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾ الحاقة ١٧ وهؤلاء الملائكة قد أخبرنا نبينا عليه الصلاة والسلام بصفة واحدٍ منهم وعظم خلقه فقال: " أذن لي أن احدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " (٢)

وقد انكر العرش كما سبق الجهمية، قال الإمام الدارمي في رده على الجهمية باب الايمان بالعرش وهو احد ما انكرته المعطلة ثم قال: وما ظننا أن نضطر إلى الاحتجاج على احد ممن يدعي الاسلام في اثبات العرش والايمان به حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٢٦

(٢) اخرجه ابو داود رقم ٤٧٢٧ وهو صحيح انظر الصحيحة للالباني رقم ١٥١

فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الامم قبلنا وإلى الله نشكو ما اوهمت هذه العصابة من عرى الاسلام واليه نلجأ وبه نستعين. ثم ساق أدلة العرش وذكر مناقشته لرجل منهم قال أنه يؤمن بالعرش لأنه مذكور في القرآن فالزمه رحمه الله بقوله اتقرون ان لله عرشاً معلوماً موصوفاً فوق السماء السابعة تحمله الملائكة والله فوق كما وصف نفسه بائن من خلقه؟ فأبى ان يقربه كذلك وتردد في الجواب وخلط ولم يصرح ثم قال رحمه الله: فقال لي زعيم منهم كبير لا ولكن لما خلق الله الخلق يعني السموات والارض وما فيهن سمىّ ذلك كله عرشاً له واستوى على جميع ذلك كله (١)

وقد جاء على لسان صحابة رسول الله ايمان بالعرش وان الله مستو عليه بكل تسليم، قال الصحابي عبد الله بن رواحة: "

وان العرش فوق الماء طافٍ: . وفوق العرش رب العالمين

وتحمله ملائكة شداد.: . ملائكة الإله مسومينا (٢)

وهكذا سلف الامة نظروا في هذه النصوص فآمنوا بها ولم يؤلوها ولم ينكروها. قال الإمام أحمد " ولله عز وجل عرش وللعرش حملة يحملونه والله عز وجل على عرشه (٣)

ومثله ابن ابي زمنين (٤): قال: ومن قول اهل السنة ان الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء (٥)

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص ٢٦٣، ٢٦٤ باختصار

(٢) سير اعلام النبلاء للذهبي ١/ ٢٣٨

(٣) طبقات الحنابلة ١/ ٢٩

(٤) محمد بن عبدالله بن عيسى المري، فقيه مالكي من الوعاظ الأدباء، له كتب كثيرة في السنة وتفسير القرآن (ت ٣٩٩ هـ) الأعلام (٦/ ٢٢٧).

(٥) الفتاوى لابن تيمية ٥/ ٥٤

وذكر ذلك الإمام الطحاوي في عقيدته " وهو مستغن عن العرش وما دونه " وفسر كلامه الشارح احسن تفسير فقال: ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ليبين أن خلقه للعرش لاستواءه عليه ليس لحاجته اليه بل له في ذلك حكمة اقتضته (١)

قال الذهبي مبيناً كيف اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه كما في الحديث الصحيح في مسند أحمد. " والعرش خلق لله مسخر إذا شاء ان يهتز اهتز بمشيئة الله وجعل فيه شعوراً لحب سعد كما جعل تعالى شعوراً في جبل احد بحبه النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قال: وهذ باب واسع سبيله الايمان (٢)، وأما من كان سبيله التأويل للعرش كما عند المعتزلة فقد قالوا: أنه يراد به (معنى الملك) كما قال عبد الجبار وقال ان ذلك ظاهر اللغة يقال: مثل عرش بني فلان أي زال ملكهم (٣) وقد رد كلامه أئمة السلف: من أن العرش سرير الملك كما قال الله عن بلقيس ﴿ولها عرش عظيم﴾ النمل ٢٣.

قال البيهقي رحمه الله: وأقاويل اهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم مجسم (٤) وقال ابن ابي العز " وأما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك فكيف يصنع بقوله تعالى ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾ وقوله ﴿وكان عرشه على الماء﴾ هود ٧ ويكون موسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم الملك هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول. (٥)

---

(١) شرح الطحاوية ص ٣٧٢

(٢) سير اعلام النبلاء ١/ ٢٩٧

(٣) شرح الاصول الخمسة ص ٢٢٦

(٤) الاسماء والصفات ٤٩٧

(٥) شرح الطحاوية ص ٣٦٦

ولعظم هذه المسألة عند السلف افردوها بالتأليف كما فعل الإمام ابي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه فضائل العرش، والعرش وما روي فيه للحافظ ابن ابي شيبة صاحب المصنف والرسالة العرشية لابن تيمية وغيرهم رحمهم الله.

وفي هذا الدرب سار الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه فبوب بذكر العرش بقوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ هود ٤، وقوله ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ التوبة ١٢٩ ثم بين الفرق رحمه الله بين استوى إلى السماء واستوى على العرش وأورد قول ابي العالية رحمه الله (استوى إلى السماء) ارتفع ثم (سواهن) خلقهن ثم نقل قول مجاهد في الاستواء على العرش ان (استوى) علا (على العرش) وقول ابن عباس في معنى (المجيد) أي الكريم و (الودود) أي الحبيب قال: كأنه فعيل من ماجد ومحمود من حميد

قال ابن المنير: نبه البخاري هنا على مسألة لطيفة وهي ان المجيد على قراءة الكسر لا يتخيل انها صفة العرش وأنه بذلك قديم بل هي صفة الحق بدليل قراءة الرفع وبدليل اقترانها بالودود وهي صفة الحق فيكون بالكسر على الجوار حينئذٍ (١)

قال الحافظ بعد نقله لكلام ابن المنير: وهو يؤيد انها عند البخاري صفة لله تعالى ما اردفه به وهو يقال حميد مجيد. . الخ (٢) ثم ساق رحمه الله احاديث الباب لبيان العرش فبدأ بحديث عمران بن حصين لما جاءه بنو تميم واهل اليمن وفيه [كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وكتب في الذكر كل شيء] واراد به رحمه الله الاخبار بكون العرش على الماء عند ابتداء خلق السموات والارض، قال ابن خزيمة رحمه الله (

---

(١) المتواري على تراجم البخاري ص ٤٢٢

(٢) الفتح ١٣/ ٤١٩

معنى قوله وكان عرشه على الماء كقوله وكان الله عليا حكيما) (١) يعني ان كان هنا لا تدل على أن ذلك امر قد مضى وانقضى بل تدل على ثبوته فهو كان ولا يزال على ما كان وليس معنى ذلك ان شيئا من مفعولاته قديم معه بل هو خالق كل شيء وكل شيء سواه مخلوق له وكل مخلوق محدث كائن بعد ان لم يكن مع أنه تعالى لم يزل بصفاته خالقاً فعالاً لما يريد (٢)

والبخاري أورد هذا الحديث للدلالة على عظم العرش وان له شأناً غير السموات والارض وان وجوده قبل وجودهما، ومثل هذا الحديث الذي رواه ابو هريرة وفيه (وعرشه على الماء) فالعرش والماء سابق على وجود السموات والارض بزمن لا يعلم مقداره إلاّ الله.

ثم أورد حديث افتخار أم المؤمنين زينب على ازواج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تقول " زوجكن اهاليكن وزوجني الله – تعالى – من فوق سبع سموات) وهذا بيان ان العرش فوق السموات فيكون الله فوق السموات لأنه سبحانه فوق العرش (٣)

والرواية الاخرى (ان الله انكحني في السماء) مثل سابقتها بالمعنى إذ هو في جهة العلو سبحانه علو ذات وعلو صفات، ثم أورد حديث ابي هريرة وفيه (ان الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه ان رحمتي سبقت غضبي) فهنا ظرفان مختصان بالمكان وقد اضيفا إلى الله تعالى فلا بد ان هذه الاضافة تقتضي تخصيصاً للعرش على غيره من السموات والارض وقد تكلف في هذا الحديث تأويلاً له ما ليس لنا به حاجة إذا آمنا أنه على الحقيقة وأوكلنا علم كيفيته إلى الله (٤)

---

(١) التوحيد ١/ ٢٣٨

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٣٨٤

(٣) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ص ١٠٩

(٤) انظر مانقله الحافظ رحمه الله عن الخطابي في الفتح ١٣/ ٤٢٤ وتكلف التأويل هناك

ثم حديث ابي هريرة رضي الله عنه وفيه [فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة] وقد ساق البخاري لبيان أن أعلى مخلوق هو العرش وليس فوق العرش مخلوق ولكن الرحمن جل وعلا فوقه

كما قال ابن خزيمة (فالخبر يصرح ان عرش ربنا فوق جنته) وقد أعلمنا أنه مستو على عرشه الذي هو فوق جنته (١)

ثم حديث ابي ذر رضي الله عنه قال – صلى الله عليه وسلم –: بعد ان غربت الشمس أتدري أين تذهب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها ثم قرأ ﴿ذلك مستقرٌ لها﴾ في قراءة عبد الله ابن مسعود.

وكعادة البخاري في ايراد الحديث ثم لا يكون فيه موضع الشاهد لأنه ذكره في مكان آخر أو ورد في حديث ليس على شرطه، وفي هذا شحذ لطالب العلم للبحث عنه.

وقد جاء الشاهد عند البخاري في بدء الخلق وفي تفسير سورة يس وفيه (فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش) وفي رواية مسلم [قال مستقرها تحت العرش] (٢) ومعلوم أن أعلا ما تكون فيه الشمس تكون أقرب ما تكون إلى العرش وفيه دليل على علو العرش وأنه مخلوق إذ له فوق وتحت وهي صفة المخلوقات (٣) وأما سجودها فانها تسجد كل ليلة على جانب من الارض مع سيرها وفي مكان معين يحصل سجودها الذي لاندركه ولكن علمناه بالوحي سجود حقيقي يناسبها كما هو ظاهر الحديث

---

(١) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٤٢

(٢) صحيح مسلم ١/ ٣٩

(٣) الفتح ١/ ٤٢٥

ومن يتوهم في كيفية السجود أو مكأنه فانما يقع في المحذور الذي يقع فيه كل من قاس بمقاييس البشر وصفات البشر ثم أورد أثر زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن قال فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع ابي خزيمة الانصاري رضي الله عنه لم أجدها مع أحد غيره ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ حتى آخر براءة] وأورد البخاري لموضع الشاهد من آخر الآيات وهو قوله ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا اله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ قال الحافظ: وصف العرش ان له رباً فهو مربوب وكل مربوب مخلوق (١) وانما عني بوصفه – جل ثناؤه أنه رب العرش العظيم – الخبر عن جميع ما دونه انهم عبيده وفي ملكه وسلطأنه لأان العرش العظيم انما يكون للملوك فوصف نفسه أنه ذو العرش دون سائر خلقه وأنه المالك العظيم دون غيره وأن من دونه في سلطأنه وملكه جار عليه حكمه وقضاؤه (٢)

وهكذا رحمه الله يورد حديث ابن عباس في هديه – صلى الله عليه وسلم – في دعاء الكرب وفيه (رب العرش العظيم ورب العرش الكريم) قال الكرماني " وصف العرش بالعظمة هو من جهة الكمية وبالكرم أي الحسن من جهة الكيفية فهو ممدوح ذاتاً وصفة وخص بالذكر لأنه أعظم أجسام العالم فيدخل الجميع تحته دخول الأدنى تحت الأعلى (٣)

ثم يورد وصف العرش بان له قوائم بحديث ابي سعيد الخدري " فإذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش " فتبين أن البخاري رحمه الله وافق السلف الصالح في اثبات العرش وان الله استوى عليه وأن العرش فوق جميع المخلوقات وله حملة وله قوائم وهو سقف الفردوس وأنه

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٢٥

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٧٨

(٣) شرح الكرماني للبخاري ٢١/ ١٤٩

من أول المخلوقات المعلومة لنا إذ هو على الماء قبل ان يخلق السموات والارض خلافاً لما قالته الجهمية ومن تبعهم.

وقد اطلنا الكلام هنا لاطالة البخاري في بيان عظمة العرش الذي أورد في أوله أنه سبحانه استوى عليه استواء يليق بجلاله كما ذكر في كتابه خلق افعال العباد وقال: حدثت عن يزيد بن هارون (١) قال: من زعم ان الرحمن على العرش استوى على خلاف ما يقر في قلوب العامه فهو جهمي " (٢) فالاستواء لم يظهر إنكاره إلاّ في أوائل القرن الثاني كما قدمنا على يد الجعد بن درهم ثم تبعه من اوله حتى لا يشابه به المخلوقين فقال استولى على العرش بدلاً من استوى. ولهذا أورد البخاري قول التابعي الجليل ابو العالية (٣): استوى ارتفع وقول مجاهد استوى علا. والاستواء له عدة معانٍ فهو إما مطلق أو مقيد:

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله ﴿ولما بلغ اشده واستوى﴾ القصص ١٤ فهذا معناه كمل وتم كقولنا استوى الطعام وأما المقيد: فثلاثة اضرب

الأول: إما مقيد (بإلى) كقوله تعالى ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ فصلت ١١، واستوى فلان على السطح وإلى الغرفة وقد ذكر سبحانه هذا المعدى بإلى في موضعين في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ البقرة ٢٩.

---

(١) يزيد بن هارون السُّلمي من حفاظ الحديث الثقات – قال المأمون: لولا مكانة يزيد لأظهرت أن القرآن مخلوق، (ت ٢٠٦ هـ) الأعلام (٨/ ١٩٠).

(٢) خلق افعال العباد ص ١٢٧ ضمن مجموعة عقائد السلف

(٣) رفيع بن مهران، الإمام الحافظ المفسر الرياحي أحد الأعلام أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب ثم أسلم في خلافة أبي بكر سمع من عمر وعلي وابوذر وعائشة وحفظ القرآن على أُبي بن كعب، وهو أعلم الناس بالقرآن بعد الصحابة، (ت ٩٣ هـ) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٧).

وفي سورة فصلت ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ فصلت ١١، وهذا بمعنى العلو والارتفاع باجماع السلف.

الثاني: مقيد بعلى كقوله تعالى ﴿لتستووا على ظهوره﴾ الزخرف ١٣

وقوله ﴿واستوت على الجودي﴾ هود ٤٤ وقوله ﴿فاستوى على سوقه﴾ الفتح ٢٩ وهذا معناه العلو والارتفاع والاعتدال باجماع اهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو مع التي تعدى الفعل إلى المفعول معه نحو: استوى الماء والخشبة بمعنى ساواها. وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلام العرب ليس فيها معنى استولى البتة ولا نقله احد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وقد ابطل قولهم العلامة ابن القيم من اثنين واربعين وجهاً (١)

ومعلوم ان استواء الله على عرشه في القرآن الكريم جاء مقيداً (بعلى) فلا يصح إلاّ ان يكون على معنى العلو والارتفاع.

وقد حاول اهل التأويل ايجاد مخارج للفظ استوى بمعنى استولى فقد سألوا ابن الاعرابي (٢) عن ذلك فقال: " لا تعرف العرب ذلك كما نقل ذلك الحافظ عن ابو اسماعيل الهروي في كتابه (الفاروق) قال ابن خلف: كنا عند ابي عبد الله بن الاعرابي يعني يحيى بن زياد اللغوي فقال له رجل ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ طه ٥، فقال هو على العرش كما اخبر قال ابا عبد الله انما معناه استولى فقال اسكت لايقال استولى على شيء إلاّ ان يكون له مضاد

---

(١) انظر تفصيل ذلك مع الردود في مختصر الصواعق ٢/ ٣٠٦ - ٣٢٢

(٢) محمد بن زياد إمام اللغة، عاصر الإمام أحمد، كان صاحب سنة وأتباع، (ت ٢٣١ هـ) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٧).

والذي يدل على محاولات المعتزلة لذلك طريق هذه الرواية عن محمد بن احمد بن النضر الازدي قال: سمعت بن الاعرابي يقول: ارادني أحمد بن أبى داؤد أن أجد له في لغة العرب (الرحمن على العرش استوى) بمعنى استولى فقلت والله ما اصبت هذا (١)

لأنه لو كان بمعنى استولى لم يكن خاصاً بالعرش لأنه غالب على جميع المخلوقات، وقد ناقش المعتزلة وغيرهم الإمام الدارمي ورد شبههم بالتفصيل (٢)

ونختم هذا المبحث بالمقولة العلم والقول الأتم الذي صار قانوناً يحتذى ومثالاً يقتدى به في الصفات وهو قول إمام دار الهجرة مالك بن انس رحمه الله لما سئل عن الاستواء قال له السائل: يا ابا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى. قال: فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته وعلاه الرحضاء – يعني العرق – قال واطرق القوم جعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه قال: فسري عن مالك فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة فاني اخاف ان تكون ضالاً وأمر به فاخرج (٣)

قال الدارمي: وصدق مالك لا يعقل منه كيف ولا يجهل منه الاستواء والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية (٤)

---

(١) الفتح ١٣/ ٤١٧

(٢) الرد على المريسى للدارمي ص ٤٥٨ وما بعدها

(٣) هذه رواية اللالكائي بسنده انظر شرح السنة ٣/ ٤٤١

(٤) الرد على الجهمية ص ٥٦

المبحث الثالث: ما ورد في العلو

علو الله تبارك وتعالى من الصفات الذاتية فالله تبارك وتعالى عالٍ على كل شيء علواً شاملاً، وماذكرناه سابقاً من استواءه على العرش فهو علو خاص فالعلو من الصفات الذاتية من وجه والفعلية من وجه والأدلة عليه من الكتاب والسنة والعقل والفطرة وقد آمن بذلك الصحابة ولم يتوهموا ان الله متحيز في جهة ولا يلزم ذلك من كونه فوق تبارك وتعالى وتقدس وقد خالف في ذلك الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم فأولوا نصوص العلو وتكلفوا فيها إلى علو القدر والمكانة والفوقية بالقهر والقدرة (١)

والأدلة التي ساقها الإمام البخاري هي أدلة اهل السنة والجماعة من السلف الصالح فقال رحمه الله: باب قول الله ﴿تعرج الملائكة والروح اليه﴾ والعروج هو الصعود كما فسره (٢) البخاري في قوله تعالى ﴿من الله ذي المعارج﴾ يقال ذي المعارج الملائكة تعرج إلى الله وكذلك فسر رحمه الله المعارج في سورة الزخرف ﴿لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ الزخرف ٣٣ قال وهي درجٌ فعروج الملائكة إلى فوق كما قال الراغب (العروج ذهاب إلى فوق) (٣)

ثم قال البخاري رحمه الله: وقوله تعالى ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾ وساق اثر مجاهد رحمه الله وهو: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وقد وصله بالاسناد ابن جرير والبيهقي رحمهما الله. ولفظه عند ابن جرير: الكلام الطيب ذكر الله والعمل الصالح آداء فرائضه فمن ذكر الله

---

(١) انظر موقف المتكلمين من الاستدلال بالنصوص للغصن ٢/ ٥٣٠

(٢) ذكر ذلك في كتاب التفسير (الزخرف، المعارج)

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٢٩

في آداء فرائضه حمل عليه ذكر الله فصعد به إلى الله ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به (١)، وهذا نص من الكتاب وغيره معه كما قال تعالى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ النحل ٥٠

وقوله ﴿اني متوفيك ورافعك الي﴾ آل عمران ٥٥ وغيرها من الآيات.

ومن السنة النبوية المطهرة

أورد رحمه الله حديث ابي هريرة المشابه لهذه الآيات وهو قوله: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتو فيكم) وهذا هو الشاهد عنده رحمه الله

قال الحافظ وقد تمسك بظواهر احاديث الباب من زعم ان الحق سبحانه وتعالى في جهة العلو (٢) وظاهر سياق النصوص يدل على أن البخاري يقول بذلك كأن البخاري رحمه الله يفسر تلك الآيات بهذا الحديث وقد خاطبهم الله الملائكة بدون واسطة إذ لو كان بوحي لم يكن هناك فرق بين كونهم في السماء أو في الارض

ومثله حديث ابي هريرة الآخر (من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلاّ الطيب) ففيه معنى الفوقية وصعود الشيء اليه سبحانه

وهذا من البخاري رحمه الله تنويع في الادلة إذ ساق بعده حديث الكرب الذي تقدم في ذكر العرش، وساقه هنا لان الله اخبرنا أنه مستو على العرش، والعرش سقف المخلوقات وليس فوقه مخلوق، ثم ساق حديث بعث علي بن ابي طالب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بزكاة من اليمن ولما قسمها بين أصحابه. . . وفيه (فقال يا محمد اتق الله فقال عليه الصلاة والسلام فمن يطيع الله إذا

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٢/ ١٢١ والاسماء والصفات للبيهقي ص ٤٢٦

(٢) الفتح ١٣/ ٤٢٧

عصيته؟ فيأمنني على أهل الارض ولا تأمنونني) والشاهد في هذا الحديث في رواية اخرى تقدمت في باب المغازي من الصحيح كما هي عادة البخاري وهي (الاّ تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءاً) وهذا هو المقصود من الباب كما قال الحافظ رحمه الله " وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة لكنه جرى على عادته في إدخال الحديث في الباب للفظه تكون في بعض طرقه هي المناسبة لذلك الباب يشير إليها ويريد بذلك شحذ الأذهان والبعث على كثرة الاستحضار (١)

و(في) هنا بمعنى (على) كما قال البيهقي عن احمد بن إسحاق الضبعي كما في قوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ التوبة ٢، أي على الأرض. (٢)

والسماء هي جهة العلو لا السماء التي تحت العرش

قال شيخ الإسلام " من توهم بان كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب؛ إن نقله عن غيره؛ وضال إن اعتقده في ربه بل هو فوق كل شيء وهو مستغن عن كل شيء وكل شيء مفتقر إليه وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته (٣)

ومثله قوله تعالى ﴿ء أمنتم من في السماء) الملك ١٦ فإن الجهمية ومن تبعهم يؤلونها إلى من في السماء ملكه وسلطأنه ونحو ذلك ومن نظر في هذه الآية ثم قارنها بأختها التي تشبهها في سورة الإسراء بان له من هو الذي في السماء. قال تعالى ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا﴾ الإسراء ٦٧، وهنا لا ريب أن الضمير عائد إلى الله ثم تتابع الآية ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٢٩

(٢) السماء والصفات للبيهقي ص ٤٢١

(٣) الفتاوى ٥/ ١٠٦

يرسل عليكم حاصباً﴾ الإسراء ٧٨، ولا يزال الضمير عائداً على الله ففي آية الإسراء ﴿أفأمنتم أن يخسف. . . . . أو يرسل﴾ وفي سورة الملك ﴿ء أمنتم من في السماء أن يخسف. . . . . أم أمنتم من في السماء أن يرسل﴾ فالله هنا يخوفنا نفسه كما قال ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أل عمران ٢٨، وهكذا فسرت الآيات بعضها.

وقال القرطبي (ء أمنتم عذاب من في السماء أن عصيتموه). (١)

ثم أورد حديث أبي ذر في الشمس وقوله عليه الصلاة السلام (ومستقرها تحت العرش)، وهو مثل الذي قبله في استواء الله على عرشه وان عرشه أعلى ما تصل إليه الشمس في أوجها تكون تحته والله فوق العرش كما أخبر سبحانه.

وهذه الأدلة التي ساقها البخاري كتاباً وسنةً وعقلاً يفهم من النصوص أضاف إليها رحمه الله دلالة الفطرة على علو الله تبارك وتعالى.

فأورد أثر أبي ذرٍ لما بعث أخاه إلى مكة يستطلع له خبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – زمن بعثته فقال لأخيه: إعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء) ومعلوم أن الخبر لا يأتي إلا من مخبر والمخبر الذي يرسل الرسل بأوامره ونواهيه هو الله – جل وعلا – وهو في السماء أي في العلو بائن من خلقه (٢)

قال ابن أبي شيبة (٣) في كتاب العرش: اجمع الخلق جميعاً انهم إذا دعوا الله جميعاً رفعوا أيديهم إلى السماء فلو كان الله في الأرض السفلى ما كانوا يرفعون أيديهم إلى السماء وهو

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٥

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٤٤٣

(٣) عبدالله بن محمد العبسي، حافظ للحديث له المسند والمصنف، (ت ٢٣٥ هـ) الأعلام (٤/ ١١٧).

معهم في الأرض (١) ومثله قال ابن قتيبة رحمه الله: وأما قوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فاطر ١٠، فكيف يصعد إليه شيء وهو معه؟ أو يرفع إليه عمل وهو عنده؟ وكيف تعرج الملائكة والروح إليه يوم القيامة؟ ولو أن هؤلاء – يعني منكرو العلو – رجعوا إلى فطرهم وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق سبحانه لعلموا أن الله تعالى هو العلي وهو الأعلى وهو بالمكان الرفيع وان القلوب عند الذكر لتسموا نحوه والأيدي ترفع بالدعاء إليه ومن العلو يرجى الفرج ويتوقع النصر وينزل الرزق. (٢)

ونختم هذا المبحث بقصة الإمام الجويني المشهورة مع الهمذاني محمد بن الحسن الذي قال سمعت أبا المعالي الجويني وقد سئل عن قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ طه ٥، فقال: كان الله ولا عرش – وجعل يتخبط بالكلام – فقلت قد علمنا ما أشرت إليه فهل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما تريد بهذا القول وما تعني بهذه الإشارة؟ فقلت ما قال عارف قط يا رباه إلاّ قبل أن يتحرك لسأنه قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة يقصد الفوق فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة؟ فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت – وبكيت وبكى الخلق – فضرب الأستاذ بكمه على السرير وصاح: يا للحيرة ونزل قال فسمعت أصحابه يقولون: سمعناه يقول حيرني الهمذاني (٣)

وحدث مثل هذا لابن تيمية وقد حكاه بقوله: ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا – يعني العلو والفوقية – من هو من مشايخهم وهو يطلب مني حاجة وأنا أخاطبه في هذا المذهب

---

(١) كتاب العرش لابن ابي شيبة ص ٥١

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٢٨

(٣) راوي هذه القصة بإسناده الذهبي في (العلو)

وقال الألباني في المختصر إسناد هذه القصة مسلسل بالحفاظ ص ٢٧٧

كأني غير منكر له وأخرت قضاء حاجته حتى ضاق صدره فرفع رأسه إلى السماء وقال: يا الله فقلت له: أنت محقق! لمن ترفع رأسك؟ وهل فوق عندك أحد؟ فقال: استغفر الله ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته ثم بينت له فساد هذا القول فتاب من ذلك ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم (١)

ولعظم هذه المسألة وظهورها لدى أئمة أهل العلم أفردوها بالتأليف كابن قدامة في (إثبات صفة العلو) وابن القيم (اجتماع الجيوش الإسلامية) والذهبي (العلو للعلي الغفار) وغيرهم ممن جعلها ضمن مسائل العقيدة رحمهم الله جميعاً وقبلهم جميعاً أشار اليها امامنا البخاري ونوع في الأدلة عليها وساق الارشادات البديعة والاستنباطات من النصوص وأورد الأدلة العقلية التي فهمها من كلام الله وكلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٢٤٣ – ٢٤٤

الفصل الثالث: ما ورد في الرؤية

رؤية المؤمنين ربهم عز وجل يوم القيامة بأبصارهم من المسائل التي تضافرت عليها النصوص وتواترت فيها الآثار وقام عليها إجماع سلف الأمة وسألوا الله أن لا يحرمهم النظر إليه ولكن أبا جهم ومن تبعه من المعتزلة وغيرهم إلا نفي الرؤية وحجتهم " إن إثبات الرؤية يؤدي إلى حدوث الله لان الشيء إنما يرى إذا كان مقابلاً أو حالاً في المقابل وهذه من صفات الأجسام فيوجب ذلك أن يكون الله تعالى جسماً وإذا كان جسماً صار محدثاً وإذا كان جسماً تجوز عليه الحاجة. (١)

وكان ذلك أصلاً من قول جهم الذي نفى الرؤية أحد أصوله كما نقل لنا ذلك الإمام احمد رحمه الله في رده على الجهمية فذكر أن الجهم بنى اصل كلامه على ثلاث آيات تشتبه معانيها على من لا يفهمها وذكر منها آية نفي الإدراك لينفي بها الرؤية والمباينة قال تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الأنعام ١٠٣ (٢) ونفى الرؤية عن الله مع النصوص الواردة الكثيرة مؤذن بكفرنا فيه وقد نقل هذا عن الإمام احمد رحمه الله أنه قال: من قال أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر عليه لعنة الله وغضبه من كان من الناس. (٣)

وليس للنافين للرؤية إلا تأويل بعض الأدلة أو التعليق بمفهوم بعضها كقوله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أو حجة. أن الرؤية توجب كون المرئي محدثاً حالاً في مكان فأولوا قوله ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ القيامة ٢٢ – ٢٣، بأنها منتظرة وهذا خلاف تفسيرها الذي

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ٢٧٦

(٢) الرد على الجهمية للإمام احمد ص ١٠٤

(٣) طبقات الحنابلة ١/ ٢٥٣

أثُر عن السلف قال ابن عباس " مسرورة إلى ربها (ناظرة) قال تنظر إلى ربها، ومثله عن الحسن البصري ومجاهد وعكرمة. (١)

قال الإمام أبو الحسن الأشعري " ولا يجوز أن يكون عني نظر الانتظار لان النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه (٢) قال وهذا مما يبطل قول المعتزلة: لان نظر الانتظار لا يكون مقروناً بقوله (إلى) لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا في نظر الانتظار (إلى) (٣) وقد قيل للإمام مالك: أن أقواماً يقولون تنظر ما عنده فقال: بل تنظر إليه نظراً (٤) وأما قولهم أن قوله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فيه نفي للرؤية لأن الآية عامة عندهم

فهذا لا يسلم لهم لان المنفي هنا هو الإدراك فالإدراك هو الإحاطة ونفي الإحاطة لا يستلزم نفي الرؤية فقد تقع الرؤية بدون الإدراك وقد يقع إدراك بلا رؤية. فقوم موسى قالوا له (إنا لمدركون) مع قوله ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ فقال موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) فنفى موسى عليه السلام الإدراك مع إثبات الترائي.

وهذا هو تفسير ابن عباس لما تكلم في الرؤية فقال له رجل أليس قال الله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فقال له ألست ترى السماء قال بلى قال أتراها كلها قال: لا فبين له أن نفي الإدراك لا يقتضي نفي الرؤية. (٥)

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للألكائي ٣/ ٥١٤، ٥١٦ تفسير الطبري ٢٧/ ١١٩

(٢) الابانة ص ٤٥

(٣) الابانة ص ٤٦

(٤) معارج القبول لحافظ الحكمي ١/ ٣٠٢

(٥) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٢٣٦ بتصرف

وما دليلهم العقلي إن الرؤية توجب تجسيم وحدوث المرئي فهذه على جميع منكري الصفات من قياسهم الأمور الغيبية على ما ألفوه في دنياهم وقياس الخالق بالمخلوق.

قال ابن بطال (وما تمسكوا به فاسد لقيام الأدلة على أن الله تعالى موجود والرؤية في تعلقها بالمرئي بمنزلة العلم في تعلقه بالمعلوم فإذا كان تعلق العلم بالمعلوم لا يوجب حدوثه فكذلك المرئي. (١)

هذه هي أقوي أدلة المعترضين للرؤية ولأهل السنة الآيات الصريحة والأحاديث الكثيرة في هذه الكرامة التي يمن الله بها على عباده.

وقد بوب البخاري بهذه الآية فقال: باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة﴾ القيامة ٢٢، ٢٣.

وقد تقدم قول السلف فيها وقد بلغ الإمام أحمد أن رجلاً قال: إن الله لا يرى في القيامة فقال: لعنه الله من كان من الناس – أليس الله يقول ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وقال ﴿كلا انهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ (٢) المطففين ١٥.

ثم ساق الإمام البخاري رحمه الله الأدلة من السنة على الرؤية منها حديث جرير رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا نظر إلى القمر ليلة البدر قال: " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته " الحديث.

والحديث الآخر: " إنكم سترون ربكم عياناً ".

وحديث: " إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته".

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٣٥

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٥٣

وفي هذه الأحاديث تأكيد من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للرؤية بأن وبالفعل المضارع المسبوق بالسين وبقوله (كما ترون هذا القمر) مع إشارته إليه فأي بيان بعد ذلك.

وقوله (لا تضامون) بفتح التاء وتشديد الميم والمعنى إنكم ترون ربكم رؤية واضحة لا تحتاجون في رؤيته أن ينضم بعضكم إلى بعض لتتساعدوا على الرؤية كما يقع عند رؤية الأمور الخفية. (١)

وقوله (إنكم سترون ربكم عياناً) ومعناه عياناً أي بأعينكم وهذا الحديث ذو دلالة واضحة، وقوله (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا) يعني القمر فيه دلالة على أن الرؤية ستقع يوم القيامة وليس هناك تشبيه للمرئي بالمرئي بل تشبيه بالرؤية للرؤية

ثم ساق رحمه الله حديث أبي هريرة الطويل وفيه: الذي دلالته من أوضح الدلالات حيث سأل الصحابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فأجابهم " هل تضارون في القمر ليلة البدر " فقالوا: لا يا رسول الله قال: (فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب) فقالوا لا يا رسول الله، فقال: (فإنكم ترونه كذلك) وهنا بين عليه الصلاة والسلام انهم سيرونه كما يرون القمر ليلة البدر والشمس ليس دونها سحاب.

وفي سياق الحديث: (فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه)، فانهم سيرونه تبارك وتعالى على صورته اللائقة بجلاله وقد أطال أهل العلم الكلام في الصورة.

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ٢/ ١٢

وقد أمر أئمة السلف بإجراء هذه الصفة كغيرها من الصفات فقد سئل الإمام احمد عن حديث خلق الله آدم على صورته فقال: لا تفسره ما لنا أن نفسره كما جاء الحديث

وقال أيضاً: سمعت الحميدي (١) بحضرة سفيان بن عيينة فذكر هذا الحديث " خلق الله على صورته " فقال: من لا يقول بهذا فهو كذا وكذا يعني من الشتم وسفيان ساكت لا يرد عليه شيئاً. (٢)

وقد قال الإمام ابن قتيبة، أو الذي عندي والله تعالى اعلم أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين وإنما وقع الألف لتلك لمجيئها في القرآن وقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولاحد (٣)

ثم ساق البخاري رواية أبي سعيد الخدري لحديث الرؤية وفيه " فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونها فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن " الحديث

فيقال في الصورة والساق ما يقال في بقية الصفات كما تقدم في الصفات الذاتية والله أعلم

ثم يسوق رحمه الله حديث انس في الشفاعة وشاهده فيها قوله عليه السلام " فاستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً ".

---

(١) عبدالله بن الزبير الحميدي، أحد الأئمة في الحديث، رحل مع الشافعي إلى مصر ولزمه إلى أن مات وهو شيخ البخاري، (ت ٢١٩ هـ) الأعلام (٤/ ٨٧).

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الامام احمد في الغقيدة ١/ ٣٥٦، ٣٥٧

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٠٢

وقد كرره في الحديث ثلاث مرات فالنبي عليه الصلاة والسلام سوف يراه وكذلك غيره من المؤمنين.

وكذلك حديث انس حين جمع الرسول – صلى الله عليه وسلم – الأنصار في قبة وقال لهم (اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض) فقد ذكر اللقاء هو ما يقتضي الرؤية والمعاينة.

ثم أورد حديث ابن عباس في دعاء صلاة التهجد وفيه (أنت الحق وقول الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق) فاللقاء يتضمن الرؤية وهو شاهد البخاري في هذا الحديث.

ثم أورد حديث عدي بن حاتم: ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه).

فليس بين العبد وبين الرب ما يمنع رؤيته إذ المؤمن لا يحجب بعكس الكافر الذي قال فيه ﴿كلا انهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾.

ثم حديث (وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهة في جنة عدن، ففيه قرب لقاء المؤمنين بربهم ورؤيتهم له وبينه وبينهم حجاب الكبرياء فإذا أذن لهم رفع رداء الكبرياء وعن وجهه كما هو ظاهر الحديث – والله أعلم.

وهكذا ساق بقية الأحاديث رحمه الله بمثل هذه الشواهد. (١)

---

(١) انظر في الرؤية ومسائلها من المؤلفات المفردة

– ... التصديق بالنظر الى الله في الآخرة للآجري تحقيق محمد منير الجمباز

– ... رؤية الله تبارك وتعالى لابن النحاس تحقيق د. محفوظ السلفي

– ... ضوء الساري الى معرفة رؤية الباري تحقيق د. أحمد الشريف

– ... رؤية الله وتحقيق الكلام فيها د. أحمد الحمد جامعة أم القرى

– ... دلالة القرآن والأثر على رؤية الله تعالى بالبصر د. عبد العزيز الرومي

– ... بحث للعلامة حماد الأنصاري الأستاذ في الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في مجلة الجامعة السلفية العدد الرابع ١٣٩٦ عن حديث الصورة

–

الفصل الرابع: ما ورد في صفة الكلام

أخذت صفة الكلام وما يتبعها من مسألة خلق القرآن وغيرها حيزاً كبيراً في الفكر الإسلامي

ولا نبالغ إذا قلنا من أنها من المسائل التي افترقت فيها أهل الفرق بين بعضها البعض في الفرقة الواحدة تجد الاختلاف الكبير، حتى أن (الايجي) يذكر أن علم الكلام إنما سمي بذلك للاختلاف في هذه الصفة. (١)

أما من ينكر هذه الصفة فهو من أنكر غيرها من صفات الله تبارك وتعالى وبنفس الحجج السابقة، فالجهمية والمعتزلة متفقون في نفي الكلام عن الله من أنه صفة له فالمعتزلة يقولون أنه متكلم حقيقة وحقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاماً في غيره. (٢)

والجهمية تارة يصرحون بنفي أن يكون متكلماً حقيقة (٣) وتارة يقرون باللفظ ويقرونه بأنه خلق في غيره كلاماً.

قال شيخ الإسلام: والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول فيقولون: إن الله لم يكلم موسى تكليماً ولا يتكلم وتارة لا يظهرون هذا اللفظ لما فيه من الشناعة والمخالفة لدين الإسلام

---

(١) المواقف للايجي ص ٩

(٢) شرح الطحاوية ص ١٧٣

(٣) الفرق بين الفِرق ص ٢١٢

واليهود والنصارى فيقرون باللفظ ولكن يقرونه بأنه خلق في غيره كلاماً (١)

وهنا نعلم أن الجهمية والمعتزلة متفقون على أن الكلام لا يقوم به تعالى وان ما يضاف إليه من كلام هو الحروف والأصوات التي يخلقها في غيره فالقرآن مفعول محدث إلا أن الجهمية ينفون أن يكون الله متكلماً حقيقة رغم تصريحهم بذلك أحياناً والمعتزلة يثبتون أنه متكلم حقيقة إذ كان خالق الكلام في غيره يسمى عندهم متكلماً حقيقة

قال القاضي عبد الجبار (ولا خلاف بين جميع أهل العدل أن القرآن مخلوق محدث مفعول لم يكن ثم كان) (٢)

وهناك رأي آخر في هذه المسألة إذ لم يكن في ذلك الوقت غير أهل السنة ومخالفيهم من الجهمية والمعتزلة حتى جاء ابن كلاب فقال إن كلام الله قديم وأنه معنى واحد وأنه لا يتعلق بمشيئته الله وإرادته.

قال الإمام أبو نصر السجزي (فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق مجرد العقل وهم لا يخبرون أصول السنة ولا ما كان السلف عليه ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك.

– إلى أن قال – قالوا للمعتزلة: الذي ذكرتموه ليس بحقيقة الكلام وانما سمى ذلك كلاماً على المجاز لكونه حكاية أو عبارة عنه وحقيقة الكلام: معنى قائم بذات المتكلم. . .

قال: ثم خرجوا من هذه إلى أن إثبات الحرف والصوت في كلامه سبحانه تجسيم واثبات اللغة فيه تشبيه. (٣)

---

(١) الفتاوى – ١٢/ ٥٠٣، ٥٠٤

(٢) المغني ٧/ ٣

(٣) الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي ص ٨١، ٨٢ بتصرف

ويريد ابن كلاب ومن وافقه إن الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله خلقها الله لتدل على ذلك المعنى القائم بذاته تعالى وهو أربعة معان: الأمر والنهي والخبر والإستخبار إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وان عبر عنه بالعبرية كان توراة، واصل كلامه قائم على نفيه للصفات الاختيارية هروباً من القول بحلول الحوادث.

قال الإمام أبو الحسن الأشعري مفصلاً مذهبه: قال عبد الله بن كلاب إن الله لم يزل متكلماً، وان كلام الله سبحانه صفة له قائمة به وأنه قديم بكلامه وان كلامه قائم به كما إن العلم قائم به والقدرة قائمة به وهو قديم بعلمه وقدرته وان الكلام ليس بحروف ولا صوت ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض وأنه معنى واحد بالله عز وجل وان الرسم هو الحروف المتغايرة، وقال ابن كلاب: إن معنى قوله تعالى ﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ التوبة ٦ معناه: حتى يفهم كلام الله، قال الأشعري: (ويحتمل على مذهبه أن يكون معناه حتى يسمع التالين يتلونه) (١)

وأما السلف فهم يؤمنون أن الكلام صفة قائمة به سبحانه غير بائنة عنه، لا ابتداء لاتصافه بها ولا انتهاء يتكلم بها بمشيئته واختياره ولا يشبه كلام المخلوقين وكلامه احسن الكلام ويكلم به من شاء من خلقه: من ملائكته ورسله وسائر عباده بواسطة إن شاء أو بغيرها، ويسمعه على الحقيقة من شاء من ملائكته ورسله ويسمعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه كما أنه كلم موسى بصوت، وكما أن كلامه لا يشبه كلام المخلوقين فان صوته لا يشبه أصواتهم وكلماته لا حصر ولا نهاية لها، وكلامه ينقسم ويتبعض ويتجزأ فالقرآن من كلامه والإنجيل من كلامه والقرآن غير التوراة والإنجيل والفاتحة بعض القرآن وآية الكرسي بعض

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (٥٨٤، ٥٨٥)

سورة البقرة وكلامه يتفاضل فيكون بعضه افضل من بعض فآية الكرسي أفضل من غيرها من الآيات، وكلامه يتعاقب يتلو بعضه بعضاً، كل ذلك غير مخلوق بألفاظ وحروف ولا تشبه كلام المخلوقين وأصوات العباد وحركاتهم بالقرآن وورق المصحف وجلده ومداد الكتابة كل ذلك مصنوع مخلوق، والمؤلف من الحروف المنطوقة المسموعة المسطورة المحفوظة كلام الله تعالى غير مخلوق بحروفه ومعانية. (١)

هذا جملة ما فهمته من تبويب البخاري رحمه الله لهذه المسائل مع النظر في كلام الإمام أحمد وأبى داود وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم من الأئمة ممن كتب في هذه المسألة ولهم على كل فقرة دليل وعلى كل شبهة ردّ والحمد لله ولطول هذه المسائل التي تحتمل رسالة خاصة، فاستقتصر على أهم الشبه التي تمسك بها المخالفون ثم التعرض لثلاث مسائل مهمة هي:

مسألة خلق القرآن، ومسألة اللفظ ومسألة أفعال العباد وهي ما أفرد لها البخاري كتاباً مستقلاً سآتي على أهم مسائله وهو (خلق أفعال العباد) وقد ألفه لهذه المسألة أعني الخلاف في مسألة الكلام.

(١) إثبات صفة الكلام:

أدلة أهل السنة على هذه الصفة كثيرة منها:

- قوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله﴾ التوبة ٢٥٣.
- قوله تعالى ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ النساء ١٦٤.
- قوله تعالى ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ الأعراف ١٤٣.

---

(١) وانظر العقيدة السلفية في كلام رب البرية للجديع ص ٧٩ - ٨١ بتصرف

وقوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ التوبة ٦.

ومن السنة الشريفة

حديث أبي هريرة في احتجاج آدم وموسى فقال له آدم: (يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده). (١)

وحديث ابي هريرة قال: قال – صلى الله عليه وسلم – (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه. (٢)

ومن كلام الصحابة قول عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك (ووالله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى). (٣)

وعن فروة بن نوفل الأشجعي (٤) قال: كنت جاراً لخباب فخرجنا يوماً من المسجد وهو آخذ بيدي فقال: " يا هناه، تقرب إلى الله ما استطعت فانك لن تقّرب إليه بشيءٍ أحب إليه من كلامه – يعني القرآن – ". (٥)

إلى غير ذلك من آثار التابعين رحمهم الله.

وأما باقي المسائل فستكون ضمن الموضوعات التي أشرت إليها آنفاً حيث سأكتفي بكلام الإمام البخاري رحمه الله.

---

(١) رواه البخاري

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٨٧)

واللالكائي رقم (٥٥٧) وله شاهد عند الترمذي رقم ٢٩٦٢ وهو حديث حسن

(٣) متفق عليه

(٤) فروة بن نوفل بن شريك الأشجعي، تابعي اعتزل الفتنة بعد التحكيم، (ت ٤١ هـ) الأعلام (٥/ ١٤٣).

(٥) اللالكائي رقم ٥٥٨

أولاً: مسألة خلق القرآن:

أول ظهور لهذه المسألة وهذه الفتنة كان في أواخر عهد بني أمية على يد الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان فنسبت إليه، وفي أوائل العهد العباسي في بداية القرن الثالث أثار هذه المسألة بشر المريسي وأخذها عنه ابن أبي دؤاد (١) والذي كان قاضياً للمأمون فاستغل السلطة السياسية التي أجبرت الناس على هذا القول، قال الذهبي – وكان المأمون يجل أهل الكلام ويتناظرون في مجلسه (٢) وقد خاض معركة شرسة مع أئمة السنة لجعل هذه المسألة عقيدة عامة المسلمين بل وتدرس في الكتاتيب ولا يخفى مقام الإمام أحمد في هذه المسألة وخلف المأمون المعتصم الذي زاد على أخيه بتعذيب الأئمة في ذلك ثم خلفه ابنه الواثق – الذي نهج نهج من سبقه ثم كشف الله الغمة بأخيه المتوكل وقطع داء هذه الفتنة واعز الله به أهل السنة وكان ذلك كله في حياة الإمام البخاري يشهده ويعاصره إذ بداية هذه المسألة كانت سنة ٢١٨ هـ حتى سنة ٢٣٣، وقد توفى البخاري رحمه الله سنة ٢٥٦ هـ.

وقد انقسم الناس عند ظهور هذه الفتنة إلى أربعة أقسام:

١ – أهل الحق وأهل السنة والجماعة الذي قالوا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق.

٢ – الجهمية والمعتزلة ومن سار على طريقتهم قالوا القرآن مخلوق.

٣ – الواقفة وهم فئة قالت: لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق.

٤ – اللفظية: الذين قالوا: كلام الله غير مخلوق وألفاظنا به مخلوقة.

---

(١) يذكر ابن الاثير: ان الجهم أخذ ذلك عن ابان ابن سمعان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم وكان يقول بخلق التوراة) الكامل في التاريخ ٧/ ٧٥ فهذه سلسلة يهود وضلال والله المستعان!

(٢) سير اعلام النبلاء ١٠/ ٢٨٥

أما أهل السنة فأدلتهم أكثر من أن تحصر وقدمت شيئا منها. (١) وسأتعرض للمخالفين باختصار أما الجهمية والمعتزلة فانهم يقولون بان القرآن مخلوق وأدلتهم من مفهوم بعض الآيات كقوله تعالى ﴿الله خالق كل شيء﴾ الرعد ١٦ – والقرآن داخل في هذا العموم.

ويرد عليهم بأن عموم (كل) إنما هو بحسب الموضع الذي ترد فيه، فـ (بلقيس) (أوتيت من كل شيء) ولم تؤت ملك سليمان ولا غيره وقد قال الله أيضاً ﴿قل أي شيء اكبر شهادة قل الله﴾ الأنعام ١٩، فسمى الله نفسه شيئاً والمخلوق شيء عندهم والله هو الخالق وليس بمخلوق وصفاته تابعة لذاته والقرآن كلامه وكلامه صفته وصفته غير مخلوقة

وهنا يتضح خطأ المعتزلة في هذا الاستدلال خاصة أنه يناقض أصلهم في أن أفعال العباد عندهم غير مخلوقة فأخرجوها من عموم (كل) في دليلهم وادخلوا صفة الله فبان اضطرابهم.

ثم استدلوا بقوله تعالى ﴿إنا جعلناه قرآنا عربياً﴾ الزخرف ٣، قالوا والجعل الخلق.

ويرد عليهم بان الجعل يأتي متعدٍ إلى مفعول وإلى مفعولين فهو يستعمل بمعنى خلق إذا تعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ الأنعام ١.

وربما تعدى إلى مفعول واحد ولا يكون بمعنى خلق كقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ الأنعام ١٠٠.

لكن إن تعدى إلى مفعولين فلا يكون بمعنى (خلق) بأي حال كقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ الأنبياء ٧٣. ومثله قوله تعالى وهذا استدلال المعتزلة ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ فالمفعول الأول الضمير والثاني) (قرآناً) والمعنى قلناه قرآناً عربياً أو بيناه. قال الإمام احمد في ذلك (فقد قال الله تعالى ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ أفخلقهم؟ (٢)

وقد أطال الأئمة في بيان كفر من قال بخلق القرآن، قال الإمام أحمد: من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر.

وقال حين سئل عمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال: كنت لا أكفرهم حتى قرأت آيات من القرآن ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ البقرة ١٢٠ ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ آل عمران ٦١، ﴿أنزله بعلمه﴾ النساء ١٦٦، فالقرآن من علم الله ومن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر (٣) وقد عقد الإمام الدارمي فصلا في الرد على الجهمية فقال: باب الاحتجاج في إكفار الجهمية. (٤) وأما الواقفة: وهم الذين وقفوا فانهم لم يقولوا مخلوق لا غير مخلوق.

قال الدارمي: ومع وقوفهم لم يرضوا حتى نسبوا إلى البدعة من خالفهم سواء من قال القرآن مخلوق أو غير مخلوق (٥)

وأول ظهور هذه المسألة كان في زمن الإمام أحمد وكان إمامهم رجل من أهل العلم يقال له محمد بن شجاع الثلجي (٦) وهو من تلاميذ بشر المريسي وكانوا يسمونه (ترس الجهمية)

---

(١) انظر اللالكائي ٢/ ٢٤١ وما بعدها ورد الدارمي على بشر المريسي ص ١١٦ والشريعة للآجري ص ٧٥ والفتاوى لابن تيمية ١٢/ ٩٧ (٢) انظر أقوال المعتزلة في المغني للقاضي عبد الجبار ٧/ ٩٤، والاصول الخمسة ٥٧ ص ٥٢٨ – وللرد انظر الرد على الجهمية للامام أحمد ص ١٠٦ وشرح الطحاوية ١٧٨ وما بعدها ففيه التفصيل (٣) طبقات الحنابلة ١/ ٤١٤ (٤) الرد على الجهمية ٣٤٦ – ٣٥٦ (٥) الرد على الجهمية ص ١٦٧ (٦) محمد بن شجاع الثلجي، من أصحاب أبي حنيفة كان يضع الحديث يُثلِّب على أهل السنة، فيه ميل إلى المعتزلة، (ت ٢٦٦ هـ) الأعلام (٦/ ١٥٧).

ثم اظهر التوبة من صحبة المريسي ثم اظهر الوقف ولم يقبل منه الإمام أحمد هذه التوبة لأنه كان يشنع على أهل السنة ويضع عليهم الأحاديث وقد كذب على الإمام أحمد غير مره (١) ومذهبه في أن القرآن كلام الله وهو مُحَدث كان بعد أن لم يكن وبالله كان وهو الذي أحدثه وامتنع عن إطلاق القول بأنه مخلوق أو غير مخلوق (٢)، وقد شنع الأئمة على الواقفة وانهم شر من الجهمية وانهم شكاك يستترون بالوقف ويخدعون الناس فإنهم إذا يقفوا لم يعرف الناس مذهبهم فيستميلون العامة بهذا القول وأما الجهمية فقد بان أمرهم وعرفهم الناس فيجتنبونهم، وقد تصدى لهم الإمام أحمد وشدد عليهم وقال (من شك فقد كفر) (٣)، وقال أيضاً (هؤلاء شر من الجهمية إنما يريدون رأى جهم) وقال الإمام إسحاق بن راهوية فيمن يقف (هو عندي شر من الذي يقول مخلوق لأنه يقتدي به غيره). (٤)

وقد أطال النقاش معهم الدارمي في رده على الجهمية وفرق بين من كان من أهل الكلام والعناد وبين من لم يكن من أهل الكلام فأنه يعلم ويبصر ويقال له: القرآن كلام الله غير مخلوق فان امتنع فهو من الجهمية.

وقد سئل الإمام أحمد عن من وقف ولم يقل " غير مخلوق " قال: أنا أقول: القرآن كلام الله فقال: يقال له: إن العلماء يقولون غير مخلوق فان أبى؛ فهو جهمي. (٥)

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ٣٥٠ - ٣٥٢

(٢) مقالات الاسلاميين للاشعري ٢/ ٢٥٦

(٣) اللالكائي (٢/ ٣٢٣ - ٣٢٩) والابانة لابن بطه ١/ ٢٩١

(٤) الابانة لابن بطه ١/ ٣٠٩

(٥) السنة لعبد الله بن أحمد ١/ ١٧٩

وقال: من كان منهم يحسن الكلام فهو جهمي (١) – وقال أبو داود رحمه الله ورأيت الإمام أحمد سلم عليه رجل من أهل بغداد ممن وقف فيما بلغني فقال له: اغرب؛ لا أراك تجيء إلى بابي) في كلام غليظ ولم يرد عليه السلام وقال: ما أحوجك إلى أن يصنع بكل كما صنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصبيغ ودخل بيته وردّ الباب. (٢)

قال ابن قتيبة مبيناً حال الاختلاف في وقته وكان معاصراً لهذه المقولة (ولم أر في هذه الفرق ممن أمر بالسكوت والتجاهل بعد هذه الفتنة وإنما يجوز أن يؤمر بهذا قبل تفاقم الأمر ووقوع الشحناء وليس في غرائز الناس احتمال الامساك عن أمر في الدين قد انتشر هذا الانتشار، وظهر هذا الظهور. ولو امسك عقلائهم ما امسك جهلاؤهم، ولو أمسكت الألسنة ما أمسكت القلوب، ثم قال رحمه الله: وكل من ادعى شيئاً أو انتحل نحلة فهو يزعم أن الحق فيما ادعى وفيما انتحل خلا الواقف الشاك فأنه يقر على نفسه بالخطأ لأنه يعلم أن الحق في أحد الأمرين اللذين وقف بينهما (٣)، وهكذا عد الأئمة الواقفة من الجهمية ومن أهل البدعة.

ولعظم هذه المسألة أطال الإمام اللالكائي في عدّ من تكلم من السلف في هذه المسألة فأطال وافاد رحمه الله (٤)

وأما اللفظية: فان مسألة اللفظ بالقرآن من المسائل الدقيقة خاصة إنها حصلت بين جماعة من أهل السنة وأفاضل العلماء كما قال شيخ الإسلام (ومسألة اللفظ بالقرآن قد

---

(١) نفس المصدر والصفحة

(٢) الشريعة للآجري ص ٨٨

(٣) الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٦١، ٦٢ بتصرف

(٤) شرح اصول اعتقاد اهل السنة ٢/ ٣٥٧/٣٦٣

والرد على الجهمية للدارمي ٣٤٢ وما بعدها

اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل وجرت بسببها مخاصمات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة). (١) وإلا فالأصل في هذه المسألة إنها ليست من مأثور صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا تابعيهم كما قال الإمام الطبري " وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ولا تابعي قضى ". (٢) فمن أين جاءت هذه المسألة الحادثة ومتى بدأت؟

أول من عرف عنه هذه المسألة أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي فقيه معاصر للإمام أحمد كان مشتغلاً بالعلم وصحب الإمام الشافعي وهو أول من قال " لفظي بالقرآن مخلوق " فبلغ قوله الإمام أحمد فأنكره وقال: بدعة ثم قال الإمام أحمد: إنما بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها وتركوا الآثار. (٣)

وهذه المسألة دقيقة بين العلماء فهماً وقولاً ولذلك قال ابن قتيبة " وإنما اختلفوا في فرع لم يفهموه لغموضه ولطف معناه فتعلق كل فريق منهم بشعبة منه. (٤)

ولما قال الكرابيسي لفظنا بالقرآن مخلوق أراد بعض أهل السنة أن يردوا عليه فقال ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة فردوا البدعة ببدعة.

ولبيان حقيقة هذه المسألة العظيمة وأن منشأ النزاع فيها الذي –كما يصفه ابن تيمية – لا يكاد ينضبط أنه يعود إلى أصلين:

أحدهما: أن أفعال العباد مخلوقة.

---

(١) الفتاوى ١٢/ ٣٣٣

(٢) شرح السنة للالكائي ٢/ ٣٥٥

(٣) السير ١٢/ ٨٢

(٤) الاختلاف في اللفظ ص ٥٧

والثاني: مسألة تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به هل يقال مخلوق أو غير مخلوق؟ وقد نص الإمام أحمد على رد المقالتين هو وسائر أئمة السنة من المتقدمين والمتأخرين. (١)

ثم انقسم الناس بعد ذلك في هذه المسألة إلى ثلاثة أقسام:

١ – اللفظية النافية:

وهم الذين يقولون إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة والتلاوة غير المتلو والقراءة غير المقروء ونسب هذا القول إلى غير واحد من المعروفين بالسنة والحديث:

كالحسين الكرابيسي ونعيم بن حماد، والبويطي (٢)، والحارث الحاسبي.

٢ – اللفظية المثبتين: وهم الذين يقولون إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة والتلاوة هي المتلو والقراءة هي المقرئ ونسب هذا القول إلى غير واحد من المنتسبين إلى السنة والحديث، منهم: الإمام الذهلي، وأبو حاتم الرازي وأبو عبد الله بن منده وأبو نصر السجزي وغيرهم.

٣ – الذين لا يقولون بكل ذلك بل القرآن كلام الله غير مخلوق ولا التلاوة هي المتلو مطلقاً ولا غير المتلو مطلقاً.

وقالوا: من قال لفظي بالقرآن وتلاوتي أو قراءتي مخلوقة فهو جهمي ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع. (٣)

وقد نسب زوراً إلى الإمام البخاري أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق وقد قدمنا في ترجمته براءته من ذلك من قوله هو، وابين كلامه هنا في هذه المسألة من كتابة الجامع الصحيح

---

(١) الفتاوى ١٢/ ٤٣١ – ٤٣٢

(٢) يوسف بن يحيى القرشي، صاحب الشافعي، مات في السجن لإمتناعه عن القول بخلق القرآن، (ت ٢٣١ هـ) الأعلام (٨/ ٢٥٧).

(٣) الفتاوى ١٢/ ٢٠٦، ٢١٠، ٣٧٣ بتصرف يسير

ومابوب به لأجل هذه المسألة أثناء هذا البحث إن شاء الله فليس هناك اختلاف بينه وبين الإمام أحمد. .

ونشير هنا إلى أن الإمام أحمد ابتلى باللفظية النافية وردّ عليهم أكثر من غيرهم لوجهين: أحدهما أن قولهم يفضي إلى زيادة التعطيل والنفي.

وجانب النفي – أبدا – شر من جانب الإثبات؛ فان الرسل جاءوا بالإثبات المفصل في صفات الله وبالنفي المجمل فوصفوه بالعلم والرحمة والقدرة والحكمة والكلام والعلو وغير ذلك من الصفات، وفي النص ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ وأما الخارجون عن حقيقة الرسالة: من الصابئة – الفلاسفة والمشركين وغيرهم ومن تجهم من إتباع الأنبياء فطريقتهم (النفي المفصل) ليس كذا، ليس كذا. وفي الإثبات أمر مجمل ولهذا يقال: المعطل أعمى والمشبه أعشى فأهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل

(والوجه الآخر) أن الإمام أحمد ابتلى بالجهمية المعطلة فهم خصومه فكان همه منصرفاً إلى رد مقالاتهم دون أهل الإثبات فان لم يكن في ذلك الوقت والمكان من هو داع إلى زيادة في الإثبات كما ظهر من كان يدعو إلى زيادة في النفي والإنكار يقع بحسب الحاجة

والبخاري لما ابتلى (باللفظية المثبتة) ظهر إنكاره عليهم كما ظهر لنا من تراجم كتاب التوحيد وكما في خلق أفعال العباد. (١)

وقد أجمل الإمام الذهبي خلاف هذه المسألة فقال فيمن قال لفظي بالقرآن مخلوق " أن قال: لفظي وعني به بالقرآن فنعم وان قال لفظي قصد به تلفظي وصوتي وفعلي أنه مخلوق فهذا مصيب فالله تعالى خالقنا وخالق أفعالنا وأدواتنا لكن الكف عن هذا هو السنة ويكفي المرء

---

(١) من كلام شيخ الاسلام الفتاوى ١٢/ ٤٣٢ بتصرف

أن يؤمن بان القرآن العظيم كلام الله ووحيه وتنزيله على قلب نبيه – صلى الله عليه وسلم – وأنه غير مخلوق ومعلوم عند كل ذي ذهن سليم إن الجماعة إذا قرؤوا السورة انهم جميعاً قرؤوا شيئاً واحداً وان أصواتهم وقراءتهم وحناجرهم أشياء مختلفة، فالمقروء كلام ربهم وقراءتهم وتلفظهم ونغماتهم متباينة ومن لم يتصور الفرق بين التلفظ والملفوظ فدعه وأعرض عنه. (١)

وهنا سنبين موقف البخاري لصفة الكلام وما يلحق بها عرض لأبواب البخاري في هذه المسائل:

١ – القرآن كلام الله حقيقة.

وبوب له بقوله (باب قول الله تعالى، يريدون أن يبدلوا كلام الله وقوله ﴿أنه لقول فصل﴾ ثم ينوع رحمه الله في بيان كلامه تعالى فيورد الأحاديث القدسية النزول وقوله قال الله أنفق أنفق عليك. ومثله حديث النزول وفيه: يقول الله

٢ – ثم يبين ان كلامه قديم ويتكلم متى شاء سبحانه فقال باب ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ وبين في حديث أبي هريرة (إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي) فبين أن كلمة الله سبقت وجود الرسل والمرسل إليهم فهي قبل الخلق وهذا ما أشار إليه البخاري (في خلق أفعال العباد) فقال (إنما قولنا لشيء إذا أردناه آن نقول له كن فيكون) قال: فاخبر أن أول خلق خلقه بقوله فاخبر أن كلامه قبل خلقه. (٢)

---

(١) سير اعلام النبلاء ١٢/ ٧٧٠ وللتفصيل ١٣/ ١٠٠

(٢) خلق افعال العباد للبخاري ٤٤، ٤٥

٣ – وباب " وكلم الله موسى تكليماً " وفيه أحاديث اثبات لفظ التكلم من الله خاصة حديث الإسراء الطويل وكلام النبي – صلى الله عليه وسلم – مع الله ثم بين رحمه الله أن القرآن منزل غير مخلوق لان القرآن من علم الله وعلم الله غير مخلوق وهذا استدلال لطيف منه فقال (باب قوله ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾ وفيه أحاديث منها (آمنت بكتابك الذي أنزلت) ومنها (اللهم منزل الكتاب) وغيرها.

٤ – وبين: أن كلامه متى شاء ومع من شاء.

فبوب بكلامه مع الملائكة ومع الأنبياء فقال: باب في المشيئة والإرادة ثم أورد الأحاديث الكثيرة الدالة على مشيئة الله وبوب بـ: كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة.

واورد قول معمر ﴿وانك لتلقى القرآن﴾ النمل ٦٠ أي: يلقى عليك وتلقاه انت أي تأخذه عنهم ومثله ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ البقرة ٣٧.

وحديث (إن الله إذا احب عبداً نادى جبريل) وغيره من كلام الله مع ملائكته متى شاء وان كلامه في الآخرة يوم القيامة يقع مع الأنبياء وغيرهم فقال: باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم وساق رحمه الله أحاديث الشفاعة وفيه (يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع) وحديث (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان).

ثم ينوع رحمه الله فيأتي بكلامه أيضاً مع أهل الجنة ويبوب لذلك ويورد حديث (إن الله يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك وسعديك. . الحديث).

٥ – ويأتي رحمه الله إلى مسألة مهمة وهي أن كلام الله بحرف وصوت.

وقوله هذا هو قول أهل السنة من قبله أن كلام الله بحرف وصوت وان صوته لا يشبه صوت المخلوقين وقد فصل البخاري هذه المسألة بالتبويب والأحاديث اجمل تفصيل.

وأسوق قبل ذلك كلام الأئمة في هذه المسألة، قال عبد الله بن احمد قلت لأبي: إن هاهنا من يقول: إن الله لا يتكلم بصوت فقال: يا بنى هؤلاء الجهمية زنادقة إنما يدورون على التعطيل (١)

وقال: سألت ابي عن قوم يقولون لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت؛ فقال أبي: بلى إن ربك عز وجل تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت. (٢)

وقال الإمام السجزي (وليس في وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه. (٣)

وأكد مثل ذلك الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله قال: فالأخبار تدل على أن كلام الله صوت ولا كصوت الآدميين (٤) وقد فصل الحافظ ابن حجر رحمه الله في هذه المسألة ونظر إلى تأويل البيهقي وغيره بعين الإنصاف خاصة من تضعيف حديث البخاري في إثبات الصوت وقال " إذا اثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة وجب الإيمان به". (٥)

قال الإمام البخاري، باب قوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ سبأ ٢٣، قال

---

(١) الفتاوى ١٢/ ٣٦٨

(٢) السنة لعبد الله بن احمد رقم ٥٣٣

(٣) للإمام السجزي كتاب خاص في هذه المسألة وانظر درء التعارض ٢/ ٩٣

(٤) الغنية لطالبي الحق ص ٦٠ بواسطة موسوعة أهل السنة لدمشقية ص ٣٠٠

(٥) الفتح ١٣/ ٤٦٦ وذكر أنه بعد الايمان به إما التأويل أو التفويض! ؟ وهي من مواطن مخالفته للبخاري رحمهما الله

البخاري ولم يقل: ماذا خلق ربكم ثم أورد شاهداً للآية من كلام ابن سعود " فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت وعرفوا أنه الحق ".

ثم بين رحمه الله إن صوته لا يشبه أصوات خلقه وهو ما نص عليه في (خلق أفعال العباد) فقال بعد حديث الباب وهو (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب).

قال البخاري: وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق لان صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب؛ وان الملائكة يصعقون من صوته فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا وقال الله عز وجل ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ البقرة ٢٢.

فليس لصفة الله ند، ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين. (١)

ولاجل كلامه السابق هذا نعلم سبب إدخاله باب ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ بعد أن ساق أبواب الكلام والصوت واللفظ وغيرها فرحمه الله من إمام حصيف أراد التنبيه على ذلك حيث صرح هو بذلك في (خلق أفعال العباد).

٦ – ويفرد الإمام البخاري عدة أبواب لينبه على مسألة مهمة كانت معاصرة له وهي مسألة من يقول إن القرآن حكاية عن كلام الله وهل ينتقل من مكان إلى مكان وهل هو عبارة واحدة بسيطة.

وهذا ردّ منه رحمه الله على الكلابية ومن تبعهم الذين يرون ان القرآن العربي ليس هو كلام الله وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى وأيضاً الرد على الكرامية الذين يقولون أنه تكلم بالقرآن بعد أن لم يكن متكلماً.

---

(١) خلق افعال العباد ص ٩٨

فقال: باب قوله تعالى ﴿يريدون ان يبدلوا كلام الله﴾ الفتح ١٥، ثم اتبعه بأبواب كلام الله مع الأنبياء يوم القيامة مع الملائكة ومع جبريل ومع غيرهم تدل على انتقال كلامه وهذا رد على الكلابية بخلاف قول المعتزلة الذين يرون انتقاله لكن على مذهبهم أنه مخلوق

وقال: باب قوله ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ الصافات ١٧١، فكلامه قبل خلقه فأنه يخلق بالأمر كن فهو متكلم وليس كما قالت الكرامية أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلم.

٧ – وأما موقف البخاري من مسألة اللفظ في كتاب التوحيد فأنه أطال فيها النفس ونوع فيها الأدلة لكي يبين موقفه رحمه الله بالأدلة الصريحة.

وهنا انقل كلاماً نفيساً كمقدمة لكلام البخاري وهو ما قاله الإمام ابن قيم الجوزية قال: الحق ما عليه أئمة الإسلام كالإمام أحمد والبخاري واهل الحديث: إن الصوت صوت القاري والكلام كلام الباري وقد اختلف الناس هل التلاوة غير المتلو أو هي المتلو؟ على قولين، والذين قالوا التلاوة هي المتلو فليست حركات الإنسان عنهم هي التلاوة وإنما أظهرت التلاوة وكان سبباً لظهورها وإلاّ فالتلاوة عندهم هي نفس الحروف والأصوات هي القديمة، والذين قالوا: التلاوة غير المتلو طائفتان:

إحداهما: قالت: التلاوة هي هذه الحروف والأصوات المسموعة وهي مخلوقة والمتلو هو المعنى القائم بالنفس وهو قديم وهذا قول الاشعري. (١)

والطائفة الثانية: قالوا: التلاوة هي قراءتنا وتلفظنا بالقرآن والمتلو هو القرآن العزيز المسموع بالآذان بالآداء من (في) رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا قول السلف وأئمة السنة والحديث

---

(١) وهو أصلاً قول ابن كلاب: الصواعق المرسلة ص ٤١٠، ٤١١

فان قيل: فإذا كان الأمر كما قررتم فكيف أنكر الإمام أحمد على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق وبدّعة ونسبه إلى التجهم، وهل كانت محنة ابي عبد الله البخاري إلاّ على ذلك حتى هجره أهل الحديث ونسبوه إلى القول بخلق القرآن.

قيل: معاذ الله أن يظن بأئمة الإسلام هذا الظن الفاسد، فقد صرح البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) (١) وفي آخر الجامع بان القرآن كلام الله غير مخلوق.

فخفي تفريق البخاري وتمييزه على جماعة من أهل السنة والحديث ولم يفهم بعضهم مراده (٢)، وهذا هو عين ما أشار إليه البخاري رحمه الله حاكياً ما نقل عنه أنه لم يفهم فقال: " ونحن على قول عمر حيث يقول: اني قائل مقالة قدر لي أن أقولها فمن عقلها ورعاها فليحدث بها حتى تنتهي به راحلته ومن خشي ألا يعيها فاني لا أحل له أن يكذب عليّ (٣)؛ والبخاري ميز في هذه المسألة وأشبعها رحمه الله وفرق بين ما قام بالرب وبين ما قام بالعبد وأوقع المخلوق على تلفظ العباد وأصواتهم وحركاتهم وإكسابهم ونفى اسم الخلق عن الملفوظ وهو القرآن الذي سمعه جبريل من الله وسمعه محمد – صلى الله عليه وسلم – من جبريل. (٤)

وسأعرض لتبويبه واستشهاده رحمه الله في هذه المسألة ووجه الاستشهاد والله المستعان.

فقال: باب قوله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ البقرة ٢٢ وقوله ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لان أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من المشركين﴾ الزمر ٦٥.

---

(١) انظره في مواضع من كتابه فقد ألفه لهذه المسألة خاصة

(٢) مختصر الصواعق ص ٤٢١ بتصرف

(٣) خلق افعال العباد ص ٧٧

(٤) مختصر الصواعق للموصلي ص ٤٢٢

قال الحافظ: وغرضه هنا الرد على من لم يفرق بين التلاوة والمتلو وقال: باب ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ القيامة ١٦، وفعل النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث ينزل الوحي وذكر حديث ابن عباس كان يعالج من شدة التنزيل وكان يحرك شفتيه: فانزل الله ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرأنه﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرؤه فإذا قرأناه فاتبع قرأنه

قال الحافظ: " وهذا من أوضح الأدلة على أن القرآن يطلق ويراد به القراءة فان المراد بقوله ﴿قرأنه﴾ في الآيتين القراءة لا نفس القرآن.

وقال: باب ﴿واسروا قولكم أو اجهروا به﴾ الملك ١٣، وفيه نزل قوله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الإسراء ١١٠، أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن – الحديث.

قال ابن المنير: إنما قصد البخاري الإشارة إلى النكتة التي كانت سبب محنته بمسألة اللفظ فأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الخلق تتصف بالسر والجهر وذلك يستدعي كونها مخلوقه (١) ومثل ذلك في الباب الذي يليه، باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل يقول لو أتيت مثل ما أوتى هذا فعلت مثل ما يفعل.

قال البخاري: فبين أن قيامه بالكتاب فعله (٢) ثم قال وقال تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم والوانكم﴾ الروم ٢٢، قال البخاري بعد هذه الآية في خلق أفعال العباد: فمنها العربي ومنها العجمي فذكر اختلاف الألسنة والألوان وهو كلام العباد (٣) وهكذا في جملة أبواب يبين فيها كلها إن القراءة فعل القاري ومتصفة بما تتصف الأفعال به ومتعلقة بالظروف المكانية والزمانية أسوة بالأفعال كلها، وقد ختم رحمه الله صحيحه

---

(١) المتوارى على تراجم ابواب البخاري لابن المنير ص ٤٢٨

(٢) وبنفس هذا نص في خلق افعال العباد ص ١١٨

(٣) المرجع السابق ص ١١٨

بالحديث العظيم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان وبوب لها بقوله: باب قول الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط﴾ الأنبياء ٤٧ وقال: وان أعمال بني آدم وقولهم يوزن؛ قال ابن القيم: مراد ابي عبد الله بهذا الاستدلال أن النقل في الميزان والخفة على اللسان متعلق بفعل العبد وكسبه وهو صوته وتلفظه لا يعود إلى ما قام بالرب تعالى من كلامه وصفاته؛ ثم قال: والبخاري اعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه وكلامه أوضح وامتن من كلام ابي عبد الله، فان الإمام أحمد سد الذريعة حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفياً وإثباتاً على اللفظ – فالذي قصده احمد – إن اللفظ يراد به أمران، أحدهما الملفوظ نفسه وهو غير مقدور للعبد ولا فعل له (والثاني) التلفظ به والآداء له وفعل العبد فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول وهو خطأ واطلاق نفي الخلق عليه قد يوهم المعنى الثاني وهو خطأ فمنع الإطلاقين (١)؛ وأما البخاري رحمه الله فقد فصل وبين واشبع الكلام دفاعاً عما اتهم به ونصحاً للمسلمين من الاختلاف وتبديع بعضهم لبعض

قال رحمه الله: وحرم الله عز وجل أهل الأهواء كلهم ان يجدوا عند أشياعهم أو بأسانيدهم حكماً من أحكام الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو فرضاً أو سنة من سنن المرسلين إلاّ ما يعتلون بأهل الحديث اذ بدالهم كالذين جعلوا القرآن عضين فآمنوا ببعض وكفروا ببعض فمن ردّ بعض السنن مما نقله أهل العلم فيلزمه أن يرد باقي السنن حتى يتخلى عن السنن والكتاب وأمر الإسلام اجمع والبيان في هذا كثير (٢)

---

(١) مختصر الصواعق للموصلي ٤٢٣، ٤٢٤ بتصرف

(٢) خلق أفعال العباد ص ٧٧

الفصل الخامس: ما ورد في أفعال العباد

تكلم الإمام البخاري في مسألة أفعال العباد وأنها مخلوقة لله وان العبد له مشيئة وليس مسلوباً لها وأطال في هذه المسألة وألف لها كتاباً خاصاً، ولأنها داخلة من وجه في مسألة اللفظ سأقتصر على أهم الأقوال فيها خاصة حين يعرضها الإمام البخاري بنفسه فيقول: اختلفت الناس في الفاعل والمفعول والفعل:

فقالت القدرية: الأفاعيل من البشر ليست من الله.

وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله.

وقالت الجهمية: الفعل والمفعول واحد لذلك قالوا: لكن مخلوق.

وقال أهل العلم: التخليق فعل الله وأفاعيلنا مخلوقة لله لقوله تعالى ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به أنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق﴾ الملك ١٤.

– ثم يضيف موضحاً – يعني السر والجهر من القول. ففعل الله صفة الله والمفعول غيره من الخلق ويقال: لمن زعم اني لا أقول: القرآن مكتوب في المصحف ولكن القرآن بعينه في المصحف يلزمك أن تقول: ان من ذكر الله في القرآن من الجن والإنس والملائكة والمدائن ومكة والمدينة وغيرهما، وإبليس وفرعون وهامان وجنودهما والجنة والنار عاينتهم بأعيانهم في المصحف لان فرعون مكتوب فيه كما أن القرآن مكتوب ويلزمك أكثر من هذا حيث يقول في المصحف وهذا أمرٌ بين لأنك تضع يدك على الآية وتراها بعينيك ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم﴾ البقرة ٢٥٥ فلا يشك عاقل بان الله هو المعبود وقوله ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم﴾ هو قرآن.

وكذلك جميع القرآن هو قوله والقول صفة القائل موصوف به فالقرآن قول الله والقراءة والكتابة والحفظ للقرآن هو فعل الخلق لقوله ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ (١) المزمل ٢٠، وهنا نرى الإمام البخاري ناقش هذه المسألة تبعاً لمسألة اللفظ؛ كما بوب لذلك بقوله" باب قوله تعالى: ﴿واسروا قولكم أو اجهروا به أنه عليم بذات الصدور﴾

وأراد بهذه الآية أن أفعال الله وأوصافه لا تشتبه بأفعال العباد وأوصافهم، فان أقوال العباد الموصوفة بأنهم يجهرون بها أو يسرونها هي أقوالهم وأعمالهم. أما كلامه وفعله فلا يكون وصفاً للعباد بأنه قولٌ لهم أو فعل لهم.

وقد قال الإمام أحمد أفاعيل العباد مخلوقة وأفاعيل العباد بقضاء وقدر.

وقال: الاستطاعة لله والقوة ما شاء الله كان من ذلك وما لم يشأ لم يكن ليس كما يقول هؤلاء – يعني المعتزلة – الاستطاعة إليهم. (٢)

وسأله حنبل مرة: أفاعيل العباد مخلوقة قال: نعم مقدرة عليهم بالشقاء والسعادة، فأهل السنة يخالفون الجهمية الجبرية والمعتزلة القدرية ويعتقدون أن الله خالق أفعال العباد ولا خالق

---

(١) خلق أفعال العباد ١١٤، ١١٥ بتصرف

(٢) طبقات الحنابلة لابي يعلى ١/ ١٤٥

سواه وليس بوسع المخلوق أن يخلق فعله – وهنا تنبيه – وهو أننا إذ قلنا إن الله خالق أفعال العباد فليس معنى هذا أنه يجوز أن يتصف بها أو تعود أحكامها إليه، لكنها تعود للإنسان الذي فعلها وقامت به وصارت فعلاً له، لان من لم يفرق بين فعل الله حقيقة وفعل العبد حقيقة يلزمه أحد محذورين.

الأول: أن يصف الله بأفعال عباده ومعلوم ما فيها من ظلم وكذب.

الثاني: أن ينفي عن الله ما أثبته لنفسه من أنه خالق كل شيء.

وهذان أمران عظيمان فالله لا يوصف بشيء من مخلوقاته بل صفاته قائمة بذاته

وقد أكثر البخاري رحمه الله من الاستدلال أن أهل العلم يفرقون بين الخلق والمخلوق، فقد تدرج رحمه الله في هذه المسألة فقال (باب ما جاء في قوله ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ الأعراف ٥٦، فبين أن الرحمة صفة ذات له كقوله تعالى ﴿وربك الغني ذو الرحمة﴾ ١٣٢ الأنعام؛ وتكون مفعولاً له مخلوقاً ثم أورد حديث في بعض طرقه (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده) ومراده بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق فتكون مخلوقة لله مفعولاً له ومثله باب قول الله تعالى ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ فاطر ٤١، فاثبت فيه جنس الفعل في قوله ﴿يمسك﴾ وهذا مدخل لطيف على أنه فعال لما يريد ونبه عليه رداً على المعتزلة وغيرهم، وعلق بقوله في خلق أفعال العباد (إلاّ المعتزلة: فإنهم ادعوا أن فعل الله مخلوق وان أفعال العباد غير مخلوقة وهذا خلاف علم المسلمين. (١)

---

(١) خلق افعال العباد ص ٧٥

ثم صرح رحمه الله في باب – ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق وهو فعل الرب تبارك وتعالى – وأمره – فالرب بصفاته وفعله وأمره (وكلامه) (١) هو الخالق المكون غير مخلوق وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون

فبين رحمه الله أوضح بيان أن التخليق فعل الله والمخلوقات وقعت بفعل الله والمخلوق ليس هو فعل الله وإنما مفعوله؛ ووضح ذلك في خلق أفعال العباد فقال: وأما الفعل من المفعول فالفعل إنما هو أحداث الشيء والمفعول هو الحدث لقوله ﴿خلق السموات والأرض﴾ الأنعام ٧٣، فالسموات والأرض مفعولة وكل شيء سوى الله بقضائه فهو مفعول فتخليق السموات فعله لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله ففعله من ربوبيته حيث يقول كن فيكون ولكن من صنعته وهو الموصوف به كذلك قال: رب السموات ورب الأشياء وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – " رب كل شيء ومليكه ". (٢) قال ابن القيم معلقاً على كلام البخاري في تبويبه: وهذه الترجمة من أدّل شيء علي دقة علمه ورسوخه وهي فصل في مسألة الفعل والمفعول وقيام أفعال الرب عز وجل وانها غير مخلوقة وان المخلوق هو المنفصل عنه الكائن بفعله وأمره وتكوينه. وفرق بين ما يقوم بالرب وما لا يقوم به وبيّن أن أفعاله كصفاته داخلة في مسمى اسمه ليست منفصلة خارجة مكونة بل بها يقع التكوين (٣)

وقد اكتفيت في بيان مراد البخاري من كلامه هو ان كان بعيداً عن أقوال الشراح ولا يخفى أهمية ذلك حتى قال الحافظ في مثل هذه المسألة " ثم وجدت بيان مراده في كتابه الذي

---

(١) ما بين الاقواس في بعض نسخ الصحيح وهي رواية ابي ذر كما في الفتح ١٣/ ٤٤٨

(٢) خلق افعال العباد ص ١١٣

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ٢٤٠

أفرده في خلق أفعال العباد " (١) وبعد ذكره لتأويل ابن بطال لكلام البخاري في هذه المسألة قال الحافظ " ولم يعرج على ما أشار إليه البخاري فله الحمد على ما انعم. (٢)

وبهذا اختم هذا المبحث واسأل الله التوفيق والسداد.

---

(١) الفتح ١٣/ ٤٤٨

(٢) المصدر السابق ١٣/ ٤٤٩

ملحق في منهج البخاري – رحمه الله – في بيان مسائل العقيدة ورده على المخالفين

تميز الإمام البخاري –رحمه الله– في بيانه لمسائل العقيدة ورده على المخالفين بمميزات تجمعه مع أئمة السلف الكبار الذين يقتدى بهم، ذلك ما فهمته من كتاب التوحيد وما نص عليه في (خلق أفعال العباد)، فمن ذلك:

أولاً: تعظيمه للآثار

١ – ويتمثل ذلك باحتجاجه بالكتاب الكريم والسنة المطهرة، فالآية الصريحة يبوب بها لكي يتضح مراده منها، لا يأولها ولا يحرفها، فيورد آيات الصفات مرتبة ويتبعها بالأحاديث الصريحة لا يفرق بين ما كان منه متواتراً أو أحاداً، إذ الجميع عنده بمنزلة واحدة إذا كانت صحيحة، وأن كان في عرضه لمسائل العقيدة يتحرز من أولئك الذين لا يقبلون خبر الواحد، فيبوب بآيات غالباً ليوحي أن هذه المسألة ثابتة بالقرآن أصلاً.

٢ – الاحتكام إلى هذه الآثار في حالة الإختلاف، ولذلك كثيراً ما يورد قوله تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ النساء ٥٩، وقوله عليه الصلاة والسلام (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ)، وكان يقول: فافترقوا على أنواع جهلاً بلا حجة أو ذكر إسناد وكله من عند غير الله.

٣ – الرجوع في هذه الآثار إلى تفسير السلف فهو ينقل عن الصحابة في التفسير وعن تابعيهم كما في الإستواء عن أبي العالية وعن مسروق (١) وقبلهما عن ابن عباس وغيره من السلف.

٤ – بيانه للأدلة غير الصريحة والرد عليها بإيراده للآيات والأحاديث الصحيحة مقابلة للآراء البشرية والفهم المخالف، فالآية التي يفهمونها على غير وجهها يتبعها بالحديث الذي يوضحها كقوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ اتبعها بقوله – صلى الله عليه وسلم – (إنكم سترون ربكم) وهكذا في أمثلة كثيرة.

ثانياً: الاحتكام إلى اللغة العربية

ولذلك تجده –رحمه الله– كثيرا ما يورد كلام أئمة اللغة خاصة اكثاره عن ثلاثة منهم: ابن الأعرابي والفراء وأبي عبدالقاسم بن سلام في مواضع كثيرة من صحيحه.

قال: وإن لم يعلم هذا المعترض اللغة فليسأل أهل العلم من أصناف الناس.

وقال: وما تحملنا على كثرة الإيضاح والشرح إلاّ معرفتنا بعجمة كثير من الناس، ثم نقل قول الحسن: إنما أهلكتكم العجمة.

وقال البخاري أيضاً: إن أ: ثر مغاليط الناس من هذه الأوجه، الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق، ولا الفعل من المفعول، ولا الوصف من الصفة.

---

(١) مسروق بن الأجدع، تابعي ثقة، قدم المدينة في ايام أبي بكر كان عالماً بالفتيا، (ت ٦٣ هـ) الأعلام (٧/ ٢١٥).

ثالثاً: التمسك بالألفاظ الشرعية وبيان مراد المتكلم

فالبخاري مثل السلف لا يقولون بشيء لم يرد، وإذا تكلم متكلم يستوضحون منه مراده، فقد بوب -رحمه الله- لمسألة من يقول القرآن غير الله، وهي مسألة حادثة، فقال: باب قوله تعالى ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ الفتح ١٥.

وقال -رحمه الله-: وأما قوله فهل يرجع إلى الله إلاّ باللفظ الذي تلفظ به، فإن كان الذي تلفظ به قرآناً فهو كلام الله، قيل له: ما قولك تلفظ به؟ فإن اللفظ غير الذي تلفظ به لأنك تلفظت بالله وليس الله هو لفظك.

والبخاري ماهر في شرح المصطلحات الشرعية موضح لها، حتى يفهم المتلقي، فيقول: باب ذكر الله بالأمر. وذكر العباد بالدعاء والتضرع والرسالة والبلاغ، ثم يدلك لكل ذلك. ويقول في موضع آخر: فقوله تعالى ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ البقرة ٢٠٠، يشرح أن ذكر العبد ربه غير ذكر الله عبده؛ لأن ذكر العبد الدعاء والتضرع، وذكر الله الإجابة، كما قال الله عز وجل وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: (إني لا أقول إلاّ ما في القرآن).

رابعاً: الإيجاز في عرض الشبهة وجوابها

وغرضه حتى لا تستقر في قلوب الضعفاء، وقد استعمل هذا في عدة مواضع من كتاب التوحيد فقال: " باب قوله ﴿كل يوم هو في شأن﴾ الرحمن ٢٩، وقوله ﴿وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ الأنبياء ٢، وقوله ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ الطلاق ١، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى ١١، فقد بيّن بأوجز عبارة وأوضح دليل مسألة قيام الحوادث وأنه يكفي في دفعها رفع تصور المشابهة بين الخالق والمخلوق.

وما كان -رحمه الله- يذكر الشبهة بل ربما حذر منها ومن عدم حكايتها تهويلاً لها واشفاقاً من سماعها، فكان ينقل قول ابن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية.

وقال البخاري محذراً منهم: ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم، ولا يعادون، ولا يناكحون، ولا يشهدون، ولا تؤكل ذبائحهم.

خامساً: الاحتجاج بموافقة العقل الصريح للنص الصحيح

ولم يغفل البخاري الاستنباط العقلي والحوار الجدلي الواقف على أرضية الكتاب والسنة، فالبخاري كثيراً ما يعرض بقياس الشاهد على الغائب، ويؤكد على قياس الأولى فيقول:

- وإن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين.
- ويقول قال تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ البقرة ٢٢، وما ذكر في خلق أفعال العباد واكسابهم.

- ويقول ذكر الله غير ذكر العباد، ذكر الله بالأمر، وذكر العباد بالدعاء.

ويستنبط البخاري من النصوص أدلة عقلية على مقصوده، فيقول [ماذا قال ربكم قالوا الحق] قال البخاري: ولم يقل ماذا خلق ربكم؟

وتراه في إثبات صفة العلو يورد آيات عروج الملائكة، وصعود الكلم الطيب ونزول الملائكة.

وقال: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله﴾ الأنعام ١٩.

قال البخاري فسمى نفسه شيئاً وسمى النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن شيئاً وهو صفة من صفاته.

وكذلك في إثبات صفة العزة لله، أورد أحاديث الحلف بالعزة، كقول أيوب (وعزتك) أراد البخاري أن الحلف بالعزة والصفات، وأن ذلك من أحكام الصفات؛ لأن لها أحكام الذات.

وهكذا فالبخاري -رحمه الله- من مجتهدي سلف الأمة أثبت لله صفاته من غير تأويل ولا تحريف وآمن باسمائه وأحكامها، ونفى عن الله النقص، وأثبت خلق الله لافعال عباده وأن العباد لهم تصرف في أفعالهم مع عدم خروجهم عن قدر الله، كل ذلك باسلوب عميق وفهم دقيق ومنهج غير متباين من أول الكتاب إلى آخره.

يقول د. علي سامي النشار: وللبخاري منهج في الاستدلال في غاية الدقة، وذلك أن يورد النصوص من القرآن والسنة. وما هذا المنهج إلاّ منهج استقرائي شديد التتبع للنصوص وفحصها والاستنتاج منها بكل حذر ودقة واحتياط، ولم نر لأحد من المؤلفين هذه الدقة المنهجية التي سار عليها البخاري. (١)

---

(١) مقدمة عقائد السلف.

الخاتمة

الحمد لله الذي يسر وأعان على إتمام هذا البحث في عرض ودراسة مسائل العقيدة عند الإمام البخاري من خلال كتاب التوحيد، آخر كتاب في جامعه الصحيح.

وقد توصلت من خلال دراسة أبوابه وأحاديثه إلى ما يلي:

١ – أن العقيدة الصحيحة التي هي أساس الدين مصدرها الكتاب والسنة، وما بني على غيرها فهو على جرفٍ هار.

٢ – إن الإمام البخاري كان من أئمة الحديث رواية ودراية، فقيهاً ملماً بإصول اعتقاد أهل السنة والجماعة على فهم السلف الصالح سائراً على نفس الطريق، لم يشذ عنهم.

٣ – لم يدخل رحمه الله في متاهات علم الكلام وأهله بل ذمهم بأنهم بدلوا كلام الله وشبهوه بخلقه في قياسهم فيما اعتقدوه تنزيهاً له.

٤ – سلك –رحمه الله– مسلك السلف في الإستدلال في إثبات صفات الله وأسماءه الحسنى بالكتاب والسنة، وفهم السلف لهذه النصوص، فهو يستدل بهم في كتابه.

٥ – لا يفهم من كلامه التعطيل ولا التحريف، بل الإثبات ونفي الكيفية.

٦ – أثبت –رحمه الله– الأسماء الحسنى ونبه على أنها توقيفية، وأن مأخذها الكتاب والسنة، ورأى أن أحصاءها حفظها، وليست محصورة بعدد معين.

٧ – أثبت –رحمه الله– جميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولم يؤل الصفات الخبرية، بل أثبت الوجه واليد والأصابع والعين والنزول وغيرها –رحمه الله–.

٨ – أثبت –رحمه الله– رؤية المؤمنين لربهم وأنها ممكنة في الآخرة، واستدل لها بالكتاب والسنة.

٩ – أثبت أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأنه صفة من صفاته، وأن الله تكلم بكلام قديم متى شاء تكلم به، وأنه يتكلم مع من يشاء، فتكلم مع الأنبياء وأهل الجنة ومع الملائكة، وأن كلامه يتفاضل وأن بعضه أفضل من بعض، وأن الله يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله.

١٠ – كان له موقف من مسألة اللفظ أُتهم به وهو منه بريء، وكان يقول إن التلاوة غير المتلو، فالتلاوة فعل القاري والمتلو كلام الباري.

١١ – تكلم –رحمه الله– في أفعال العباد وفرق بينها وبين أفعال الله، وبيّن أن أفعال الرب غير مخلوقة، وأن المخلوق هو المنفصل عنه الكائن بفعله وأمره وتكوينه، وبيّن أن أفعاله كصفاته داخلة في مسمى اسمه ليست منفصلة خارجة مكونة، بل وضح أن بها يقع التكوين، فوافق بهذا التفصيل أئمة المسلمين، بل نقل في كتابه (خلق أفعال العباد) جماعة كثيرة من السلف عدهم هناك وأنهم يقولون معه بهذا القول.

١٢ – الضابط الذي استعمله –رحمه الله– في جميع مسائله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وهو ضابط السلف في التعرض لمسائل الإعتقاد.

١٣ – أبان للباحث مخالفة غالب شراح البخاري لغرضه من التراجم، وبأن ذلك من النظر في استدلاله وتأويل الشراح له، واتضح كثيراً عند الرجوع إلى تصريحه في كتابه (خلق أفعال العباد)

ويقترح الباحث في نهاية هذا البحث:

١) تدريس كتاب التوحيد للبخاري كمقرر دراسي في الجامعات خاصة أهل الاختصاص في أقسام العقيدة، حيث تميز بعدة مميزات:

١ – صفاء العقيدة وسلامتها.

٢ – جودة الترتيب ودقة التبويب.

٣ – شحذ أذهان الطلاب لمعرفة المسائل والتراجم.

٢) تشجيع الباحثين على بيان مسائل الاعتقاد من كتب الحديث، مع العناية بالصحيح منها، إذ هي المصدر الثاني للتشريع، وكتابة الرسائل الجامعية فيها.

٣) تنبيه الباحثين على وجوب موافقة كتب السنة في الاعتقاد، كما وافقوها في مسائل العبادات، وحث المسلمين على أخذ عقائدهم من صحيح البخاري، وكتب السنن الأصلية بعيداً عن تعقيدات كتب الكلام وآراء الأنام.

وفي الختام هذا جهد المسكين وبضاعته المزجاة، اجتمع فيها ضيق الوقت وقصر الباع وليس هذا تواضعاً، بل هذا الواقع. فأسأل الله أن لا يحرمنا ما فيه من أجر، فما فيه من خير فمن الله، وما فيه من نقص فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمد.، ،